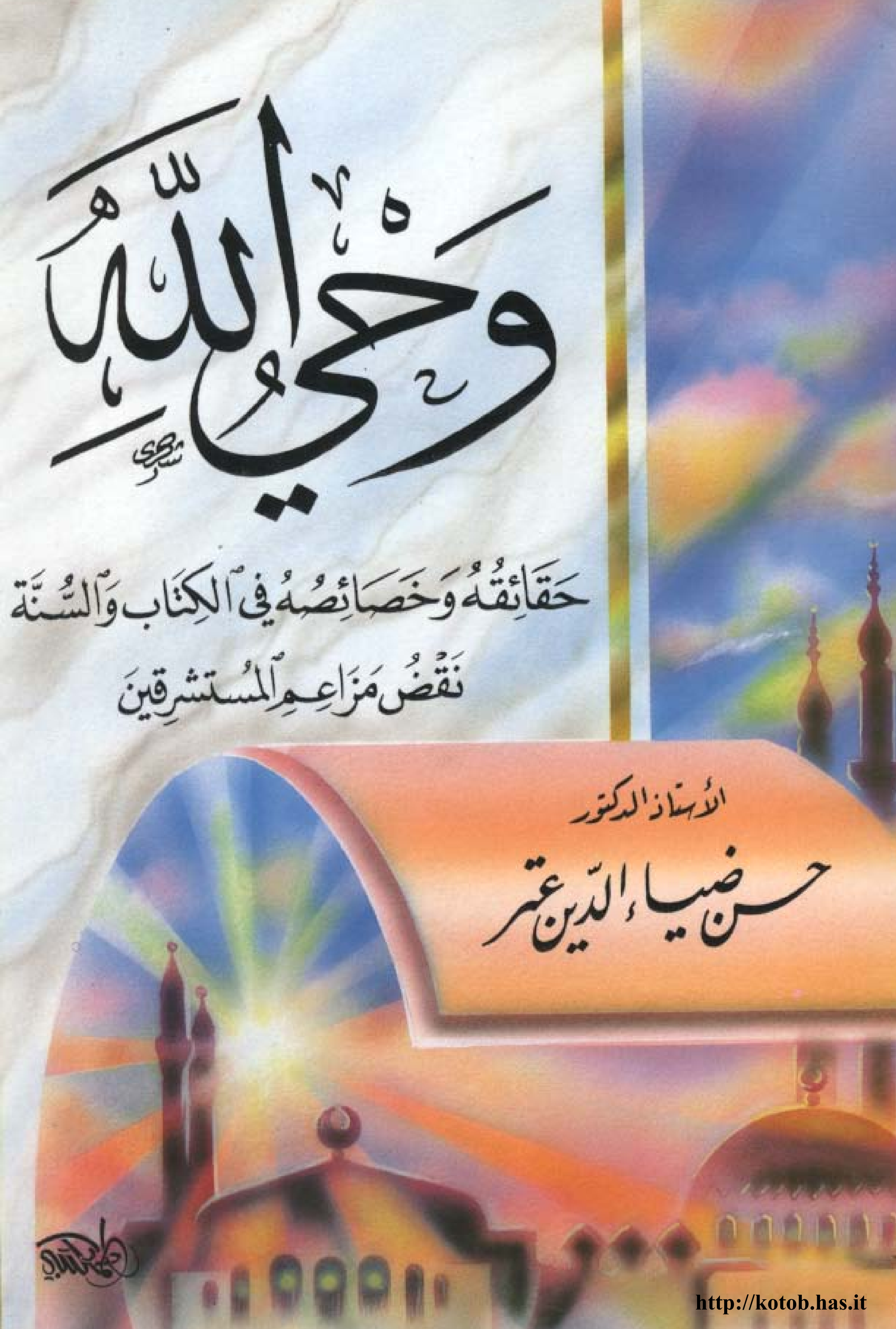


وحي الله
حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة
نقض مزاعم المستشرقين
الأستاذ الدكتور
حسن ضياء الدين عتر
http://kotob.has.it


بسم الله الرحمن الرحيم


وحي الله



حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة

نقض مزاعم المستشرقين

الأستاذ الدكتور

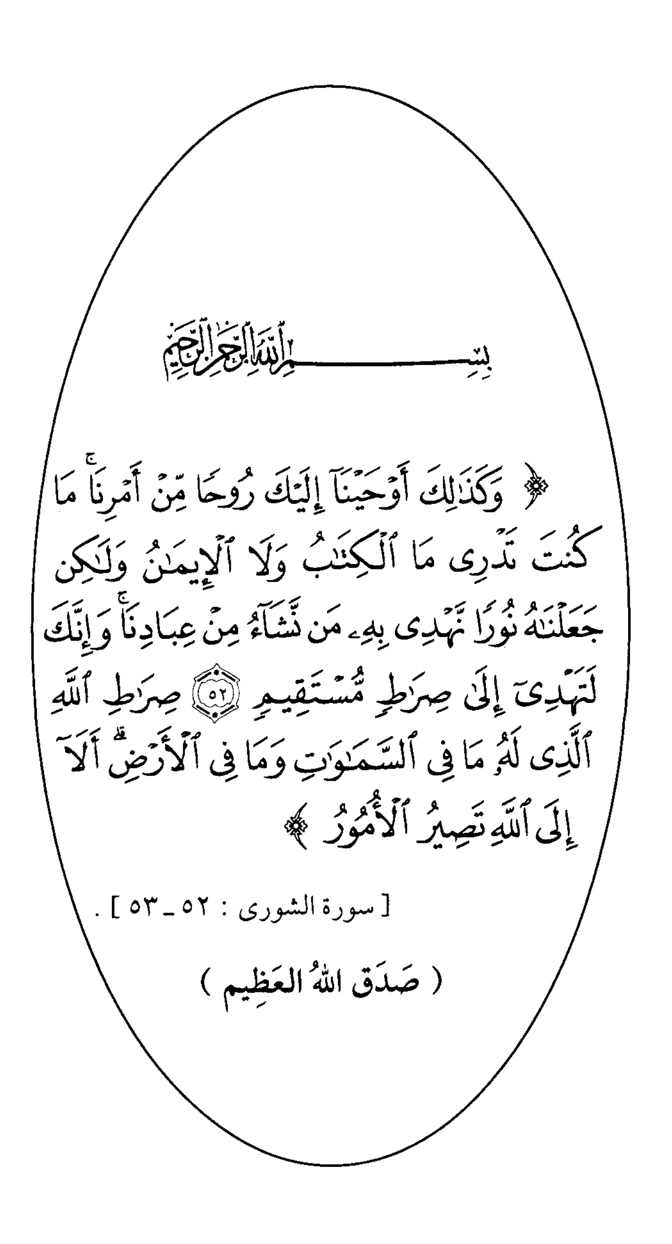
حسن ضياء الدين عتر

دار المكتبي

الطبعة الأولى
1419 هـ - 1999 م



سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢



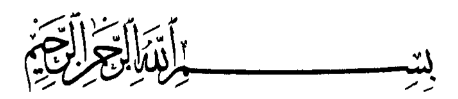
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾

[سورة الشورى : ٥٢ ـ ٥٣] .

(صدق اللهُ العظيم)





تقديم الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين ، الذي أرسل خاتم المرسلين للبشر أجمعين مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه والهادين بهديه إلى يوم الدين .

إن من بدائع حكمة الله وعدله ومن عظيم فضله على عباده أن أرسل إليهم المرسلين وفقاً لحاجتهم ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] فأوحى إليهم بشرعه القويم ليقوم الناس في حياتهم الدنيا بهدي رب العالمين فيغنموا سعادة الدنيا والآخرة . فهو خالقهم العليم الحكيم، وهو أعلم بمصالح عباده الجليلة واليسيرة ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

وإن الوحي سبيل هداية فاطر السماء والأرض لأهل الأرض ، وهو ركن النبوة وطريق نزول الرسالة على قلوب الأنبياء ، وعلى قلب خاتم المرسلين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

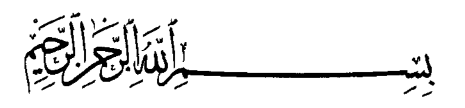
فالمسلم المثقف بحاجة ماسة لمعرفة الوحي ، ودلائله وآثاره ليزداد

إيمانه ويرسخ يقينه ، وإن خير سبيل في الدراسة ، ومن ثَمَّ لتوضيح الملتبس ، وإزالة شبهات المغرضين ، وأعداء الأنبياء من المعاندين ؛ بالأدلة العقلية والعلمية .

وتمتاز هذه الطبعة الثالثة بمزيد التنقيح والتصحيح والتوضيح الذي يزيد فائدتها ونفعها للقراء الكرام ، ولا سيما من يريدون الدراسة المتخصصة ، والبحث المتعمق في هذا الموضوع الإيماني الحيوي ، كما أنه من دواعي سرورنا أن نقدم الكتاب في هذه الطبعة بهذه الحلة القشيبة على أحدث وسائل الطباعة ، تلبية لرغبة المثقفين والباحثين المتزايدة في الحصول على هذا الكتاب .

نفع الله به وزادنا جميعاً إخلاصاً لوجهه العظيم ؛ واعتصاماً بكتابه وسنة نبيه الكريم ، وجعلنا في مقدمة أهل القبول . والحمد لله رب العالمين .

* * *



تقديم الطبعة الثانية

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾

نحمدك اللهم أن اصطفيتنا بأعظم النبيين دعوةً ؛ وأقربهم منزلة ؛ وأوضحهم حجة ؛ محمد خاتم المرسلين . اللهم صلِّ وسلم عليه وعليهم أجمعين ؛ وعلى آله وأصحابه والمهتدين بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد لقي هذا الكتاب إقبالاً واسعاً من المطالعين، وتشجيعاً بليغاً من العلماء الأتقياء والمثقفين الفضلاء ، وذلك بتوفيق الله تبارك وتعالى . وأبدى بعضهم خطياً وشفوياً حرصه على ترجمته إلى اللغات العالمية ، ليتحقق الغرض الأوفى من تأليفه ونشره؛ وذلك لخطورة شأنه عالمياً في صدِّ غارات العدو الفكرية المراوغة المخادعة ودحر تحدياتها المتعاقبة ، ولأَهميته في تزويد الشباب المسلم في أرجاء العالم بما يُرسخ يقينه بعقيدته ويدعم صموده في معارك الفكر المضطرمة .

انبثقت فكرة هذا الكتاب من بحث طويل أعددته على عجل وتقدمت

به سنة ١٣٩٩ هـ إلى المؤتمر الإسلامي العالمي للقرن الرابع عشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . . . لكنْ مكث هذا الكتاب في رابطة العالم الإسلامي مدة . . ثم صار إلى الطبع دون أن أُمكَّن من إعادة النظر فيه ، وقد تسربت إلى الكتاب بسبب السرعة في إعداده ؛ عبارات قليلة من كتب أخرى ليست قويمة وظهرت الرغبة في طبعه ثانية . . . وحرصت على تزويده بمعلومات واسعة عن حقائق الوحي وخصائصه ، لكن ضاقت الظروف عن إنجاز ذلك على الوجه الذي أبتغيه ، فضممت إليه بحوثاً علمية مهمة في نقد آراء للمستشرقين ، وأتممت ذلك بقبسات من كتابيّ (نبوة محمد ﷺ في القرآن، والمعجزة الخالدة) . وسألتُ الله تعالى أن يوفقني للسداد في تنقيح عبائره وتصويب أخطاء طباعته ؛ وأن أزيد بحوثه زيادة نافعة .

وأسأله تعالى أن يجنبني الزلل في عجالتي هذه ، ويهبني كمال الإخلاص لوجهه الكريم في جميع ما أقدمه قلماً وقولاً وعملاً، ويجعل قصدي فيه ابتغاء ما عنده ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ .

وأسأله ـ جَلَّتْ قدرته ـ أن يحقق بهذا الكتاب من الهداية والرشاد ما يتضاعف به أجري ، ويعظم به ثوابي عندهُ ؛ فضلاً منه وكرماً، والله ذو الفضل العظيم .

مكـة المكرمـة

٢٠/١/١٤٠٨هـ

* * *

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، الذي بعث محمداً رسوله الصادق الأمين، وأيده بالنور المبين، وأَشْهَدَ ذوي الألباب براهينَ اليقين، على أنه خاتم المرسلين . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

إنّ إثبات الوحي هو إثبات لنبوة خاتم رسل الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإشهار للبراهين على صحة دين الإسلام وإلهية مصدره، ومن ثَمَّ على نبوة جميع الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه المجيد، ومنهم موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام .

لا ريب أنَّ للاستشراق آثاراً في بعض أبناء المسلمين، وتَسبُّباً في انحرافهم، كما لا تُنكَرُ آثاره القوية في صد الغربيين عن الدخول في الإسلام، ولما كان كشف الشبهات عن الدين من فروض الكفاية فقد رأيتُ أنْ أنهض بعبء الرد على أهم شبهات المستشرقين وأحدثها في الوحي إلى سيد المرسلين ، فإن الإيمان بالوحي من أهم أسس العقيدة الإسلامية .

لقد تطورتْ كثيراً شبهاتُ الاستشراق وأساليبه منذ نشأته حتى عصرنا الحاضر، فاعتمدتُ على كتب من أشهر الكتب المعتمدة لدى المستشرقين

وأتباعهم وأوسعها انتشاراً . إذْ يجب أن ينصبَّ الرد على الشبهات والتخرصات الحديثة المتداولة في أيامنا هذه ليكون رداً قوياً مهماً مُجدياً في نشر الدعوة الإسلامية . ومُزيحاً للعوائق من طريقها، وليكون إغناء للثقافة الإسلامية في أسلوبها المعاصر .

وقد رأيت أنَّ طريقة بعض الكاتبين في إيراد بعض الشبهات والتعقيب عليها بإجابات جزئية ليس وراءها كبير جدوى ، فإنَّ الصياغة المشوَّهة الفاسدة التي يحكيها المستشرق متكاملة لا تُجدي في دفع آثارها ردود على جزئيات منها، ولعل إيراد الشبهات والاقتصار على إجابات جزئية غير وافية يترك شكوكاً في نفوس بعض القراء؛ مما يؤثر في قوة يقينهم بحقائق الإيمان بالله رب العالمين وبنبوة محمد خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بل إن أبلغ الرد على الشبهات تقديم الصورة الصحيحة من مصادر وثيقة ببحث علمي مركز واضح، ثم إتباع ذلك بمناقشة الشبهات ونقض التقولات، وقد عمدت إلى تطبيق هذا المنهج في دراسة موضوع الوحي إلى رسول الله ﷺ .

ولكي يتم النقاش في إطار واضح قدّمت ـ في الفصل الأول من الباب الأول ـ بحثاً عن الاستشراق لمعرفة دوافعه وخطته وأهدافه واختلال مناهجه في البحث العلمي عامة ، وقدمت فيه استخلاصاً منهجياً جديداً . لم أقف عليه في كتاب سابق . وعقدت الفصل الثاني لنقد موقف المستشرقين من السيرة النبوية، وتبيان اختلال منهجهم وتخبطهم في بحوثها . وخصصت الفصل الثالث للبحث في تقليد المستشرقين للمشركين في فرية السحر ، فقدمت إجابات وافرة قاطعة في ردها .

ولما كان المبشرون ومعظم المستشرقين يؤمنون بالوحي تارة ؛ أي لدى نسبته إلى أنبيائهم ؛ ويكفرون به تارة أخرى ؛ لدى دعوتهم ليؤمنوا بخاتم المرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ؛ فقد جابهتهم بتحد

كبير ، فطالبتهم بتقديم أوصاف الوحي الصحيحة وسماته في أنبيائهم الذين يؤمنون بهم ، لنناقشها ، ثم نحتكم إلى صحيحها في إعلان تحقق وحي الله إلى رسوله محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . وفي تقديري أنهم لن يستجيبوا لهذا التحدي أبداً .

وقد اشتملت الصورة الصحيحة للوحي التي قدمتها ـ في الباب الثاني ـ على إثبات الوحي إلى رسول الله ﷺ في مناقشة أهل الكتاب أولاً ، وفي مناقشة المشركين والملاحدة وأضرابهم ثانياً، وبرهنتُ على إمكان الوحي عقلاً ووقوعه فعلاً .

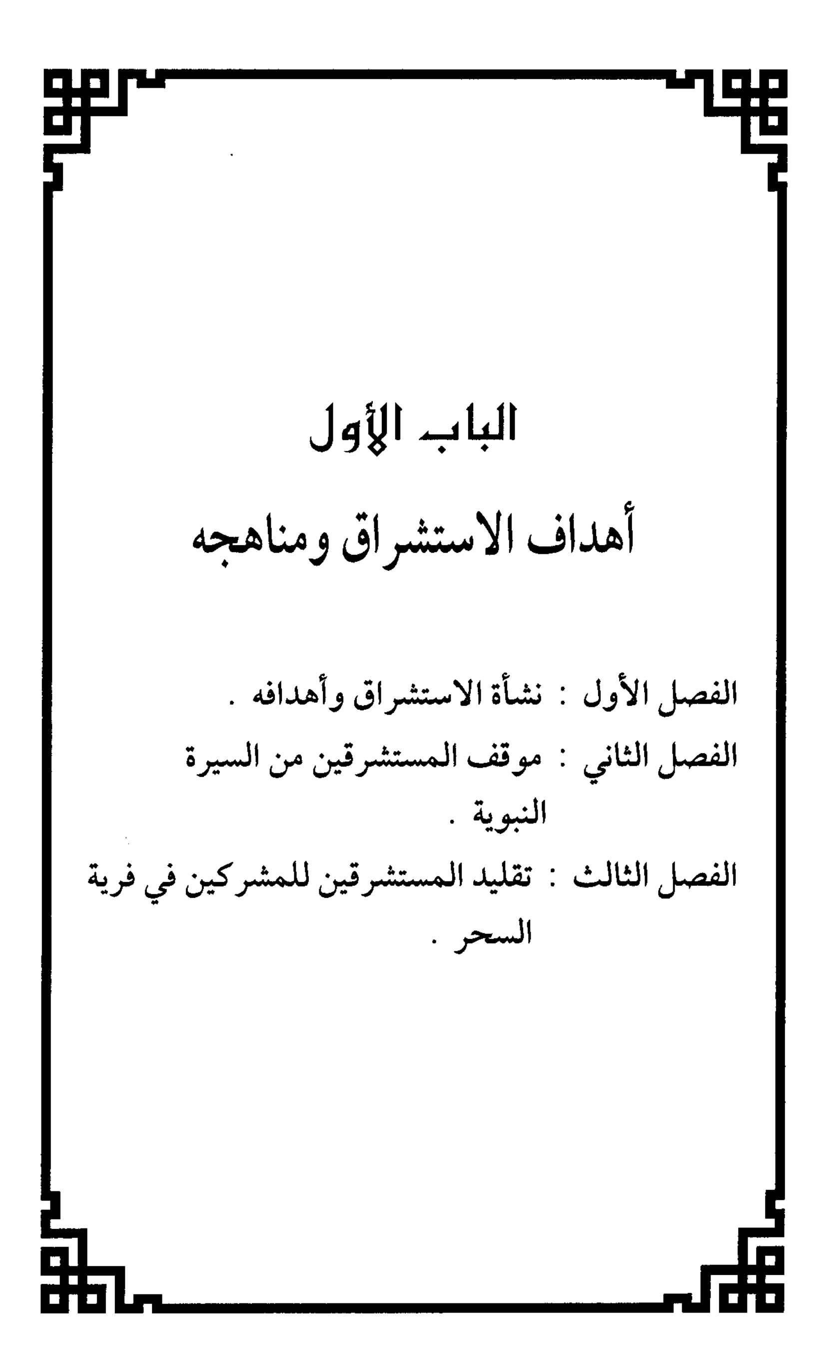
كما سردتُ سِمات الوحي وخصائصه في الفصل الثاني، وكنت بذلك أوَّلَ من استخلص أهم خصائص الوحي بشكل علمي منهجي . ثم تعرضتُ إلى نقض أهم شبهات المستشرقين في الفصل الثالث من الباب الثاني .

ثم ختمت بحثي بتقديم توصيات ومقترحات مهمة . أشرت فيها إلى المطالب الضرورية في كتاب السيرة المعاصر . ثم أبرزتُ أهمية مضامين الكتاب في فهرس تفصيلي .

ولا بد لي أن أعرب عن شكري الجزيل للعلماء الأفاضل كافةً الذين أمدوني بتوجيهات نافعة في هذا البحث .

وأسأل الله تعالى من فضله العظيم أن يتقبل مني جهدي ، ويجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به طلاب العلم وروَّادَ الحقيقة، ويجعله ذخراً لي يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .





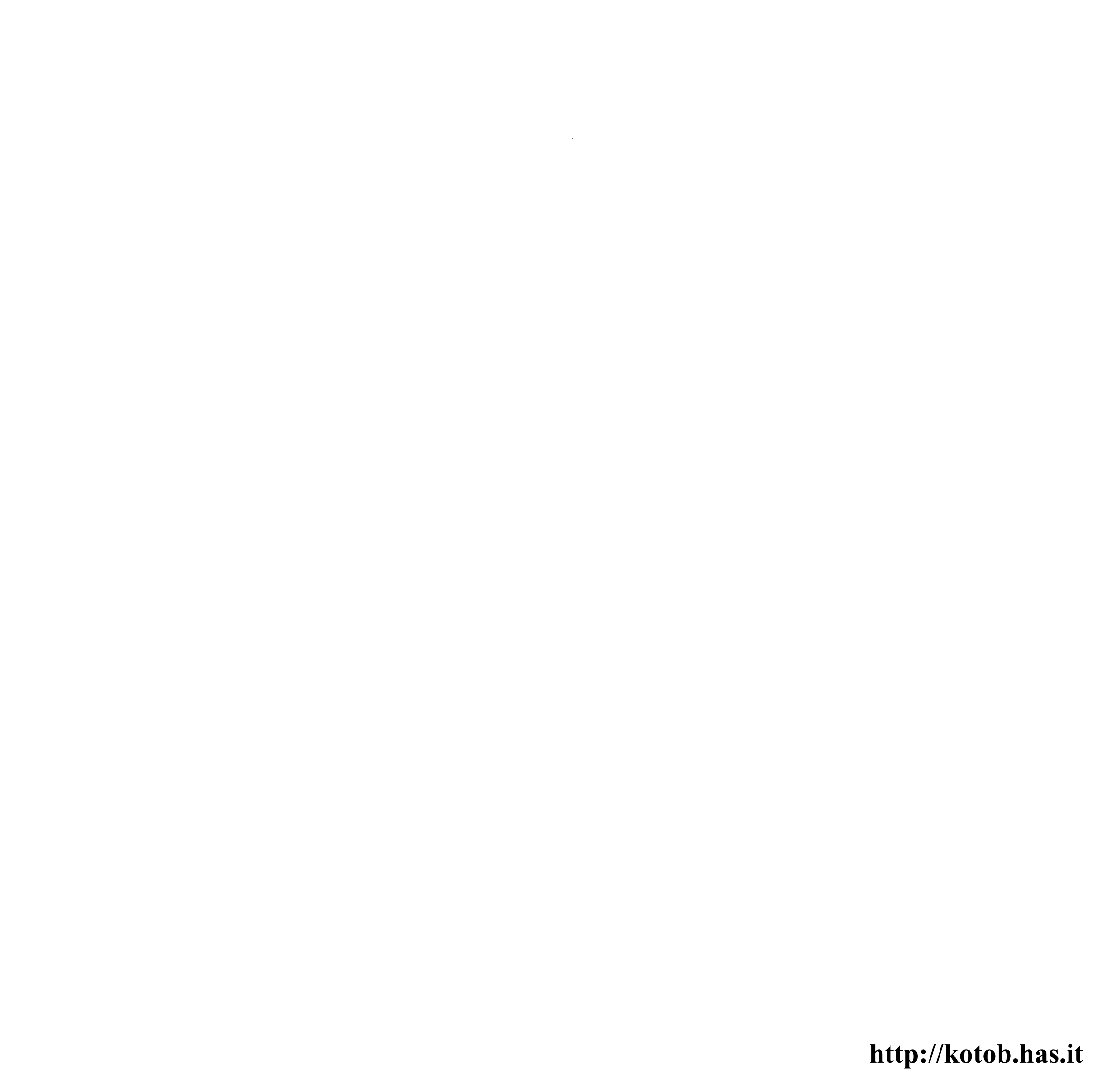
الباب الأول

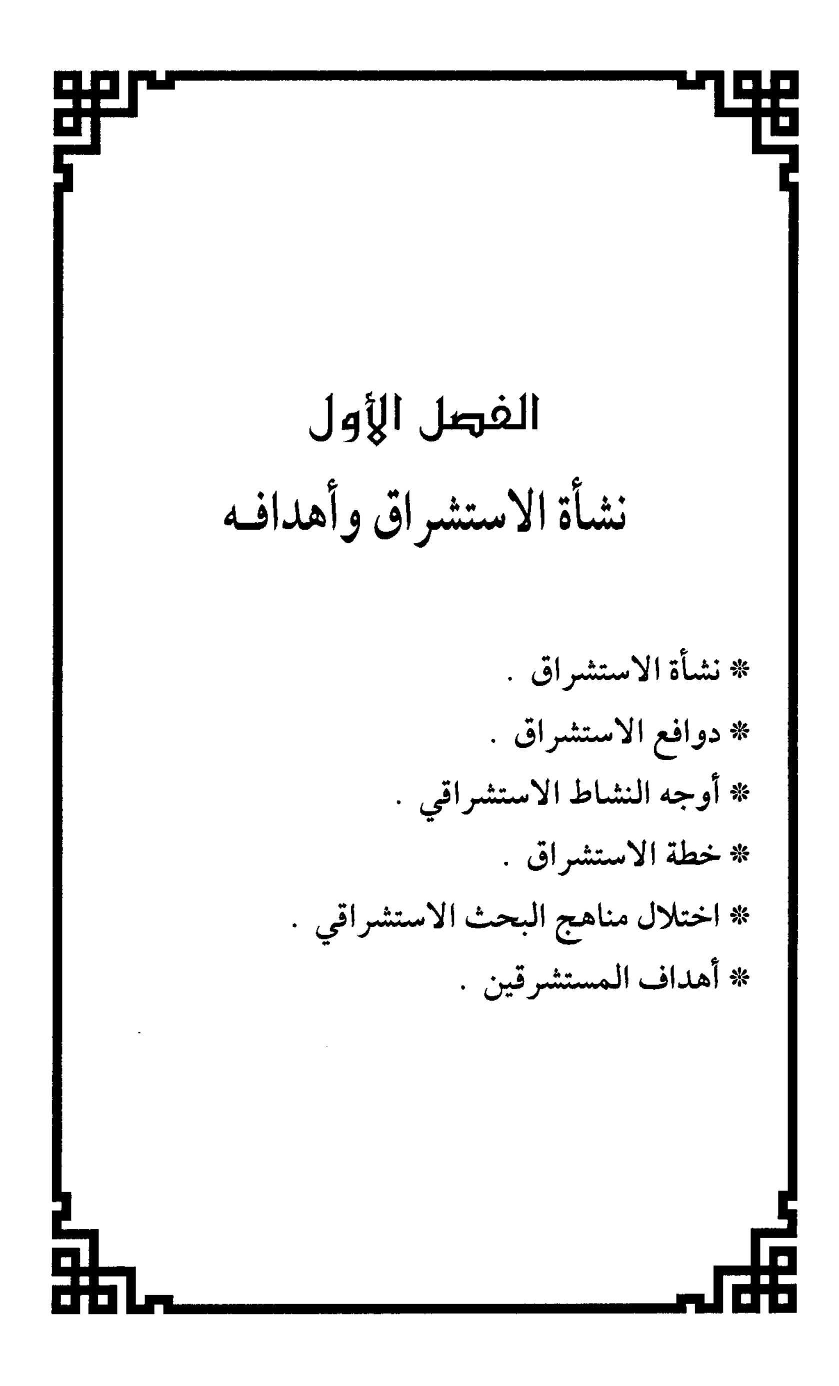
أهداف الاستشراق ومناهجه

الفصل الأول : نشأة الاستشراق وأهدافه .

الفصل الثاني : موقف المستشرقين من السيرة النبوية .

الفصل الثالث : تقليد المستشرقين للمشركين في فرية السحر .





الفصل الأول
نشأة الاستشراق وأهدافه

* نشأة الاستشراق .
* دوافع الاستشراق .
* أوجه النشاط الاستشراقي .
* خطة الاستشراق .
* اختلال مناهج البحث الاستشراقي .
* أهداف المستشرقين .



نشأة الاستشراق

انداحت دائرة الإسلام في أرجاء المعمورة حتى بلغت جبال الصين شرقاً وحدود فرنسا غرباً ، في نحو قرن من الزمان . هيمن الإسلام على العالم كما أخبر رسوله المصطفى ﷺ . فلو نظرت في خريطة العالم القديم لعَينت مصداق خبره ﷺ ، خاصة إذا لاحظتَ أن قارتي (أمريكة وأوقيانوسيا) لم تكونا معروفتين آنئذ ، وأنَّ بقاع العالم التي لم يدخلها المسلمون لم تكن ذات شأن يومئذ . . والتخلف والجهل ؛ والفقر والمرض ؛ والفوضى والظلم ؛ والضعف والخمول ؛ كانت سمات المجتمعات الإنسانية يومئذ ؛ إلا من نَوّر الله قلوبهم بالإسلام .

انبهر الغرب بتقدم المسلمين العظيم ، فأراد أن يتلافى بعض تخلفه ، فراحت بعثاته تتلقى العلم والنور من الأندلس وصقلية . وهذا في الواقع مطلع الاستشراق ـ في رأينا ـ وقد تلقى أبناء الغرب من علماء الإسلام مختلف العلوم ، إذْ لمْ يضنوا عليهم بشيء ـ على العكس من فعل الغربيين اليوم ـ فتعلموا الطب والفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك . . إلخ . كما أتيحت لهم فرص ثمينة لمعرفة الإسلام وعلومه من مركزي الإشعاع الإسلامي في الغرب (الأندلس وصقلية) .

ونبغ كثيرون، بعضهم رهبان ، منهم الراهب الفرنسي « جربرت »، وقد انتخب بابا لكنيسة روما سنة (٩٩٩ م) وكان قد تلقى علومه في الأندلس .

وقد توالت البعثات على الأندلس بعد أن استقر المسلمون فيها ؛ وفي أوائل القرن الخامس الهجري أرسل جورج الثاني ملك انجلترا ابنة أخيه الأميرة « دوبانت » على رأس بعثة من ثمان عشرة فتاة من بنات الأمراء والأعيان إلى إشبيلية ، بمرافقة النبيل « سفليك » رئيس موظفي القصر الملكي . وأرسل معه كتاباً إلى الخليفة هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس ، جاء فيه بعد الديباجة :

(وقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة ، **فأردنا لأبنائنا اقتباس هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم ، لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة** . وقد أرسلنا ابنة شقيقنا الأميرة « دوبانت » على رأس أربعة من بنات الأشراف الإنجليز ، لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف ، ولتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من لدن اللواتي سيتوفرن على تعليمهن ، وقد أرفقتُ الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل ، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص . من خادمكم المطيع).

« جــورج »

وقد ردَّ الخليفةُ هشام الثالث على ملك انجلترا « جورج » برسالة جاء فيها : (لقد اطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعنيهم الأمر على طلبكم ، وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين ؛ دلالةً على مودتنا لشخصكم الملكي . أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد، وبالمقابلة أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية ، وهي من صنع أبنائنا هديـةً لحضرتكم ، وفيها المغزى الكافي للتدليل على اتفاقنا ومحبتنا . والسلام) .

« خليفة رسول الله على ديار الأندلس : هشــام » .

وفي عهد ملوك الطوائف بالأندلس كانت توفد إلى معاهد غرناطة وإشبيلية وغيرهما بعثات من فرنسا وإيطاليا والأراضي الواطئة ، لتنهل من الحضارة الإسلامية العربية . وكان طلاب هذه البعثات يُعجبون بالحياة الإسلامية وتقاليدها وثقافتها ، حتى إنَّ بعضهم اعتنق الإسلام وفضل البقاء بالأندلس ولم يعد إلى بلاده[1] .

وظل الغرب عالة على علوم المسلمين، ولما نشطت الدراسة فيه كانت كتب العرب هي المصادر العلمية الأصلية في جامعاته، وظلت بعض جامعاته في النمسا تدرس بعض كتب الطب العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر .

لقد وجد منذ البداية أفراد منهم درسوا الإسلام واللغة العربية حتى قاموا بترجمة معاني القرآن وبعض الكتب العربية العلمية والأدبية . قال العلامة أبو عبد الله الزنجاني في كتابه « تاريخ القرآن » :

(ربما كانت أول ترجمة للقرآن إلى اللغة اللاتينية لغة العلم في أوربا ، وذلك في سنة ١١٤٣م بقلم « كنت » الذي استعان في عمله ببطرس الطليطلي وعالم ثانٍ عربي . فيكون القرآن قد دخل أوربا عن طريق الأندلس . **وكان الغرض من ترجمته عرضه على « دي كلوني » بقصد الرد عليه** . ونجد فيما بعد أن القرآن ترجم ونشر باللاتينية سنة ١٥٠٩م ولكن لم يسمح للقراء أن يقتنوه ويتداولوه ، لأن طبعته لم تكن مصحوبة بالردود . وفي عام ١٥٩٤م أصدر هنكلمان ترجمته وجاءت على الأثر سنة ١٥٩٨م طبعة مراتشي مصحوبة بالردود . .)[2] .

غزا الغرب الشرق في حروب صليبية حاقدة ضارية . . ومكثوا في

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ـ جاد محمد رمضان ـ ص١٧٦/ ١٧٧ .

(٢) نقلاً عن مناهل العرفان جـ ٢ ص ٤ .

الشرق قرنين من الزمان ، وسيطروا على مواقعه الممتازة وعلى قلب العالم الإسلامي فلسطين . . وخفتت الأصوات وتلاشت المقاومة وطاب المقام للصليبيين في بلاد الإسلام ، يأخذون من خيراته وينهبون أمواله وينهلون من علومه ، ويقتبسون أصول صناعاته وفنونه المتقدمة في جميع جوانب الحياة ، ويرسلون إلى بلادهم من كتبه المخطوطة وتراثه العلمي الثمين بغير حساب ، وتمكنت الصليبية من أعناق المسلمين وديارهم . . انقطع الأمل وبطل العمل . . ودخل في روع الصليبيين وعامة المسلمين أن الأمر انتهى، وأن على الإسلام السلام ، لا تقوم له قائمة إلى الأبد . . لكن أناساً عرفوا أن لا ملجأ إلا الله وحده . . وكان في ذروتهم عماد الدين (ـ ٥٤١ هـ) ثم نور الدين الشهيد (ـ ٥٦٩هـ) ثم صلاح الدين الأيوبي (ـ ٥٨٩ هـ) قاد هؤلاء الرجال جماهير المسلمين ، وجاهدوا في الله حق جهاده فانحسر ظلام الصليبية عن الشرق، وأشرقت عليه شمس الإسلام من جديد . . ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾(١) .

أدرَك الغرب يقيناً أنَّ التغلب على المسلمين والتحكم فيهم عسكرياً حدث قصير العمر، فانصرفت همم مفكريهم وعلمائهم إلى الغزو الفكري، وكان العلم في أوربا آنئذ حكراً على الكنيسة ورجالها، فنشطت الدراسات الاستشراقية حتى عصرنا هذا، وصحبها السطو على التراث الإسلامي ومؤلفات المسلمين المخطوطة بالسرقة والرشوة . . فبلغت المخطوطات العربية في مختلف العلوم في مكتبات أوربا خمسين ومئتي ألف مجلد في مطلع القرن التاسع عشر ، وما تزال في ازدياد حتى أيامنا هذه .

ولا نعرف على وجه التحديد أول غربي اتجه إلى دراسة العلوم

---

(١) سورة محمد : ٣٨ .

الإسلامية . ولا تاريخ البدء بذلك،لكنا نعلم أن الاستعمار الغربي للشرق ، قد أخرج الاستشراق من الاقتصار على دراسة علوم الإسلام ولغته وحضارته إلى دراسة أحوال الشرق دراسة كاملة ، بدياناته وعاداته وحضاراته وتقاليده وجغرافيته واقتصاده ولغته، لكنهم أولوا علوم الإسلام العناية العظمى لأن نهضته ـ في توهمهم ـ أعظم رهبة ، وترنحه أكبر غنيمة ! ! ؟ .

فالاستشراق هو دراسات غير الشرقيين لحضارات الشرق وأديانه ولغاته وتاريخه وعلومه واتجاهاته النفسية وأحواله الاجتماعية ، ولاسيما حضارة الإسلام وأحوال الأمة الإسلامية في مختلف العصور . وللقائمين بالاستشراق دوافع بعثتهم على السير فيه ، وجعلت لهم أهدافاً معينة، فسلكوا لتحقيقها أساليب لم يعرفها تاريخ البحث العلمي إطلاقاً ، ولم يعول عليها أحد من علماء الغرب في غير الدراسات الاستشراقية! .

ونحن نميز في المستشرقين أناساً أصحاب حياد وإنصاف ، وهؤلاء لهم كتابات معتبرة ، وفيهم مسلمون ، ومعظمهم مغمور غير معروف ، لا يتلقون شيئاً من مساعدات المسلمين أو غيرهم . بينما تجد المتحاملين من المستشرقين يلقون عناية حكومية وكَنسيّة، ودعماً مادياً ومعنوياً من جهات متعددة . . ! ! منها أجهزة المخابرات في بلادهم ! ! ؟ ؟ .

وقد دأبت الكتابات الإسلامية المعاصرة على إطلاق كلمتي « المستشرقين والاستشراق » على المغرضين منهم ، وعلى اتجاهاتهم المنحرفة في البحوث الإسلامية . ومن الطبيعي أن نورد الإطلاق نفسه عليهم ، ولسنا نقصد إلا الصنف المنحرف منهم . هذه ملاحظة في سائر كلامنا . نسأل الله تعالى أن يهدي قلوب العباد إليه .

* * *

دوافع الاستشراق

١ ـ **الدافع الديني** : ظل العلم في أوربا حكراً على الكنيسة ورجالها حتى عصر النهضة الأوربية، فنشأ الاستشراق برجال الكهنوت بتوجيه من الكنيسة، وقد دفعتهم العصبية الكنسية إلى تشويه حقائق الإسلام وقلب محاسنه مساوىء؛ فدعموا بذلك سلطانهم الديني على شعوبهم، وأوهموهم أن الإسلام دين لصوصية وسلب ونهب وسفك دماء وزنى وإدمان خمر وقمار وشهوات آثمة، فأعطوا صورة تافهة شنيعة عن الإسلام، لا تمت إليه بصلة من قريب ولا بعيد. دفعهم إلى هذا انتشار اليقظة الفكرية في شعوب أوربا، وزهدهم في أفكار الكنيسة، ونفورهم من تخاريفها، وإعراضهم عن الديانة المسيحية. فصار مرتقباً دخولهم في الإسلام لو عرفوا حقائقه، مما حدا برجال الكنيسة إلى اختلاق هذه الصورة الشوهاء عن الإسلام وإشاعتها في شعوب الغرب؛ لإقناعهم أن الإسلام دين لا يستحق الاعتناق.

استمرت الدراسات الاستشراقية على هذه الشاكلة حتى مطلع القرن العشرين تقريباً، فقد كثرت اتصالات الغرب بالشرق، وأصبح كثير من الأوربيين يطَّلعون بأنفسهم على حقائق الإسلام وأخلاق نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام؛ وعلى معان حقيقية من القرآن العظيم كتاب رب العالمين. وهكذا تلاشت الثقةُ بكتابات الاستشراق القديمة، مما

حدا برجالاته أن يغيروا منهجهم ، فظهر كتاب « الأبطال » لكارليل ، ترجم فيه لعدد كبير من الأبطال في نظره ، وأدرج جانباً مشرقاً من سيرة محمد ﷺ على أنه بطل عظيم ، لا أنه رسول كريم . ودخلت التفلسفات والتفسيرات المادية في عرض المستشرقين للإسلام ، وهذا ما عبر عنه المستشرق السير هاملتون جب بقوله : « لقد تغير اهتمام العلماء وموقفهم كثيراً خلال نصف قرن تقريباً ؛ منذ مؤلفات كايتاني وبهل عن حياة محمد » .

ولكن الذي يهمنا أن نتبين تخوف علماء الغرب على شعوبهم من اعتناق دين الإسلام ، وفزعهم من جاذبيته القوية ، حتى حملهم ذلك على تغيير منهجهم بعد افتضاح التزييف والتزوير الذي قامت عليه دراساتهم عدة قرون . وأضحت هذه الدراسات تنقسم مدارسَ ؛ بحسب أغراض مموليها والقائمين عليها ودوافعهم . وتبدو مدارسهم كما يلي :

١ ـ المدرسة النصرانية ، ولها نزعتان : الكاثوليكية والبروتستانتية .

٢ ـ المدرسة اليهودية .

٣ ـ المدرسة الإلحادية العامة .

٤ ـ المدرسة الإلحادية الشيوعية .

٢ ـ الدافع الاستعماري : لم تنقطع أطماع الغرب في الشرق بعد الهزيمة الكبرى في الحروب الصليبية ، فعكف علماؤه على دراسة الشرق ، عقائد وعادات وأخلاقاً وثروات ولغات وتاريخاً ؛ ودراسة خصائص الشعوب وأحوالها و جغرافية الشرق ومزاياه والمواقع المهمة فيه ، فعرفوا بواعث الشرق إلى القوة والمجد ؛ ومواقعَ الخير والإنتاج والعبقرية والتفوق ؛ ومواقعَ الجدب وهزال الإمكانات والمواهب . فلما تمكنوا عسكرياً من الشرق ؛ ولاسيما بعد الحرب العالمية الأولى ؛ أفادوا من خبراتهم في تحطيم قوى الشرق وإضعافه روحياً ومعنوياً ؛ واستلاب كنوزه العلمية والمادية ، وعرفوا الفئات التي يمكن أن يتخذوا من أهلها

صنائعَ لهم وعملاءَ، وحاولوا إفقاد الشرق ثقته بنفسه ومبادئه وتراثه وحضارته وتقاليده وآدابه وأخلاقه ، فأمكنهم أنْ يُخرجوا ضعاف النفوس و جهلاءَ الناس من دين الله أفواجاً أفواجاً ، فتم لهم ابتزازُ خير الشرق مادياً ، وتخريبُ شعوبه دينياً ، وتمزيق وحدته وشمله اجتماعياً . فأيقظوا الفتن الطافية والنعرة الصليبية في نصارى الشرق ، وأحيوا الأفكار القومية من عربية وكردية وفارسية وتركية وفرعونية . . فتمتْ لهم الهيمنةُ على الشرق بتطبيق مبدئهم الأساسي : (فَرِّقْ تَسُدْ) .

٣ ـ **الدافع السياسي** : قامت دول الغرب في أثناء الاستعمار وبعده بالاستفادة من دراسات الاستشراق ، فجعلت في سفاراتها وقنصلياتها أناساً على تضلع بالدراسات الشرقية ؛ فأدوا بذلك أدواراً كثيرة منها اقتناء عملاء لدولهم على الصعيد السياسي والفكري والتربوي والإعلامي في الإذاعة والصحافة . . فكثر الناعقون المتحذلقون بتفلسفات جوفاء فاضحة البطلان ، لا تخدم سوى سياسة السادة الممولين ، ومن ذلك إثارة الفتن بين السكان . . وطبخ الانقلابات العسكرية لصالح سياسة دولة من دولهم . . وما أكثر الانقلابات المخربة التي قامت بسبب تنافس الدول الغربية في بسط نفوذها . . ! وما أكثر الفتن . . وما أكثر الدماء . . ! !

٤ ـ **الدافع الاقتصادي** : عرف الغرب الموارد الطبيعية في الشرق والثروات الأرضية الباطنة ، كما عرف الأسواق التجارية والصناعات المحلية . . فاستغلوا ذلك كله . وحطموا الصناعات المحلية . . وعرقلوا إنشاء المصانع الحيوية الحديثة بالضغط السياسي أحياناً ؛ وبالانقلابات أحياناً أخرى ، فصار الشرق سوقاً استهلاكية لمنتجات الصناعات الآلية الغزيرة الإنتاج ، يعطي المسلمون للغرب المواد الخام بأبخس الأثمان ثم يستوردون منه بعضها مصنوعة بأفحش الأسعار . . ! !

٥ ـ **الدافع العلمي** : ولا ننكر أن فئة من المستشرقين قليلة العدد عكف رجالها على دراسة الإسلام بدافع علمي سليم ، فجاء إنتاجهم العلمي أقل أخطاء من نتاج غيرهم ، وسبب أخطائهم جهلهم بالعربية وتأثرهم بالمفاهيم الغربية ، لكن إنتاجهم جاء بريئاً من الخبث والدس والمكر والتحريف ، وقد هدى الله قلوب نفر منهم فآمنوا بالقرآن كتاب الله تعالى ومحمد رسول الله ﷺ . ولم تتسع دائرة هؤلاء فإن بحوثهم لم يرحب بها الساسة ولا الكنيسة في الغرب والشرق ، فلم يلقوْا تمويلاً ولا دعماً ، ولا يدُرّ عليهم إنتاجهم كسباً مجدياً . ومن هؤلاء « أَلفونس ايتين دينيه »الملقب بناصر الدين ؛ وهو فرنسي ولد في باريس سنة ١٨٦١م . وكان فناناً مرهف الحس ، تفحص الديانة المسيحية والرسوم الكنسية ، فلم تُشبع تطلعه العقلي والعلمي ، فاطلع على الإسلام وأعلن اعتناقه إياه ، ثم أصدر كتاباً فيه ، منها : « أشعة خاصة بنورالإسلام » و « محمد رسول الله »[١] و « الحج إلى بيت الله الحرام » . ومن المستشرقين المنصفين أيضاً « موريس بوكاي » وقد ألف كتاباً عن القرآن والعلم الحديث بالفرنسية ، وقد ترجم إلى العربية بعنوان « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة »[٢] ، كما ترجمه مؤلفه إلى الإنكليزية وتم نشره بالإنكليزية . ومنهم أيضاً السيدة الألمانية « زيغريد هونكه » صاحبة كتاب « شمس الله تسطع على الغرب » لكن المشرف على نشره مسيحي ، فنشر ترجمته بعنوان « شمس العرب تسطع على الغرب »[٣] .

إن هؤلاء وغيرهم قد تلقى المسلمون إنتاجهم ـ على ما فيه من أخطاء

---

(١) وقد ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الحليم محمود ، والدكتور محمد عبد الحليم محمود . وقد نشرته دار المعارف المصرية مع تقدمة نافعة « للدكتور عبد الحليم محمود ؛ شيخ الأزهر سابقاً رحمة الله عليه » .

(٢) نشرته دار المعارف المصرية .

(٣) نشر في لبنان .

عفوية ـ بالترحاب والإقبال على مطالعتها ، ووقفوا منهم موقف التقدير والاحترام ، لأنهم قاموا فعلاً في بحوثهم بتفكير حيادي موضوعي يبغي الحقيقة وامتطوا صهوة الجرأة ، فجهروا بالحق الذي توصلوا إليه دون مجاملة ولا تملق . ومن هنا فإن الكُتّاب المسلمين الغيورين على دينهم يشيرون إلى فضل هؤلاء ، ولا يقفون من أخطائهم موقف المهاجم المندد . **وكل تنديد عام بالمستشرقين إنما يراد به تلك المدارس الاستشراقية المغرضة الجانية على الحقيقة** ، أما أخطاء المنصفين من المستشرقين فقد قوبلت بردود هادئة ؛ فيها التقدير والود إلى جانب التصحيح ، ومن ذلك ما قدمه الأستاذ العلامة المحامي الكبير محمد السبسبي رحمه الله في رده على أخطاء كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » للمستشرقة « زيغريد هونكه » وقد وزعت نشراته مجاناً على العلماء والمثقفين ، كما نشرته بعض المجلات الإسلامية[1] .

* * *

---

(١) قارن دوافع المستشرقين مع كتاب أجنحة المكر الثلاثة ص٩١ ـ ٩٤ .

أوجه النشاط الإستشراقي

١ ـ يباشر المستشرقون بأنفسهم ممارسة نشاطات في العالم الإسلامي ، إذْ يؤازرون المبشرين في أعمالهم التبشيرية، ويمدونهم بالخبرات والمعالجات العربية والإسلامية بإلقاء محاضرات مفعمة بالتغرض والتلبيس وتشويه الحقائق . وإن أكثرهم فتكاً بالإسلام وتضليلاً للمسلمين الذين لهم تلامذة أوفياء لفكرهم في جامعاتنا ، يستدعونهم للمحاضرة فيها ، وينال التلامذة أجورهم دعماً مادياً أو معنوياً يوصلهم إلى الرتب العالية والمواقع الحساسة في الدول العربية والإسلامية ، وقد بدأ نشاطهم الجامعي في مطلع الاستعمار الحديث للبلاد الإسلامية . ونشاطهم في جامعات مصر ولبنان وغيرهما لا يحتاج إلى تعريف!

٢ ـ وبث المستشرقون سمومهم في مقالات نشرتها مجلات خاصة بالبحوث الاستشراقية . ولم يكفهم هذا حتى نفثوا سمومهم في المجلات والصحف المحلية المأجورة في أرجاء العالم الإسلامي. وهكذا غُزيَ المسلمون فكرياً في عُقر دارهم . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

٣ ـ قام المستشرقين بتأليف الكتب في جميع العلوم الإسلامية ، كما حققوا ونشروا بعض الكتب المخطوطة القديمة ؛ لكنْ بمعاونة علماء مسلمين لم تُذكر أَسماؤهم في معظم الأحيان . وانصب معظم اهتمامهم

على علوم القرآن والسُّنَّة ، لأنهما المصدران الأساسيان للدين الإسلامي ، ثم على سيرة الرسول الكريم ﷺ . . للطعن في نبوته من خلال عرض حوادث السيرة بأسلوب الكذب والتحريف . . ولكنْ يأبى الله إلا أن يحق الحق ويبطل الباطل ؛ وإلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون ! ! .

٤ ـ عمد كبار المستشرقين إلى تأليف الموسوعات الإسلامية وإصدارها بعدة لغات ، وتمتْ ترجمة بعضها إلى العربية . . وللموسوعة جدوى علمية ميسورة للمثقف العام بتبسيط لا نجده في معظم التراث الإسلامي ، مما جعلها موضع إقبال أبناء المسلمين في عصرنا ؛ إيثاراً للراحة من حل معضلات الكتب العلمية العميقة . وعرض المستشرقون الإسلام بأساليبهم المعهودة ، ودسوا السُّمَّ في الدسم ، وحرفوا ، وغيروا الكلم عن بعض مواضعه ، وتجاهلوا حقائق باهرة كثيرة غزيرة فلم يوردوها . . ! ! ؟ .

٥ ـ عقد المستشرقون مؤتمرات للمدارس وتبادل الخبرات فيما يحقق أهدافهم ، وما زالوا يعقدونها باستمرار ، وكان أولها في باريس سنة ١٨٧٣م .

٦ ـ إن ذروة النشاط الاستشراقي إنشاء كليات وأقسام للدراسات الإسلامية في جامعات الغرب ومنح الشهادات العالية (الماجستير والدكتوراه) لطلاب شعوب العالم الإسلامي في العلوم الإسلامية ، فاستغل المستشرقون بذلك تلهف الشرق إلى الشهادات والألقاب[١] ، فنصبوا أنفسهم مصدراً وثيقاً للعلوم الإسلامية ، وأشعروا بعض المسلمين بهذا التطاول عليهم حتى في علومهم ودينهم ، ليفقدوا الثقة بأنفسهم .

(١) انظر أجنحة المكر الثلاثة ص٨٧ ـ ٨٨ و٩٨ ـ ٩٩ .

فيتعلقوا بتعلم العلوم حتى علوم دينهم من عدوهم . . !!؟ لقد حقق هذا اللون من النشاط غاية ما تصبو إليه أنفس المتحاملين من المستشرقين . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* * *

خطة الاستشراق

إن معرفة دوافع الاستشراق ومناهجه وأهدافه وخططه إنما يكون بتقصي الباحث كتابات المستشرقين وأعمالهم ومقرراتهم وتصريحاتهم ومن ملاحظات واقعية .

ونستخلص المخطط الإجمالي للاستشراق المغرض فيما يلي :

١ ـ الهجوم على الإسلام وإحداث جلبة عالية حوله بتقديم ركام ضخم من المطاعن والشبهات ، ليحولوا بذلك دون انتشاره في غير المسلمين وفي الغرب خاصة ، وليقعدوا المسلمين عن التمسك به نظاماً سياسياً واجتماعياً وفردياً ، أو يخرجوهم منه ويتسببوا في دخولهم النصرانية بالتعاون مع حركات التبشير المسيحية ، وعلى كل فإنهم إذْ أخفقوا في هذا ؛ فإن غاية جليلة تتحقق لديهم ، وهي تشكيك شباب الإسلام بدينهم ، وإخراجهم عنه ، فليسوا بشكوكهم مسلمين ولا مسيحيين . وقد صرح المبشرون برضاهم التام عن تحقق ذلك الغرض الخبيث في بعض مؤتمراتهم[١] .

---

(١) طالع خطبة رئيس المبشرين في الشرق ؛ القسيس الدكتور « صموئيل زويمر » التي ألقاها في مؤتمر القدس التبشيري (١٩٣٥ م) وذلك في كتاب : أجنحة المكر الثلاثة ص ٥٨ / ٦٠ .

٢ ـ انصبت مطاعنهم وشبهاتهم بتركيز قوي على القرآن والسنة ، لأنهما المصدران الأساسيان للإسلام عقيدة وشريعة . كما انصبت بالتركيز نفسه **على سيرة النبي الكريم** ﷺ ، ولكن ليس لدراسة أحداثها وإحقاق الحق فيها ، إنما من وجهة اعتقادية بحتة . . فما يوردون الحوادث إلا لتوجيه الطعن في نبوته ﷺ ، من خلال تفسيراتهم أو تحريفاتهم .

فإنَّ المسلم إذا شك في نبوة رسول الله ﷺ خسر لهفته إلى التمسك بالدين ، وغدا مذبذباً حائراً تائهاً . . !!

وكذا أرادوا من الهجوم على القرآن بطعنهم في ثبوت نصه ومعانيه . . كما طعنوا في ثبوت السنة النبوية ومعانيها . . وذلك ليفقد المسلم الثقة ويخرج من دينه ، فيهون شأن المسلم وأثره ، ويخوض في لجج الضياع ويسلس مقادته لكل نعاق عميل للغرب . . وهذا غاية مساعي الاستشراق المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتبشير والاستعمار .

ومن مخططهم تبديد رجولة المسلمين بفتح أبواب الغواية والفساد الجنسي . . وكان لهذا الغرض الخسيس مدخل حساس خطير ، وهو حقوق المرأة المسلمة وحجابها . . فصدرت البحوث منهم ومن عملائهم عن تحرير المرأة واختلاطها بالرجال ؛ وعن تاريخ الحجاب وزعمهم عدم ثبوته في القرآن ، وأنه من تقاليد العباسيين ، وتكلموا عما أسموه نظام الحريم . . !! وتعمدوا إثارة الضجة العالية بوسائل الإعلام حول ذلك في أزمان متقاربة ، وما زالوا على نهجهم ذاك . . !! .

وهاجموا التشريع الإسلامي . . وقد وجدوا عظمته ومزاياه فزعموه مقتبساً عن الرومان . .

وفي صميم مخططهم شن الغارة على التاريخ الإسلامي بتأويل صفحاته

البيض تأويلاً سخيفاً ، ليذهب بروعتها من ذهن القارىء الساذج . ولا يعرضون من تلك الصفحات الناصعات إلا القدر الوجيز ، ثم يفيضون في تفصيلات الفتن . . ويصبون الدسائس والتهاويل فيها بغير مكيال . . !! .

٣ ـ التوسع في الحديث عن كل ما يتصل بالشرق في حاضره وتاريخه بما يتنافى مع الإسلام عقيدة أو شريعة ، ولاسيما إذا كان يؤدي إلى تمزيق وحدة الأمة الإسلامية وانقسامها . فجرى التوسع في الحديث عن الجاهلية مع إكبار شأنها وقلب كثير من مساويها مزايا وفضائل . . للإيهام بأن الإسلام قبس منها ، **وأحياناً أخرى لإنعاش فكرة القومية العربية ومحاولة اختراع مرتكز فكري وتاريخي لها** . كما ترى البحث المفصل عن الأقليات الجنسية والدينية . . وإثارة مبدأ القومية وما يتضمنه من مخاطر ونعرات كالقومية العربية والفرعونية . . **كما عنوا بإثارة النزعات العرقية عنوا أيضاً بالإقليميات والعصبيات والنعرات الأخرى** . . مثل **عنايتهم بالفرق الإسلامية المختلفة وأقلياتها** . . **وعنوا بالخلافات الدينية والمذهبية** ، وبدراسات تساعدهم على الوقيعة بين الأقليات والأكثرية ؛ وبين الأقليات بعضها مع بعض ، وبين فئات الأكثرية ذاتها ولضمان تحطم العالم الإسلامي داخلياً ، وانشغاله ببليات تمنعه من النهوض والتقدم والوحدة ، فضلاً عن النشاط بالدعوة الإسلامية في آفاق العالم ، ويرتاح الاستعمار بتبعثر العالم الاسلامي وتدهوره ، ويطمئن بذلك إلى تحقق مطامعه في ثرواته ومواده الخام .

وحشد الاستعمار لذلك كله الدعم القوي والدعاية الواسعة ، لتوطيد ما يخالف الإسلام من أفكار ومعتقدات ومبادىء وقيم وأخلاق وعنصريات ونعرات . . لتكون شوكة مقلقة في جنب الإسلام ؛ وعائقاً دون انتشاره وتشبث أبنائه بتطبيقه . وهذا المخطط يخدم الاستعمار

ويتلاقى مع مخططه في نشر ما يحارب الإسلام من أفكار ونظم كالقومية والماسونية والوجودية . . لتتآزر معاول التخريب في هدم بنيان الإسلام .
﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الصف : ٨ .

اختلال مناهج البحث الاستشراقي

وتحديد مناهج المستشرقين المغرضين في البحث غير ممكن إلا باستخلاصه من مطالعات طويلة لكتاباتهم ، فإنهم لم يحددوا لأنفسهم منهجاً نناقشهم فيه أو نقاضيهم إليه ، فلا تجدهم أعلنوا منهجاً عاماً في البحث العلمي وطبقوه ولا منهجاً خاصاً بعلم من العلوم ! ! .

لكنا نتيجة لمطالعاتنا تآليفهم ومطالعات من سبقنا من أهل العلم ؛ نجد للمستشرقين منهجاً خاصاً في كل علم من العلوم . . ففي الدراسات القرآنية لهم منهج مشترك بينهم ما يزال قدوتهم في تطبيقه أستاذهم اليهودي «جولد سيهر »، ولسوف نكشف عن استخلاصنا إياه في كتاب «الأحرف السبعة في القرآن » الذي ندعو الله أن ييسر نشره قريباً . وتقدم شقيقنا العلامة المحدث الدكتور نور الدين عتر بنقد منهج المستشرقين في علوم الحديث وكشف عن اختلال منهجهم علمياً من عدة وجوه ، وذلك في كتابه القيم « منهج النقد في علوم الحديث »[1] كما استخلص أستاذنا العلامة الدكتور مصطفى السباعي جوانب من منهج المستشرقين ومتابعيهم

---

(١) تجد ذلك في ص ٤٤٥ وما بعدها وفي مواطن أخرى .

في الدراسات الحديثيَّة في كتابه القيم «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي »[1] .

إنه لا يكاد يخلو كلام مستشرق من الزعم بأنه يلتزم البحث العلمي الموضوعي والحياد فيه . . أو أنه رجل مؤرخ يبغي الحقيقة لوجه التاريخ . . (كذا)!! أو أنه رجل متدين موحد يدعو إلى وحدة الأديان وتعاونها . . !! ولا تجد شعاراتهم هذه إلا أحابيل الأباطيل!! .

لكنك تجد بصورة عامة منهج المستشرقين المغرضين قد امتاز عن مناهج البحث العلمي المعقولة المقبولة بما يلي :

١ ـ وضع النصوص في غير مواضعها ، وتحميلها ما لا تطيقه ألفاظها ولا تدل عليه معانيها .

٢ـ تحريف النصوص الإسلامية ، كما فعل المستشرق اليهودي «جولد سيهر » في زعمه أن أحاديث قراءة القرآن على سبعة أحرف هي من قرارات عمر بن الخطاب .

٣ ـ اعتمادهم أقوالاً باطلة ردها علماء الإسلام بدلائل علمية حاسمة ؛ وتجاهلهم تلك الدلائل!! بل ينسبونها ـ أحياناً ـ إلى العلماء الذين ردوها على أنها آراؤهم المعتمدة «وقد فعل ذلك جولد سيهر » .

٤ ـ اقتطاع فقرة من نص علمي للاستدلال به على غرض خبيث ؛ ينقضه النص لو تم إيراده كاملاً!! .

٥ ـ إغفال الحقائق التي تخالف استنتاجاتهم وتدحضها ، على الرغم من اطلاعهم الأكيد عليها ، بدلالة قرائن كثيرة في البحث نفسه الذي يقدمون فيه تلك الاستنتاجات .

٦ـ تعمد إساءة فهم النصوص وتوجيهها إلى غير دلالاتها والمغالطة

---

(١) انظر ص ١٢ ـ ٤٤ ومواطن أخرى .

فيها وفي المناقشات العلمية . أفاد ذلك الدكتور فؤاد سزكين في نقده «جولد سيهر » .

٧ ـ تابع المستشرقون المشركين الجاهليين في بعض آرائهم عن الوحي والقرآن والمعجزات . . كما تابعوا كفرة الباطنية وزنادقة المجوس واليهود والنصارى في نقولات عن جمع القرآن والأحرف السبعة . . !! .

٨ ـ تحريف دلالات الوقائع التاريخية والانحراف في تعليلها ، ويتم لهم ذلك أحياناً بتحكيم مفاهيم البيئة الغربية ـ على الرغم من فسادها ـ في تفسير النصوص والوقائع التاريخية ، ومن ذلك تعليل روائع الفتح الإسلامي المجيد ومزاياه ببواعث ورغبات «خيالية » مماثلة للغزوات الاستعمارية الغربية . وما أكثر ما يقترفون ذلك بتفسيرهم المادي السمج لمعظم مزايا الإسلام ودلائله وبراهين عظمته وسيرة نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

٩ ـ إيراد مقدمات جزئية ضعيفة ، ثم ابتناء نتائج ضخمة فضفاضة لاتتناسب مع تلك المقدمات ولا تنتج منها . وربما يدخل في هذا إطلاقهم الأحكام العامة بسبب الحوادث الفردية في المجتمع الإسلامي . ويدخل فيه محاولتهم ابتناء نتائج حتمية على مقدمات محتملة توهماً، ولا دليل على حصولها أصلاً ، كما سترى في مزاعمهم عن الوحي .

١٠ ـ إنهم يعولون في تواليفهم على مصادر ليست في مستوى البحث العلمي ، إنما هي كتب تندر وتفكه أو تذوق أدبي مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ؛ أو كتاب الحيوان للدَّميري . . إلخ . وربما يكون مؤلف بعض هذا النوع من الكتب مبتدعاً تحمله بدعته على الطعن في أئمة الإسلام ، فيفترص المستشرقون كلامه ، ويتخذونه عمدة في بحوثهم

وحجة ـ دون دليل ـ على أن آراءهم مصيبة في البحث العلمي ! ![1] .

* * *

---

(١) هذا مجمل المآخذ ، وتجد كثيراً من تفصيلاتها مع دلائلها في كتاب : « منهج النقد في علوم الحديث » ص ٤٣٧ ـ ٤٥٥ ومواضع أخرى . وفي كتابنا « الأحرف السبعة في القرآن ومنزلة القراءات منها » .

أهداف المستشرقين

ومن مطالعة آراء المستشرقين وأعمالهم أُقدم هذه المحاولة في تحديد أهم أهدافهم :

١ ـ **منع انتشار الإسلام في أوربا وغيرها ، حفاظاً على سلطان الكنيسة الغربية ومغانمها** . . ويروي أعداء الإسلام من المستشرقين اليهود والنصارى والملاحدة غليلهم بصد الناس عن الإسلام . الجميع على تخوف أن يدركهم المدُّ الحضاري الإسلامي في بلادهم ، ويغلبهم على أمرهم بإيمان مواطنيهم به!! لذا تراهم في بحوثهم كما قال الكونت هنري دي كاستري : «ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في أناشيدهم بل حِفظَ روح البغضاء في نفوس قومهم »[١] .

٢ ـ **تحويل المسلمين عن دينهم وإشاعة البلبلة الاعتقادية والفكرية في صفوفهم** . . لتصير بلادهم لقمة سائغة للغرب ، ويصير المسلمون أتباعاً له خاضعين لسلطانه . وأقل مطمع للغربيين أن تعينهم دراسات الاستشراق على إضعاف العالم الإسلامي بحيث لا يقدر أن يمنع عنهم

---

(١) انظر كتاب : محمد رسول الله ـ ايتين دينيه ـ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٥ .

المواد الخام كالمعادن والطاقة والمواد الزراعية . . مما يحتاجه الغرب حاجة ماسة .

ويلتقي الهدف الديني مع الهدف الاستعماري في الدراسات الاستشراقية في نقاط كثيرة . . منها اعتقاد النصارى في الغرب بعودة المسيح إلى أرض فلسطين . . فتمزيق الإسلام وطحن المسلمين ييسر له مهمته في نظر الدهماء عندهم . وهذا من عوامل تأييد الشعوب الغربية لسياسة إسرائيل الاستعمارية العدوانية!! .

٣ ـ اقتباس أفكار إيمانية من الإسلام لتثبيت أقدام الكنيسة الغربية في بلادها بفكر ديني معقول . فقد نفر الأوربيون وغيرهم من المنطق التافه المنافي للعلم الذي تدعو به الكنيسة إلى المسيحية ، فدأبت الكنيسة على إيراد أفكارها الإيمانية بدلائل معقولة ، قللت فيها من الاعتماد على صرف نظر المناقشين بأن المسألة المطروحة من أسرار الكنيسة ، فأصبحت إجابات رجال الدين النصارى اليوم تنسف مفاهيم كنسيّة قديمة كثيرة . . وذلك في مسائل القضاء والقدر كلزوم التداوي من الأمراض . . واختيار الإنسان في أعماله الإرادية . . وفي مسائل الإيمان عامة ؛ كالإيمان بوحدة الكون ؛ ووحدة نظامه في الأرض والأجرام السماوية[١] . وسلك رجال الكنيسة ـ في أوربا وأمريكا ـ في إيراد الدلائل العقلية على الإيمان بالله كثيراً من مسالك علماء الإسلام المتقدمين الواردة في الكتاب والسنة وكتب علم الكلام ، ويتعرف الباحث على ذلك بالدراسة المقارنة .

وهذا لا يعني أن الفكر الكنسي الغربي قد تخلص من جميع آفاته ، بل إنه ما يزال يعول على ما نسميه : العقيدة الاحتياطية . وعقيدتهم

---

(١) انظر شمس العرب تسطع على الغرب ـ زيغريد هونكه ـ ص ٢١٥ ومواطن أخرى .

الاحتياطية هذه تتلخص في زعمهم : بأن العقيدة الدينية قضايا فوق العقل ، فالتسليم بها واجب ؛ ومناقشتها بالدلائل محظورة ، وذلك تخلصاً من نقاش عامة النصارى والعقائد الكنسيّة المنافية للعقل والعلم كالتثليث ونحوه .

٤ ـ يؤدي الاستشراق خدمات جليلة للاستعمار ، فإنه بغير شك مصدر مهم من مصادر الغزو الفكري . لقد مكّن الاستشراق الغرب من اتخاذ صنائع وعملاء في البلاد الإسلامية ، بوساطة الجامعات والمدارس التي افتتحتها دول الغرب في الشرق وأشرف على توجيهها مستشرقون ومبشرون . ولم يكفهم ذلك حتى افتتحوا أقساماً للدراسات الإسلامية والشرقية في جامعاتهم في الغرب . . وحفوا بالمغريات انتساب الشرقيين عامة والمسلمين خاصة إليها ، وراحوا يمنحون الشهادات العالية «الماجستير والدكتوراه » ووجد جنون الشرق بالشهادات مرتعاً في الغرب يرتمي إليه . . وعرف الغربيون ذلك فأجادوا استغلاله فأفسدوا عقائد شباب مسلمين وغير مسلمين ونفوسهم وأخلاقهم ، وأوثقوا عقولَ كثير منهم بعجلة الغرب ، فلا يقولون إلا ما يرضي سادتهم وأساتذتهم هناك . . ! .

ولكن لم تنطلِ تلك الأحابيل الخبيثة الماكرة على خيرة الشباب المثقفين المسلمين الذين درسوا في الغرب ، فحافظوا على سلامة فكرهم وعقيدتهم الإسلامية . فأنت ترى أنماط سلوكهم وفنون بحوثهم واستقامة اتجاهاتهم وتوجيهاتهم تدل على تماسك وثبات شخصيتهم الإسلامية النابهة الواعية . ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٧] .

أما ما يروى من استغلال المستشرقين بعض طلاب المسلمين في

الغرب من ناحية حاجتهم المالية ، أو إيقاعهم فريسة الإثارة الجنسية ؛ واحتفاظ بعض الجهات الرسمية بصور وأفلام لهم عن مزاولتهم الفواحش . . واتخاذ ذلك وسيلةَ استذلالٍ لهم ؛ لدى عودتهم إلى بلادهم بتخويفهم من نشرها وفضحهم في بيئات الشرق الإسلامية ؛ ولاستخدامهم للأغراض الاستعمارية . . إلخ ، فإنا سندع الآن الحديث عن هذا ، فلسنا بصدد التحقيق فيه .

٥ ـ جعل الدراسات الاستشراقية مصدراً لتعليم الإسلام للمسلمين أنفسهم للدراسات عن الشرق عامة ، حتى صارت دراسة تاريخه والتاريخ الإسلامي والعلوم الإسلامية كلها ، وحتى دراسة اللغة العربية وفقهها وآدابها ولهجاتها . . صارت دراسة ذلك كله متوافرة في جامعات الغرب على طريقة الاستشراق ، وفي هذا حمل للشرق على إكبار شأن الغرب وتعظيم حضارته وتمكين سلطانه في الشرق عُقدياً وفكرياً وتشريعياً وأخلاقياً ونفسياً واجتماعياً . ويؤدي بالتالي إلى إفقاد الشرق الثقة بنفسه وتوريطه في احتقار ذاته وأمته ، حتى فَتَّ في عضد هذه الأمة بغضُها الأهلَ وحبُّ الغرباء ؛ على حد قول الشاعر .

والعجب كل العجب من انبهار بعض المسلمين بدراسات المستشرقين وتوليتهم الثقة الكاملة في بحوثهم ، لتوهمهم إنشاءها على الموضوعية العلمية والحياد والإنصاف في البحث ابتغاء الحقيقة . . !! . لقد غفل هؤلاء المخدوعون أن اليهود والنصارى ـ ومعظم المستشرقين منهم ـ قد حرفوا دينهم ، وعبثوا به ، وكتموا منه ، وأضافوا إليه ما شاءت لهم أهواؤهم[١] . فلم يكونوا في لحظة من لحظات تاريخهم أمناء عليه!!

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة : ٧٥ وانظر النساء : ٤٦ والمائدة : ١٢ و١٤ وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ =

فكيف يغدون أمناء على دين خصومهم!؟ وهذا الدين الإسلامي هو الذي يخافون امتداد سلطانه إلى بلادهم! ولولاه ما قام لهم تاريخ في الشرق خصم قطُّ ولا طرق أبواب أوربا جيش شرقي فاتح إطلاقاً!!؟ .

لكن الطلاب النابهين عادوا من جامعات الغرب ، وأكدوا أنهم لم يستفيدوا علماً إسلامياً من أساتذة الاستشراق ، إنما عولوا على جهودهم وتكوينهم العلمي السابق في بلادهم . لكنهم أتقنوا في الغرب اللغة الأجنبية ، وعرفوا نوايا القوم وأساليبهم عن كثب نحو إسلامهم وأقوامهم على وجه التأكيد!! واطلعوا على أقوالهم وأعمالهم وعلى وصايا لأقوامهم في حرب الإسلام ـ مما لا ينشر عالمياً ولا يصل إلينا إلى الشرق ـ وأكدوا أن بعض هؤلاء الأساتذة هم من رجال المخابرات لدى الحكومات الاستعمارية .

ويكفينا في هذا المقام أن نورد كلمة حصيفة :

« وسقطتْ معظمُ الجامعات المنشأة في بلاد المسلمين ، تحت الأيدي الخفية للاستشراق والتبشير والدوائر الاستعمارية وغدت خططها ومناهجها تخضع بطريق غير مباشر لما تفرضه وتمليه الأيدي الخفية . وغدت الكنيسة الغربية تفخر بأن العلوم الإسلامية والعلوم العربية تدرس على طريقتها التي تخدم أغراضها في بلاد المسلمين ، وبأن المشرفين على تدريس هذه العلوم من تلامذة أبنائها .

وأي انتكاس أقبح من هذا الانتكاس ، أن يتعلم المسلمون دينهم ولغاتهم وفق طرائق أعدائهم وأعداء دينهم ، ووفق دسائسهم وتشويهاتهم وتحويراتهم وأكاذيبهم وافتراءاتهم . **هل يقبل اليهود والنصارى أن**

= وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة : ١٧٤ وانظر البقرة : ٤٢ و١٤٦ و١٥٩ ـ ١٦٠ وآل عمران : ٧١ والمائدة : ٧٧ والتوبة : ٣٤ .

يتعلموا أصول دياناتهم وفروعها على أيدي علماء المسلمين ، وأن يأخذوا منهم الشهادات لذلك؟

فما بال المسلمين يسقطون في هذا الانتكاس المشين؟ إن الاستعمار المادي أهون من هذا اللون من ألوان الاستعمار الذي وصل إلى القاعدة الكبرى التي تقوم عليها الأمة الإسلامية ؛ وهي قاعدة دينها وعلومها .... المتصلة بهذا الدين »[1] .

٦ ـ **تحطيم الوحدة الفكرية** : يثير المستشرقون البلبلة في صفوف المسلمين بإحياء الخلافات الفكرية للفرق والمذاهب المتطرفة ، فإذا قويت الآراء والتفسيرات المتناقضة والمتضاربة ؛ وهاجمت العصبيات لمناصرة كل فئة من المسلمين ما كانت توارثته من قبل ـ دون إعادة نظر ولا اعتدال ـ أدى ذلك إلى البلبلة وإيقاظ الفتن النائمة ـ لعن الله من أيقظها ـ وتمزقت الأمة الإسلامية أشلاءً متناثرةً هنا وهناك ؛ في دويلات تقوم بينها الخلافات والمشاحنات ؛ لاختلاف النظم والمبادىء والمناهج السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولاسيما بعد اشتداد عزائم الأذناب على إثارة الفتن الطائفية والدعوات القومية . . وهكذا تمزقت الأمة الإسلامية دويلات دويلات . . وكل منها يعاني داخلياً من مطاحنات وخلافات داخلية أو فتن داميات . . ! وبذلكَ هانَ على ضباع الاستعمار الغربي انتهاش كل شلو من جسد الأمة الاسلامية دون أن تُبدي مقاومة مجدية . . فتم اقتسام البلاد الإسلامية بعد تدهور الدولة العثمانية وسقوطها ، التي سماها المستعمرون بـ « الرجل المريض ». وقع ذلك كله وأذناب الاستشراق والتبشير والاستعمار يزيدون الطين بلة ، ويزعمون أن ذلك نتيجة التمسك بالدين ، ويوهمون الشباب أن عليهم أن

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة ـ الشيخ عبد الرحمن الميداني ـ ص ٨٨ .

يبحثوا عن مناهج دينية تنقذ شعوبهم وتجمع الأمة الإسلامية والعربية . . وتعاموا عن السبب الرئيسي الحقيقي في هذا الدمار ؛ وهو الإعراض عن حقائق الدين وإدخال العصبيات والمطامح الشخصية والعرقية، واستغلال الإسلام بتأويلات غير معقولة ولا مقبولة . . حتى تحقق للعدو كثير من أهدافه!! .

٧ ـ **تمزيق الوحدة اللغوية في الأمة الإسلامية حرصاً على تمزيق عقيدة الأمة ووحدتها** . صبّ علماء الاستشراق أشنع الاتهامات على اللغة العربية ، حتى زعموا أنها لا تستطيع أن تساير موكب العلم الحديث والحضارة المعاصرة . . ومعلوم لدى دارسي اللغة العربية أنها أقوى لغات العالم في توليد الألفاظ والكلمات اللازمة للمعاني المستحدثة . . بالنحت والاشتقاق . . إلخ .

ونشط المستشرقون في الطعن في حيوية اللغة العربية بأساليب كثيرة ، منها مزاعمهم الكثيرة في اقتباس كلمات عربية من لغات قديمة . . . وإذا كانت الكلمات دينية مثل كلمة(قرأ ـ قرآن ـ التحنث ؛ والناموس . .) تعمدوا عزوها إلى لغات أخرى لتنفيذ غرضين خبيثين :

أولهما ـ غرض ديني : وهو التشكيك بنبوة سيد المرسلين ﷺ فزعموا أنه أخذ من الأديان الأخرى ومن قوانين الرومان .

ثانيهما ـ غرض لغوي : إذْ زعموا جمود اللغة العربية وعدم تلبيتها مطالب الناطقين بها!! زدْ على ذلك طعنهم في يسر تعلمها . . وما واكبَ ذلك من دعوة إلى اللغة الأوردية والفارسية والتركية الطورانية وقويت اللغة الكردية . . وقد صَحَب ذلك كله الدعوةُ إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ؛ مع أن هذه اللغات كانت متداولة ـ إلى جانب العربية ـ في مستوى محدود ، لكن بالحروف العربية . . فأتمت أبواقُ الاستشراق

والتبشير والاستعمار نشرها وتعميمها وأحلتها محل العربية ، وحاولت ؛ وما زالت تحاول ؛ سلخها عن الاتصال بها بالحرف والخط ، حتى صارت الكتابة بالحروف اللاتينية مثلاً دأبَ الأتراك ؛ حَفدة الخلافة العثمانية . ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم . .

ولا يخفى على كل باحث أن اللغة من أهم عوامل وحدة الأمة ـ كما هو مقرر في علم الاجتماع ـ فضربُ وحدة اللغة ضرب لوحدة الأمة . أما اللغة العربية فإن ضربها أشد خطراً من ذلك . فهي عامل وحدة بين الشعوب الإسلامية ، وهي عامل تعلمهم الإسلام ؛ ووحدتهم فكرياً وعقائدياً واجتماعياً وشعورياً بروابط الأخوة الإسلامية . لَكن غفلةَ المسلمين وضعفَهم وقوةَ شكيمة عدوهم ومعونةَ بعض أبناء الأمة الإسلامية عدوَهم على تحقيق هذا الغرض ؛ قد أدى بالأمة الإسلامية إلى خسرانها وحدة اللغة . ولا ننسى أن كُتَّاباً وأدباء كباراً قد تبنوا الدعوة إلى اللغة العامية . . ومنهم طه حسين في مطلع عهده بالكتابة والتأليف ، وغيره كثير . ثم وهنت هذه الدعوة بعد أن انكشفتْ أغراضها وبواعثها ، كما انكشف إخفاقها وعظيم أضرارها! .

٨ ـ إضعاف الشخصية الإسلامية بالاحتيال في عرض تاريخ الإسلام :
أثبتتْ حَقائقُ الأحداث أن الدراسات التاريخية الفاسدة أخطرُ سلاح حقق إضعاف شخصية المواطن ، فالتاريخ هو شخصية الأمة . وقد كشفت دراسات علم الاجتماع في الشعوب الإفريقية الوثنية ؛ أنها لا تشعر بذاتية قوية بسبب هزال تاريخها ، وأن ميل الكثير من المواطنين للتبعية والتقليد ميل قوي ، وهذا أمر ملاحظ ، فالأمم التي تحفل صفحات تاريخها بالأمجاد والمآثر والمفاخر . . تُورث أَبناءها اعتداداً بالذات ، لا يحظى به أبناء الأمم الأخرى . ومن هنا عمدتْ بعض الدول إلى تحسين عرض تاريخها وتفسيرحوادثه تفسيراً موجهاً هادفاً ؛ حفزاً لهمم مواطنيها إلى

صنع الأمجاد من جديد ، **فإن التاريخ المجيد من أهم العناصر الفعالة في تكوين شخصية المواطن شخصية قوية دائبة على الترقي والتقدم .**

انطلق أساتذة الاستشراق في دراسة تاريخ الإسلام إلى الصفحات البيض الناصعة فطوَوها ؛ أو تعرضوا لها بوجيز القول . وكلما اضطرتهم الظروف إلى سرد شيء من أمجاد الإسلام اخترعوا له تفسيراً مادياً سمجاً ؛ للتغطية على روعته وعظمته . وانطلقوا إلى الإسهاب والتفصيل في عرض الخلافات والفتن والمحن ، وأضفوْا عليها من تفسيراتهم ما يزيد الطين بلة ، وتغاضوا عمداً عن الإشارة إلى الدور الذي أداه في ظلام الفتن الطابور الخامس من زنادقة المجوس واليهود والنصارى . فقد حقد هؤلاء على الإسلام حقداً أسود ؛ بعد أن قُهروا عسكرياً وفكرياً وسياسياً واجتماعياً ورأوْا شعوبهم تدخل في دين الله أفواجاً أفواجاً ، ولم يجد هؤلاء سبيلاً للطعن في الإسلام وأمته سوى التظاهر بالإيمان به ليتمكنوا من الكيد له والتخريب في الدولة الإسلامية من داخل الجسم الإسلامي .

عرض المستشرقون هذه الصفحات مع تفسيراتهم المغرضة كفتنة عثمان ووقعة الجمل . . ليوهموا القراءَ البسطاءَ أن المسلمين أمضوْا تاريخهم في الفتن والتناحر الداخلي ، وعاشوا في البلايا والرزايا ، وأن الإسلامَ لم يُغير في هذه الشعوب شيئاً من أخلاقها ونزواتها الهمجية . . فاستهدفوا الإسلام طعناً فيه ؛ وكيداً له ؛ ومكراً بأبنائه . وكأنه هو المسؤول عما جرى . . ولم يشيروا إلى أن مخالفات للإسلام قدْ وقعت فأدت إلى ما أدت إليه ، لأن الإقرار بالحق في ذلك يمنح المسلمين المعاصرين عظاتٍ بليغةً ؛ تدعوهم للتمسك بالإسلام على نهج تمسك الصحابة والأوائل به ، وأن يتجنبوا الأخطاء ، ويفتحوا أعينهم على الجواسيس والدخلاء من الأعداء ! ! .

لكن الباحث النبيه الواعي لا يغيب عنه أنه يجب أن يضع تلك الفتن بجانب الصفحات البيض الوفيرة الكثيرة في تاريخ الإسلام ؛ وفتوحه وعدله ؛ وتحريره الإنسانية ؛ وتوفير السعادة لها وإخراجها من ظلام الوثنية ومن المبادىء والأفكار السقيمة ، التي كانت تغلفها الكنيسة بها . . !! **فإن المقارنة العلمية بين صفحات المجد والسعادة والعز في الإسلام وبين صفحات الفتن تُظهر ضآلة شأن هذه الفتن وضرورة أخذ العبر منها ، وتُظهر فضل الإسلام على الإنسانية خاصة .**

وأسأل المستشرقين : أَليسَ في تاريخكم صفحات سود فهل تعرضونها بالأسلوب نفسه الذي تعرضون به الفتن في تاريخ الإسلام!!!؟ .

إن صفحات التاريخ الأوربي متخمة بالمخازي وبالفتن الداميات والحروب الطاحنات التي كان مدادها عامة الشعب لصالح المتألهين من حكامهم الطغاة الظالمين!! تلك المخازي العظيمة لا تجد لها نظيراً في كثرتها وشناعتها عند العرب في جاهلية ولا في إسلام ، وهي الطابع العام لتاريخ أوربا بأسرها ، وغيرها على شاكلتها . وإنك قلما تقع في تواريخهم على بارقة مشرقة!! ولاسيما في الصفحات الكالحة التي تسبق اتصالهم بالمسلمين وانتعاشهم بالتعلم منهم والاقتباس من مبادىء دينهم وحضارتهم! .

٩ ـ التنفيرُ من العودة إلى الخلافة الإسلامية :

وقد غدا هذا غرضاً مهماً فالدراسات الاستشراقية التاريخية تنسب لهارون الرشيد وغيره من الخلفاء ألوان المجون والفسوق . . تنقلها من كتابات غير علمية خطتها أيادي خصوم حانقين .

وكما تنسب هذه الدراسات كثيراً من المخازي المختلفة للخلافة الإسلامية في عصورها كافة ، فإنها تخص الخلافة العثمانية بسيل جارف

من التهم . . ولكن أين الدراسة العلمية المتفحصة المعولة على الأدلة والوثائق والبراهين؟! على أن المسلم الواعي لا يعتد بأخطاء بعض الخلفاء لنسف نظام الخلافة وما فيه من بيعة ووحدة في الرئاسة ؛ تجمع كلمة الأمة وتوحد صفوفها ، ويدرك كل مسلم واع أن الاستشراق والتبشير والاستعمار قد تمالؤوا جميعاً على هدم الخلافةً العثمانية ، وهم اليوم أشد تعاوناً على تنفير المسلمين من اللجوء إلى نظام الخلافة الإسلامية ؛ خوفاً من وحدتهم ، التي تقطع نياط قلوب الحاقدين من الساسة وغيرهم في الدول الكبرى وفي كثير من دول العالم .

١٠ ـ تحطيم معنويات الشخصية الإسلامية بالأساليب الدعائية النفسية، سعتْ أبواق الأجنبي إلى إحداث توهم جديد ، وهو تفوق العنصر الغربي الآري وتدني العنصر الشرقي السَّامي . . حتى أطلقوا شعارهم العنصري بتكبر وغرور « الشرق شرق والغرب غرب » فزعموا أنهم أهل النبوغ والذكاء والمواهب والعلم والعبقرية والنظام والتعاون . . وأن الشرق ليس أهلاً لذلك!!؟ بل زادوا على ذلك بأن بلادهم صناعية وأن بلادنا الشرقية لا تصلحُ إلا للزراعة . . ابتغوا أنْ يصير الشرق سوقاً استهلاكية تمد السادة الغربيين بالمنتجات الزراعية ، ليتمتعوا بها بأَثْمان زهيدة . وحرصوا حرصاً عظيماً على السيطرة في الشرق على المواد الخام والثروات الباطنة . . وعلى استغلالها بسرعة بالغة قبل أن يصحو الشرق ، وقد غضوا النظر عن استغلال نظيرها في بلادهم . . !! أدى ذلك إلى افتقار الشرق وضعفه ؛ واغتناء الغرب وازدياد قوته بصناعاته المدنية والعسكرية . وساعدهم على ذلك إلجاؤهم أصحابَ تلك الثروات والمواد أن يودعوا فائض أثمانها وأموالهم في مصارف الغرب ، فأعانهم ذلك وغيره على تطوير صناعاتهم وصناعة الأسلحة خاصة ، وازدهار تجارتهم مع الشرق ، فازدادوا قوةً على قوتهم! .

وأدى تخطيطهم أن يستهلك الشرق ، بأثمان عالية جداً المنتجات

الغربية « وهي نتاج مواده الخام وثرواته » ليتفاقم فيه المرض والفقر والضعف والتخلف . . وهناً على وهن ، بينما ينعم الغرب بخيرات الشرق وثرواته برفاه وبطر وأشر وتجبر على العباد!! . وتُرسخ هذه الأساليب والخطط عقدة الشعور بالنقص في الشرق المقهور عسكرياً ، ليشعر بالتدني في كل شيء ؛ شعوراً يُمكّن الأجانب أن ينهبوا خيرات البلاد ، ويتخذوا لهم صنائع وعملاء من العباد! ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٢١] .

١١ ـ الإفادة من خلافات الطوائف والفئات الإسلامية :

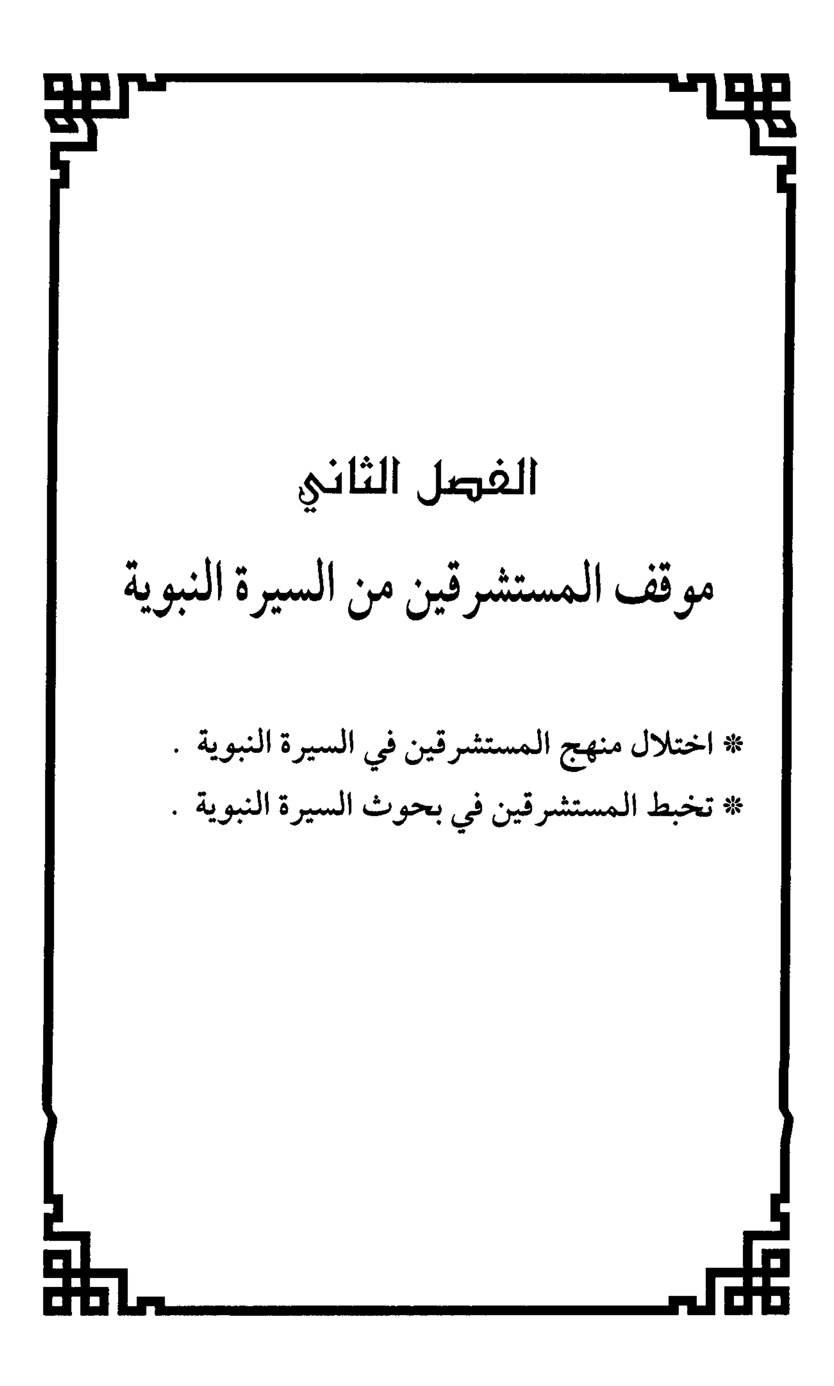
عمد الغرب إلى دراسة الطوائف والفئات الإسلامية في عقائدها واتجاهاتها وطموحاتها ومشاعرها تجاه باقي المسلمين ، فتمكن بذلك من الوقيعة بينهم وإشعال نيران الفتن والحروب الطاحنة ، على طريقة أساتذتهم اليهود في يثرب بين الأوس والخزرج قبل أن يهاجر إليهم خاتم المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . فأفاد الغرب من ذلك أموراً متعددة ، وأظهرها :

١ ـ بيع الكميات الهائلة من الأسلحة **القديمة** المنسَّقة التي ضاقت بها مخازنهم ولم تعد تصلح للحروب بين الدول الكبرى . فإن التطور في صناعة الأسلحة عظيم جداً ، والفارق بين الحديث منها وبين سابقه في الفاعلية والتأثير كبير جداً ، ويقلب ميزان المعركة . فجنت الدول الكبرى من تجارة الأسلحة هذه ثروات هائلة من الأمة الإسلامية وشعوب العالم الثالث عامة .

٢ ـ تحطيم المسلمين من الناحية الاقتصادية ؛ بتكاليف الحروب الباهظة ودمارها ؛ وبفقد الثقة فيما بينهم ؛ وتوقف التعاون التجاري والاقتصادي عامة ؛ وبالإمعان في تمزيقهم اجتماعياً وعسكرياً وسياسياً .

٣ ـ إرساء عوامل الاختلاف بين المسلمين وتقويتها وتوسيع نطاقها ، ليس احترازاً من وحدتهم ؛ بل من أي تنسيق وتفاهم بينهم يؤدي إلى وحدة موقفهم تجاه أطماع أعدائهم وابتزاز خيرات بلادهم وشعوبهم ، لتظل الأمة مفككة ممزقة ، فتغدو ـ في تصدير موادها الخام واستيراد منتجات الصناعة الغربية ـ بقرة حلوباً ؛ ودون كلفة . ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٠] .

* * *



الفصل الثاني

موقف المستشرقين من السيرة النبوية

* اختلال منهج المستشرقين في السيرة النبوية .
* تخبط المستشرقين في بحوث السيرة النبوية .



اختلال منهج المستشرقين في السيرة النبوية

١ ـ افتقاد سلامة القصد وحياد البحث :

إن الشرط الأساسي لكل باحث في كل بحث هو سلامة القصد وإرادة الحقيقة لذاتها ؛ والإفادة منها ، مهما كان وضعها بالنسبة للنظريات الراسية سابقاً في ذهن الباحث . فإذا فَقَدَ الشرطَ وعكف الباحث على الدراسة تأييداً لأفكار سابقة أو حقداً على أفكار أُخرى فقد ضاع جهده ، وخاب درسه ، وضل سواء السبيل ، وخسر احترام الذين يعقلون . وأنت رأيت أن للمستشرقين دوافع وبواعث معينة . . وأن لمعظمهم أهدافاً جنائية مكشوفة في حنايا بحوثهم . . . ! .

لذا تجدهم مع تيسر معرفة الدين الإسلامي على حقيقته قدموا بحوثاً متخمةً بفواحش المغالطات ليُظْهروا سيرةَ محمد ﷺ على صورة منافية لما أثبتته الوثائق التاريخية . وقد كشف المستشرق المسلم « الكونت هنري دي كاستري » سببَ ذلك في كتابه « الإسلام : خواطر وسوانح » إذْ قال : من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سَهَّل للمنشدين معرفة الدين المحمدي على حقيقته ، **ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في أناشيدهم ؛ بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم .**

فلم يزلْ هذا الروح سائداً عند المسيحيين حتى إن المستشرق « بريدو » الإنجليزي أَلَّفَ سنة ١٧٣٣ كتاباً في سيرة النبي عنوانه « حياة ذي البدع محمد » وترجمه بعضهم إلى لغتنا ، وجعل له مقدمة بيَّن فيها مقصد المؤلف فقال : « إن غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحي الحكيم » .

(أولئك ما قصدوا التاريخ ، ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحي الحكيم ، كما يقولون ، وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم أن يشبعوا خصمهم سباً وشتماً ، وأن يحرفوا في النقل ما استطاعوا)[1] اهـ .

شاعت فضيحة التناقض التام بين السِّير التي كتبها المغرضون من المستشرقين وبين الواقع التاريخي لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، حتى أدرك الإنصافُ بعضَ المستشرقين غير المسلمين فعبروا عن ذلك . قال الدكتور « سنوك هرغرنجه » : (إن سِيَرَ محمدٍ الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضي عليها بالعقم ؛ إذا سُخِّرتْ لأي نظرية أو رأيٍ سابق) .

استشهد المستشرق المسلم « ناصر الدين ـ ايتين ـ دينيه » بالنص السابق ثم عقب عليه في كتابه القيم « الشرق كما يراه الغرب » بقوله : (هذه حقيقة يجمل بمستشرقي العصر جميعاً أن يضعوها نصب أعينهم ، فإنها تشفيهم من داء الأحكام السابقة ، التي تكلفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة ، **فيصلون إلى نتائج لا شك خاطئة .**

فقد يحتاجون في تأييد رأي من الآراء إلى هدم بعض الأخبار ، وليس

---

(١) محمد رسول الله ـ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود ـ ص ١٥ .

هذا بالأمر الهين ، ثم إلى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا أمر لا ريب مستحيل . . .)[1] .

٢ ـ الخضوع لمؤثرات البيئة والظروف والنزوات الخاصة :

لا ريب أن دراسة أي شخصية يجب أن تكون مبنية على اعتبارات البيئة والزمان وطباع وعادات الناس حولها وظروف إقليمهم ، وأن تكون مرتكزةً على الوثائق التاريخية ؛ مصونةً من جموح التصورات والخيالات المتنافية مع تلك الوثائق والاعتبارات . مع إعلان المستشرقين شعاراتهم البراقة الجذابة ؛ مثل زعمهم : اتباع أساليب النقد الحديثة ؛ والتزام الموضوعية ؛ والحياد ؛ وقوانين البحث العلمي الجاد ؛ والحرص على البحث العلمي المدقق ؛ والقيام بالبحث في إطار تاريخي محقق بعيد عن العصبية الدينية وغيرها ، ـ مع إعلان هذه الشعارات فإنَّ القارىء يرى للرسول ﷺ في كل كتاب من كتبهم صورة مغايرة لما في غيره ؛ ولاسيما إذا اختلف المؤلف زمناً أوْ جنسية . فالمؤلف الإنجليزي يعطيك صورة عن محمد ﷺ *وأصحابه متفقة مع التصور والمنطق الإنكليزي في الأقوال* والأعمال والأهداف . والمؤلف الألماني يقدم صورة متطابقة مع المنطق الألماني والبيئة الألمانية ، وهكذا . . إلخ . إذاً تتغير الصورة حسب جنسية الكاتب ، ويظهر فيها المنطق الغربي العصري ، لذا تجدها جميعاً صوراً خيالية وهمية أبعدَ ما تكون عن الحقيقة فلم يكن المستشرقون في تصويرها غير منافسين لكُتَّاب القِصص التاريخية الخيالية ، التي يؤلفها الكاتب للتسلية في الغرب ، مثل« والترسكوت » و« إسكندر ديماس » .

---

(١) محمد رسول الله ـ أيتين دينيه ـ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٦/ ٥٧ .
وقد عمد المستشرق المعاصر القسيس البروفسور « واط » إلى تطبيق هذا المنهج ، فلجأ إلى الاختلاق على الرسول زوراً وبهتاناً ، ودعا إلى هدم بعض الأخبار الصحيحة !! وسترى ذلك جلياً لدى الكلام عن ورقة بن نوفل .

وناقشتُ المستشرقين في إغفالهم فوارق الزمن والبيئة الاجتماعية . . لدى زعمهم إكثار الرسول الأسفار إلى بلاد الشام وتلقيه العلم من أهل الكتاب فيها ، حسب توهمهم بغير دليل ، بل قامت الدلائل على خلاف ذلك! .

إن المستشرق « جريم » في كتابه « محمد » قد حدثتْ به موجةُ الاشتراكية المعاصرة وتَطَلُّعُ أهل بيئته إليها ؛ إلى الزعمِ بأن الاشتراكية دفعتْ محمداً إلى وضع الدين الإسلامي . . !!؟؟ واستدل على ذلك بفرضية الزكاة ، وتخبط في الحديث عنها بين فتح مكة والمدينة بشكل فاضح[1] ، وقد انتقد المستشرق « سنوك هرغرنجة » كتاب « جريم » وقال في نهاية نقده :

(إننا نرى أن الأستاذ جريم لو اقتصر على درس السيرة النبوية القديمة وبحثها في عمق لكان أفضل ، وإنَّ الثمار التي كان يمكن أنْ يجنيها من مثل هذا الدرس لَهي أجدرُ ببلوغ الغاية التي توخاها ، ولكنه ظن أن هذا عمل ليستْ له أهمية كبيرة وأراد أن يُطرِفَ الناس بنبأ جديد ، ففشل في

---

(١) ومن المؤسف أن بعض كبار الكتاب الإسلاميين قد زَلَّتْ أقدامهم في هذا المنزلق ، فوصفوا الإسلام بالاشتراكية . وإنما يتوجب عليهم إظهارُ تميز الإسلام وإلهية مصدره واحتوائه على العدالة في جميع تشريعاته ، ومنها التشريعات الاقتصادية ؛ ورعاية الفقراء ؛ ونصرة الضعفاء ؛ لتتجلى ذاتيةُ الإسلام واستقلاله في منهجه الاعتقادي وعدالة نظامه الاقتصادي والاجتماعي وسموه الخلقي ، ولا غرو! فإنه تشريع الحكيم الخبير . ومن هنا ندرك أن لصق الاشتراكية بالإسلام هدف استشراقي للطعن في الإسلام وتنفير الناس منه ، وخاصة لدى الذين يكرهونها من جماهير الغربيين ، وسرعان ما تسهل إثارتهم بذلك ضد الإسلام ، كما يسهل إقناعهم بأنه من وضع بشري ، لا صلة له بالله تعالى ، كما وضع النظم الاشتراكية المعاصرة أُناس آخرون !؟ فتأمل ما يحمله زعم « اشتراكية الإسلام » من خطأ فاحش وجناية على الإسلام : بقصد أو دون قصد ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وضع السيرة النبوية التي حاول فيها أن يطبع محمداً بطابع الروح الاشتراكي ، وفي جعل محمد اشتراكياً، وفي أن تقود الاشتراكية نفسها محمداً لأنْ يضعَ الدينَ الذي أتى به)[١] .

لا جرم أن رأي « جريم » ينهار تماماً إذا نظر الباحث إلى المنقول في السيرة النبوية ؛ أو إلى ظروف البيئة العربية يومئذ . وهذا ما احتج به « سنوك » في نسف تطرفه ، فالإسلام منشؤهُ إلهي ديني بحت ، وليس مادياً اشتراكياً ، كما زعم « جريم » مُعْرضاً عن دلائل العقل والنقل .

وجمحتْ نزعة الإغراب والتطرف في المستشرق المتحامل « مرجيلوث » فأراد أن يقدم رأياً يتناسب مع عجائب أوربا في القرن العشرين ، فزعم أن الباعث على بعثة الرسول الكريم ﷺ إنما هو الشعوذة ، وأنه تعاطى أعمال السحرة والروحانيين ، وعقد للروحانيات جلسات في دار الأرقم ، وأَلَّف أصحابُه حوله جمعية سرية تشبه الماسونية ، واتخذوا إشارات تعارفوا بها مثل (السلام عليكم) وعلامات يتميزون بها ؛ كإرسال طرف العمامة بين الكتفين .

وهناك نماذج كثيرة مخزية لتخبط المستشرقين واضطرابهم وتعصبهم وحرصهم على الإغراب في القول والتطرف في الرأي ؛ حرصاً على الظهور باستنتاج جديد يتناسب مع القرن العشرين !؟[٢] .

ونستغني في هذه الناحية عن الإفاضة في البحث بقول المستشرق

---

(١) محمد رسول الله ـ ايتين دينيه ـ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٤٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٦ وغيرها .
أقول : ومعلوم أن الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ جامع الأزهر سابقاً رحمه الله كان ضليعاً باللغة الفرنسية ؛ خبيراً بأحوال المستشرقين وأقوالهم ، فتأمل !! .

المسلم العلامة « ناصر الدين دينيه » **في كتابه : « الشرق كما يراه الغرب »** :

« يحتاجُ العالم ، في القرن العشرين ؛ إلى معرفة كثير من العوامل الجوهرية ، كالزمن ؛ والبيئة ؛ والإقليم ؛ والعادات ؛ والحاجات ؛ والمطامع ؛ والميول والأحقاد ، إلخ . . لا سيما إدراك تلك القوى الباطنة التي لا تقع تحت مقاييس المعقول ، والتي يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات .

لنضرب مثلاً عكسياً : ما رأيُ الأوربيين في عالِمٍ من أقصى الصين يتناول المتناقضات التي تكثر عند مؤرخي الفرنسيين ، ويمحصها بمنطقه الشرقي البعيد ، ثم يهدم قصة الكردينال « ريشيلو » كما نعرفها وليعيد إلينا ريشيلو آخر له عقلية كاهن من كهنة بكين وسماته وطباعه؟ .

إن مستشرقي العصر الحاضر قد انتهوا إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق برسمهم الحديث لصورة الرسول ، ويُخيل إلينا أنا سمعنا محمداً يتحدث في مؤلفاتهم : ولأنتمثله « قط بهذه العقلية والطباع التي أُلصقتْ به » يُحدث عرباً باللغة العربية .

إن صورة نبينا الجليلة التي خَلَّفهَا المنقولُ الإسلامي : تبدو أجل وأسمى إذا قيست بهذه الصورة المصطنعة الضئيلة ، التي صبغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد . ونرجو أن يعرف العلماء ضلالهم ، فيعدلوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة ، التي رفعها التاريخ إقراراً بفضل أنبياء العرب وبني إسرائيل والهنود[١] على الإنسانية ، فإن أساس هذه الصروح أصلب من أن تخدشه تلك المعاول .

وإذا شاء المستشرقون أن تكون جهودهم مثمرةً فلينصرفوا عن

---

(١) لم أقف على نص في الكتاب والسنة يُعين أنبياء للهنود. والله أعلم.

إِضاعتها في محاربة المنقول الذي هو أسمى من أن يوازيه شيء ، إلى شرحِ هذا المنقول وإِحيائه بدرس نفسية العرب درساً عملياً غير سطحي[1] .

٣ ـ شدة الضغط الصليبي والاستعماري :

لا بد للناظر في دراسات المستشرقين أن يدرس بيئتهم ومشاعرهم ، لأن ذلك يُعرِّفه بدوافعهم ، وبالمنحى الذي تسلكه عقليتهم في التفكير والبحث والنقاش .

كانتْ أوربا في ظلامٍ دامس ، فجاء المسلمون بالنور المبين ، وحكموا أقاليم منها ، ودانَ باقيها لهم بالطاعة والولاء . ودخل الناس « النصارى » في الأندلس وصقلية في دين الله أفواجاً أفواجاً . . وكانت الكنيسة هي الطبقة المثقفة المشاركة للملوك والأمراء في حكم البلاد ، فتمَّ عجزُها عن الصمود في وجه المدِّ الإيماني الإسلامي في شعوبها فكرياً واجتماعياً واعتقادياً وأخلاقياً ، كما عجزت دولُها عن ردِّ المسلمين عن أوربا عسكرياً .

ومن هنا نلحظ التوجس الكنسي من المسلمين ؛ إشاعة الشائعات حول المسلمين بغية إثارة الحقد والكراهية في الأوربيين نحوهم . لم يكن إذاً التوجيه العام والشعور العام ؛ نحو المسلمين ، طبيعياً ولا سليماً على الإطلاق . وأوضحُ الأمثلة على ذلك ما جرى لأديب روسيا الكبير في العصر الحديث « تولستوي » فقد دَأَبَ على تخفيف البلايا الإنسانية ، وجابه في حياته صعاب العقبات وأبى لها أن تثنيه عن الحق ، فاكتسب الكراهيةَ والبغضاء من خصوم الحق . وإنه لما اطلع على الإسلام عجب

---

(١) محمد رسول الله ـ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٧ .

من الحملة المسعورة الشعواء التي يشنها المستشرقون ورجال الاستعمار ، فحمله الإنصاف على بيان وجه الحق فكتب مبيناً إعجابه بالإسلام واحترامه لرسوله عليه الصلاة والسلام . **فكان مما قاله « تولستوي » :**

(لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً ؛ أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام ، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا . . . ويكفيه فخراً ؛ أنه فتح طريق الرقي والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا رجل أُوتي قوة وحكمة وعلماً ، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال . . !)[1] .

كيف استقبل العالم المسيحي هذه الكلمات الحسان وأمثالها مما لا يحمل عليها مطمع ولا رهبة ، اللهم إلا الاستجابة لنداء الضمير والجهر بالحق والإنصاف!!؟ .

لقد تمثلت غضبة الجو الاجتماعي والتيار الديني في الغرب في تصرف البابا . فقد أعلن البابا أنه حرم الأديب « تولستوي » من رحمة الله!! .

فهل تتعجب من أسلوب البابا الموضوعي المنطقي الحيادي!؟ أم تعجب من إعلانه الوصاية على رحمة الله ، بحيث يمنعها عمن يشاء من محبي الحق والخير والإنصاف!!؟ .

والكنيسة فعلت مثل هذا مع المفكر الفرنسي الكاثوليكي « رينيه جينو » . فكان أول تقدير حقيقي لبحوثه وفكره . فإنها حرمته من رحمة الله ، وحرَّمتْ على النصارى قراءة كتبه ، وإنما تعمد الكنيسة إلى ذلك تُجاه كبار المفكرين الذين تخاف خطرهم . وقد أعلن إسلامه وتسمى

---

(١) محمد رسول الله ــ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٢ .

باسم : الشيخ عبد الواحد يحيى ، وكان إسلامه ثورة أيقظتْ ضمائر كثير من المفكرين ، فتابعوه في إعلان الإسلام والدعوة إليه . فلما مات كتبتْ عنه كثير من صحف أوربا . فكان مما قاله الأديب الفرنسي « أندريه جيد » : (إن آراء « رينيه جينو » لا تُنقض)[1] .

في مثلِ هذا التيار الصاخب الغاضب على كل من يجهر بكلمة الحق ويعلن حكم العدل والإنصاف ؛ هل يمكن للباحث المستشرق أن يكون موضوعياً حيادياً في بحوثه دون أن تطارده لَعنات البابا وقرارات الحرمان ؛ وتحريم مطالعة آرائه وكتبه ؛ ثم قرارات التضييق عليه في رزقه!؟ وكثير منهم يتوقف موردهم على هذا العمل الاستشراقي الذي يرضي نزوات الساسة ورجال الدين والمبشرين . ومن هنا ندرك شذوذ المستشرقين عن البحث العلمي الحيادي نتيجة لا تستغرب بعد تضافر مقدماتها وأسبابها القوية ؛ إلا عند بعضهم ، وهم قلة نادرة بالنسبة للتيار الاستشراقي العام . وكما قالت القاعدة : « النادر لا حكم له » .

وجاءت ردود العلماء المسلمين على المستشرقين بصيغ العموم ولكنها في الحقيقة لا تقصد هذه الندرة الفاضلة ، وإنما قصدتْ عامة المستشرقين المغرضين ، الذين خالفوا المبادىء العلمية القويمة لبواعث وأهداف لا يجوز الاعتداد بشيء منها ؛ أو الخضوع لها في البحث العلمي الموضوعي .

* * *

(١) محمد رسول الله ـ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٨ / ٢٩ .

تخبط المستشرقين في بحوث السيرة النبوية

طرح المستشرقون شعارات براقة جذابة يستسلم لها كل باحث ويقبل بتطبيقها ونتائجها ؛ فأعلنوا أنهم يقومون بالبحث العلمي الحيادي الجادّ وهو بحث مدقق ، لا تعصب فيه ، وإنما يراد منه معرفة الحقيقة التاريخية كما هي . . . كذا زعموا!! ولكن ظهر في بحوثهم أن هذه الشعارات في واد وأن التطبيق العلمي في بحوثهم في وادٍ آخر!! إذْ لم يكن إلا نتاجاً لبواعث وأهداف لا مجال لقبولها في البحث العلمي إطلاقاً . نجم عن ذلك تخبط عظيم في الآراء والنظريات المنافية للحق الصراح في سيرة خاتم المرسلين . أَكَّد ذلك أنهم ما طرحوا شعاراتهم إلا تغريراً بالبسطاء والجهلاء ؛ وأُحبولةً تزلق بواطل الأقاويل إلى أذهان الذين لا يعلمون .

وطاف بخاطري أن أسرد نماذج مهمة من ذلك التخبط في تصنيف علمي جديد يكشف وصفها ومجافاتها للحق والواقع :

أولاً ـ أنكر المستشرقون ما قامت بإثباته الدلائل العقلية والنقلية :

إذْ جحدوا نبوةَ محمد عليه الصلاة والسلام وتنزلَ القرآن كتاب الله تعالى عليه ؛ وحياً بوساطة جبريل الأمين . أما دلائلُ نبوته العقلية فقد ذكرتُ كثيراً منها في كتابيَّ : (نبوة محمد ﷺ في القرآن) و (بيِّنات

المعجزة الخالدة)[1] أما الدلائل النقليّة فقد ذكر رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) بشارات الكتاب المقدس ببعثة خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام . وتعترف الكنيسة في عصرنا بهذا الكتاب على أنه نصوص التوراة والإنجيل . وقد أوردت أهم البشارات مع تحليلها في الكتاب الأول[2] .

ثانياً ـ أنكر المستشرقون اليقيني من السمعيات واليقيني من دلالاتها العقلية . مثال ذلك : إنكارهم معجزات الرسول الكريم ﷺ . وفيها المعجزات المادية ، وهي ثابتة بالتواتر ، وأنكروا دلالاتها القاطعة على نبوة سيدنا محمد ﷺ . ومن المؤسف أن بعض الكتبة المنتسبين إلى العلم الإسلامي قد تابعوهم على هذا ، كما ـ بالتالي ـ في منهجهم بإنكار كثير من الأحاديث النبوية الثابتة . على أن معظم هؤلاء المستشرقين يؤمنون بتأييد الله لرسوليه موسى وعيسى عليهما السلام بالمعجزات المادية ، وأنها سبب إيمان الخلائق بهما ، فإن دلالات المعجزات مسلَّم بها لدى جميع العقلاء ، كما يعتد بها أهل الديانات السماوية . فلماذا أَنكرها المستشرقون وأتباعهم خاصة في دين الإسلام!؟ . وسترى هذا الجانب وتفصيل الرد عليه في الطبعة الأولى من كتابنا (بينات المعجزة الخالدة) .

ثالثاً ـ أعلنوا تكذيبهم بأُسس إيمانية ؛ هم على يقين من صحتها ، ويصدقونها في دياناتهم . مثال ذلك : إنكارهم الوحي إلى رسول الله ﷺ ؛ وتأويلهم مظاهره ، ومعظم هؤلاء المستشرقين يهود ونصارى . وكلُّ تأولٍ افتعلوه لإنكار وحي الله إلى محمدٍ رسول الله ﷺ يُمكن أن

---

(١) ارتقب توزيع الطبعة الثانية من الكتابين قريباً بإذن الله ، بوساطة مكتبة الطالب الجامعي ، قرب جامعة أم القرى ، بمكة المكرمة .

(٢) نبوة محمد ﷺ في القرآن ص ٣٠٩/ ٣٢٩ . ط . دار النصر بحلب .

تُؤوّل به مظاهر الوحي إلى الأنبياء الذين يؤمنون بهم!! .

لذا فنحن نطرح عليهم هذا التحدي الكبير ، وهو التحدي الأول : حددوا لنا مظاهر وحي الله الصحيحة التي إذا توافرت في امرىء كان رسولاً صادقاً من الله تعالى وبينوا ظهورها في أنبيائكم ثم تعالوا نحتكم ـ إلى ما يصح منها عندنا جميعاً ـ لدى البحث في ظاهرة وتنزيل القرآن الحكيم على خاتم المرسلين محمد ﷺ!! ولكن هل من مجيب! كلا! ثم كلا! ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] ، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾[2]. **يمنعهم من ذلك هوى جامح مع التعنت والتعصب الديني الأعمى ؛ الذي حملهم على موقفين متناقضين من أمر واحد ، وهو وحي الله ، فآمنوا به تارة وكفروا به تارة أخرى!!**

وإنا سنعرض صورة كاملة عن مظاهر الوحي إلى سيدنا رسول الله ﷺ ؛ وخصائصه بالتفصيل المناسب . ثم نناقش أهم شبهات المستشرقين ونزهقها ببراهين الحق بإذن الله . وهذا أمثل سبيل في نظرنا . والله ولي التوفيق .

رابعاً ـ أنكر المستشرقون الحقائق التاريخية الشهيرة : مثل أُمّيّة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، وتفشي الأمية والجهل بالأديان السماوية في سكان الجزيرة العربية ، كما أنكر المستشرقون صفات الرسول وأخلاقه فاتهموه بالكذب ، وقد اشتهر في بلاده بالصادق الأمين ، وألصقوا به أوصافاً على العكس تماماً مما اتصف به من خلق عظيم . وإن دحض هذه المزاعم ميسور لكل مَنْ عنده إلمام بسيرة خاتم

---

(١) سورة هود : ١٤ .

(٢) سورة القصص : ٥٠ .

المرسلين ﷺ ، لأنها مزاعم فاضحة البطلان .

خامساً ـ لم يكفهم أن تنكروا لحقائق التاريخ الجليلة ، بل حملهم تغرضهم على افتراء أحداث لم تحصل قط ، مثل إصابة الرسول بالصرع ، وقد نقضه العلماء المسلمون بالأدلة العلمية والطبية ، فاضطر كثير من المستشرقين ـ لافتضاح هذه الفَرية تماماً ـ أن يخطئوا إخوانهم في هذه التهمة!! وبذلك يُخففون من انكشاف التغرض الاستشراقي، ويوهمون الآخرين بأنهم على الحياد، بدليل انتقادهم إخوانهم!! .

وزعموا أن الخيالات والأوهام قد سيطرت على الرسول الكريم[1] ، حاشاه من ذلك عليه السلام! فقد عُرف باليقظة والنباهة ، وقاد بذلك الأمة إلى العز والنصر المبين ! ! .

كما زعموا أن الرسول تعلم من ورقة بن نوفل وغيره ، وستجد دحض هذا التخرص الفاضح في بحوثنا القادمة بإذن الله تعالى .

هناك افتراءات كثيرة . . . ومن أقبحها وأفضحها تقويل المسلمين ما لم يقولوا في دينهم ، **فقد زعم « واط » زعيم الاستشراق المعاصر : أن المسلمين يعتقدون** بأن محمداً ﷺ وأصحابه قد اكتشفوا قصص الأنبياء بالتدريج !!؟[2] وستلقى تبيان زيف هذا التخرص فيما يأتي من بحوثنا بإذن الله .

سادساً ـ أنكر المستشرقون الوثائق التاريخية القويمة ، ونعني كتب الحديث النبوي ، وتنكروا لعلم تحقيق الوثائق : « مصطلح الحديث » .

---

(١) زعم ذلك درمنغام (الوحي المحمدي لرشيد رضا ص ٨١) وتورط أخيراً في نحو ذلك كبير المتحاملين من المستشرقين « واط » في مواقع من كتابه (محمد في مكة) كما تورط فيه قبله المستشرق اليهودي « جولد سيهر » انظر كتابه « العقيدة والشريعة » ص ١٩ و٢١ و٧٧ .

(٢) Mohammad At Mecca,W.Montgomery Watt,Oxford 1953,46.

لقد أزعجهم وأحرجهم اعتماد العلماء المسلمين على السند . ولا غرو ! فالإسناد خصيصة هذه الأمة الإسلامية ! وتصادف في بحوثنا التالية طعن « واط » المستشرق : في فائدة الإسناد . وهم يوهمون القارىء أن علماء المسلمين عدوا دراسة السند هي الأسلوب الوحيد في تحقيق الأخبار التاريخية . وذكرتُ سابقاً أن كتاب « منهج النقد في علوم الحديث » صاغ علوم الحديث في منهج ونظرية كاملة لتحقيق الآثار والوثائق التاريخية الإسلامية ، فأبان أنها تقوم على نقد السند والمتن معاً ، بأقوم نهج وأروعه سداداً ! **ونحن ـ أيضاً ـ نقدم تحدياً كبيراً ثانياً للمستشرقين : أن يقدموا منهجاً تفصيلياً كاملاً في تحقيق الأخبار التاريخية حتى نناقشه ونحتكم إلى مُسلَّماته !! .**

أما الإصرار على الاكتفاء بالطعن في منهج النقد الإسلامي . . فذلك أُسلوب غوغائي ترفضه العقلية العلمية في كل زمان ومكان !! .

ولا يخفى عليك ما ينطوي عليه التنكر لكتب الحديث ومنهج المسلمين في تحقيقه ، من هروب المستشرقين من الحقائق التاريخية ووقوعهم تحت سطوة روايات هزيلة عساها تمكنهم من الإيهام بصحة تقولاتهم ، مع أنها روايات غير وثيقة ، ولا سبيل إلى إثبات صحتها ، اللهم إلا تشبث المستشرقين بتقدم تاريخ تصنيفها !! وماذا يعني تقدم زمان الرواية وتدوينها ما لم يكن رواتها ثقات عدولاً حافظين ضابطين ؛ تناقلوها إلينا بإسناد متصل!!؟ فما العمل لو كان في رواتها كاذب أو ضعيف !! أو كان سندها منقطعاً !! إذاً لا بد من دراسة السند حتى يتميز الخبيث من الطيب في الأخبار !! على أن بعض المستشرقين المعاصرين مثل « واط » قد عوَّل في كتبه على بعض كتب الحديث مثل صحيح البخاري ، لإتمام الأخبار ، لكنه لم يسلم بصحة وسلامة ما فيه عموماً !! .

ولكن ما هو الضابط في جواز الأخذ ببعض كتب الحديث وترك

بعضها الآخر !!؟ وكيف يصح ذلك !؟ هذا ما ستلقى بسط نقاشه في بحوثنا القادمة ، بإذن الله تعالى .

ولا يخفى على باحث أن كتب الحديث النبوي الوثيقة قد احتوت على أصول للثروة الفكرية والتشريعية والأخلاقية العظيمة ـ فالسنة هي المصدر التشريعي الثاني ـ كما اشتملت على حقائق ناصعة في سيرة رسول الله ﷺ وعلى براهين النبوة المحمدية المفحمة .

فلما أصر المستشرقون مسبقاً على التكذيب بنبوة خاتم المرسلين ﷺ ؛ كان من مصلحة موقفهم ذاك أن يتنكروا لجميع كتب الحديث دفعة واحدة « وهكذا ! » ليعفوا أنفسهم من مجابهات علمية نافذة ، لا يملكون تجاهها غير الاستسلام العلني لحقائق كتب السنة ودلائل الحق اليقين على نبوة خاتم المرسلين محمد طه الأمين عليه أفضل الصلاة والتسليم .

سابعاً ـ المغالطة في تفسير القرآن وحقائق السيرة النبوية بعيداً عن أي منهج علمي مقبول . فالقرآن العظيم عربي مبين ، فلا بد في تفسيره من رعاية أساليب البيان العربي واعتبار خصائصه ومزاياه ، ليُعرف المراد من هذا البيان المعجز . وستجدُ مثال المغالطة في تصرف البروفسور « واط »[1] في تفسير قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ ، وهناك أمثلة لذلك كثيرة جداً .

وإن حقائق السيرة صارت تُفسر بشكل غريب جداً عن الواقع ، فالمستشرق القسيس (لامانس) يَعُدُّ المنافقين في أيام رسول الله ﷺ : أبطال الوطنية القومية ، وأنت لا تدري هل هؤلاء عرب ومحمد أعجمي في نظر (لامانس) !؟ أم هؤلاء سعوا إلى جمع كلمة الأمة العربية دون محمد عليه السلام !؟ وذهب البروفسور « واط » إلى الزعم بأن المنافقين كانوا يشكلون جبهة « المعارضة الإسلامية !؟ » بل ذهب إلى إعلاء شأن

---

(١) Mohammad At Mecca,84.

جميع خصوم النبي والعرب حتى صار اليهود في نظره « معارضة يهودية » !؟ لا شك أن المعارضة لا تقف مع عدو ضد قومها ، والمنافقون وقفوا سراً مع اليهود والمشركين الذين يريدون اجتثاث المهاجرين والأنصار . فلا نطيل النقاش بل نسأل « واط » المستشرق : ما الفرق بين المعارضة والطابور الخامس!؟ .

وتأمل ما يقدمه القسيس المستشرق لامانس في تفسير ألفاظ القرآن والسيرة ، كقوله في معنى الردة : « الانفصال » والمرتدون : «الانفصاليون»، والمنافقون : « المشككون » وهم أبطال الوطنية القومية ، ومعنى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ : إن الله مع الساكتينَ عن سياسة محمد المتناقضة ـ في زعمه ـ وتجاهلَ سُمو المعنى الجهادي في الصبر والمصابرة في سبيل الله ، كما هو ظاهر الآية وسياقها[1] .

لا جرم أن المستشرق القسيس « لامانس » اطلع على الحقيقة وبراهينها وعرف نبوة محمد ﷺ كما يعرف الأب ولده ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[2] .

وإن العصبية العمياء والضغائن السود قد أهاجت خواطر وخيالات هذا القسيس ، ودفعته وأمثالَه إلى تحريف الحق الأبلج ، تشويشاً لضعاف الإيمان وصرفاً للباحثين عن الاهتداء إلى الحق المبين . لا غرو! فقد دأب هو وأسلافه من قبل على تحريف دينهم .

ولن يقبل الله من أحد من اليهود والنصارى إيمانه إلا أن يؤمن بمحمد

---

(١) محمد رسول الله ـ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٤ ومحمد في المدينة ـ واط ـ ص ٢١٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٦ .

رسول الله وبالقرآن كتاب الله . وإن المستشرق القسيس « لامانس » لم يزده علمه مع تعصبه الأعمى إلا بعداً من الله ؛ وتوسعاً ورسوخاً في الكفر والضلال . وقد نبهنا الله على حاله وحال أمثاله ، وذلك من الإعجاز الغيبي في القرآن العظيم وبراهين تنزله من رب العالمين ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٦٨] .

ثامناً ـ جنح المستشرقون إلى محاكاة المشركين الجاهلين في بعض تقولاتهم على سيد المرسلين ﷺ ، فتبنوها على الرغم من بطلانها الفاضح ، وطعنوا في وحي الله تعالى ؛ وفي نبوة محمد ﷺ ومعجزاته . وتراهم في اقتفاء آثارهم يسلكون مسلكين :

أولهما ـ توجيه التهمة نفسها التي وجهها الجاهليون من قبل شكلاً ومضموناً ، يحذون حذوهم النعلَ بالنعل . مثال ذلك اتهامهم الرسول ﷺ بالسحر ، حسب زعم المستشرق الحاقد «مرجيلوث» . وقد أوردت زعمه فيما يأتي[(١)] .

ثانيهما ـ توجيه التهمة الجاهلية نفسها ، لكنهم يصوغونها بعبائر تتناسب مع مفاهيم العصر ، كما في تأويلهم حادثة الوحي بالرؤى والخيالات وأوهام النفس . . ! ! وهكذا يحاكي المستشرقون هنا المشركين الجاهليين في المعنى والمضمون دون الشكل والأسلوب ، حرصاً على ترويج مطاعنهم ؛ وتظاهراً بالتجديد والابتكار في البحث ، واحترازاً من انكشاف تحاملهم وافتضاحه!! فهل يقع في شراك هذه الخدعة عاقل بصير ! ؟ ؟ .

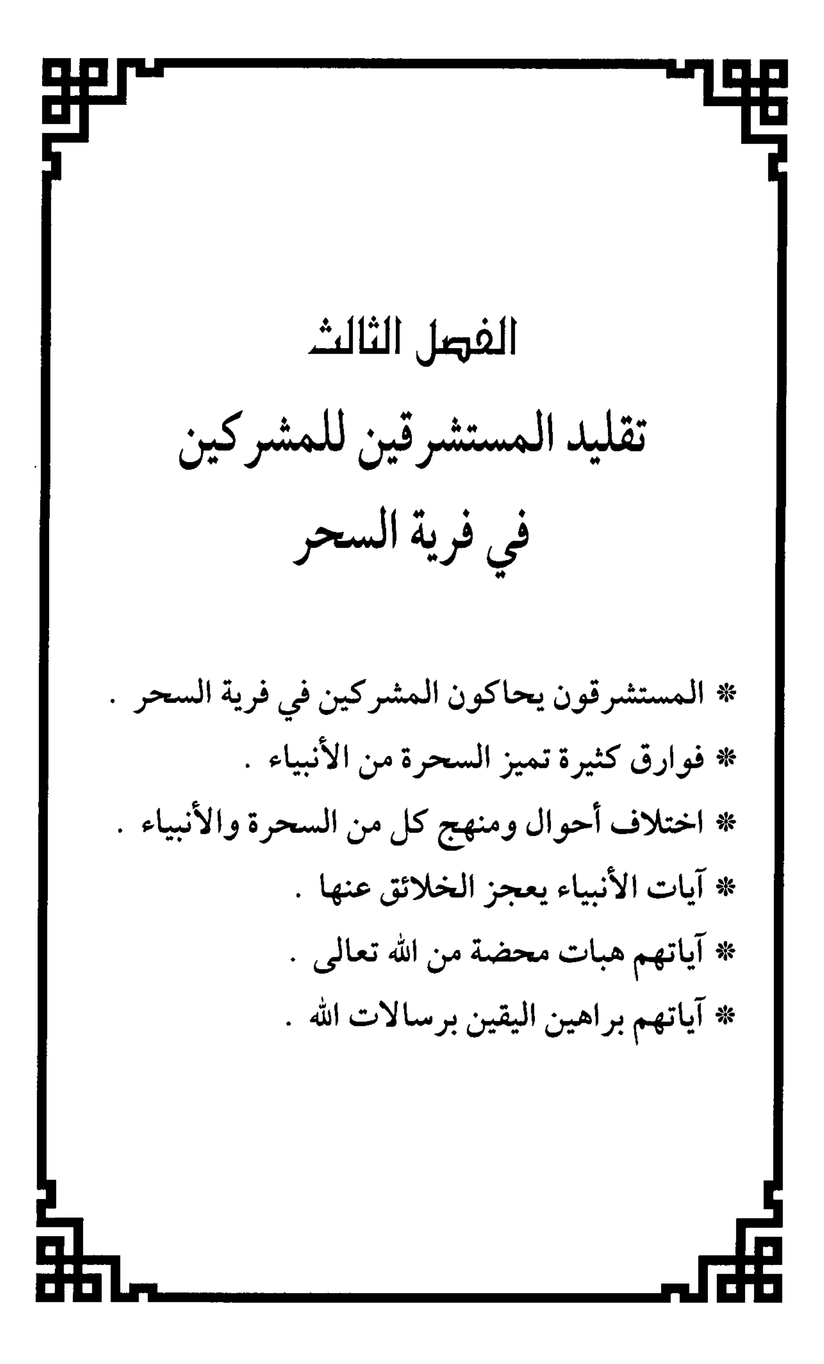
---

(١) سيمر بك نقض ذلك في الفصل الثالث من الباب الثاني .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة النحل : ١٠٢].

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ . [سورة إبراهيم : ٢٧] .

* * *



الفصل الثالث

تقليد المستشرقين للمشركين في فرية السحر

* المستشرقون يحاكون المشركين في فرية السحر .
* فوارق كثيرة تميز السحرة من الأنبياء .
* اختلاف أحوال ومنهج كل من السحرة والأنبياء .
* آيات الأنبياء يعجز الخلائق عنها .
* آياتهم هبات محضة من الله تعالى .
* آياتهم براهين اليقين برسالات الله .

إن دعوة محمد ﷺ إلى توحيد الله تعالى والإيمان بكتبه ورسله لم تلقَ من المشركين إلا نفوراً وحيرةً في قذف التهم ، حتى رموا الصادق الأمين بالسحر والكذب . قال الله تعالى : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [سورة ص : ١ ـ ٥].

وهكذا فإن الله وصفهم بالكفر ذماً لهم لتجاسرهم على اتهام الرسول بالسحر ، هذا ما لا يفعله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق . كيف يتهمونه وهو منهم ، يعرفون نزاهته واستقامته ؛ وقد جاءهم مرشداً محذراً من مغبة الانحراف!؟ فإنه لم يأتهم إلا بالحق الصراح ، أيُعقلُ أن يُتهم الداعي إلى الحق بأنه ساحر!؟ ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٢٩ ـ ٣٠].

لا غرابــة في نكرانهــم ، فقد سلكوا في مقابلة رسولهم سُنَنَ من قبلهم مع رسلهم ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٢].

لقد عوّلوا في تكذيبه على زعمهم أنه ساحر ، وأن كلَّ ما يأتيهم به هو سحر أيضاً ، حتى لو كان معجزة مفلقة يعجز جميع الإنس والجن عن مثلها ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة القمر : ١ ـ ٢]. وانشقاق القمر وإنْ شاهده الركبان فهو سحر أيضاً!! والقول البليغ الناصع الذي يعجزون عن مثله ، والذي احتوى الحجج البينات والدلائل العقلية الملزمة على صدق محمد ﷺ هو سحر أيضاً!! كذلك قال زعيمهم الوليد بن المغيرة عن

القرآن العظيم : ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[1] .

ونستبين الفارق العظيم بين المعجزة والسحر من هذا التعريف : « المعجزة أمر يُجريه الله على يد النبي ، يفوق طاقات البشر ويخرق قوانين الطبيعة وخواص المادة ، يتحدى به النبي الناس فلا يقدر أحد على معارضته »[2] .

وتَتابع اتهامُهم بالسحر للتكذيب بكل شيء ، حتى بما يدل عليه العقل من بعث ونُشور ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[3] .

إنهم يكذبون كل برهان ؛ عقلياً كان أم مادياً ؛ فقد نسبوا إلى السحرِ قولاً يُفهم ؛ ودليلاً يُقنع ؛ وأسلوباً يُعجز الإنس والجن جميعاً ، ولو نزل عليهم كتاب الله مدوناً في أوراق فأمسكوه بأيديهم وتحسسوه بأصابعهم ؛ وحملقوا فيه بأعينهم ؛ لنكصوا على أعقابهم قائلين : ما هذا إلا سحر مبين! قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾[4] .

وتلوح للناظر في الآيات الكريمة براهينُ كذبهم على رسول الله ﷺ ، ألا يكفيهم بهتاناً أنهم نسبوا إلى السحر كلَّ ما يستحيل في العقل أن يكون سحراً!؟ .

---

(١) سورة المدثر : ٢٤ . أخرج الحديث بطوله الحاكم في المستدرك والطبري في تفسيره ج ٢٩ ص ٩٨ وانظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٢٩٣ ط . دار الشعب ، وكتابنا : بينات المعجزة الخالدة : ص ١٧٨ / ١٧٩ .

(٢) انظر كتابنا : بينات المعجزة الخالدة ص ١٩ . انظر فيه الفرق بين المعجزة والسحر ص ٤٤ وما حولها .

(٣) سورة هود : ٧ .

(٤) سورة الأنعام : ٨ وانظر تفسير الآية في تفسير القرطبي : جـ ٦ ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣ .

ثم ألا يكفيهم دجلاً ومراوغة أنهم عدّوا الصادقَ الأمينَ في جملة السحرة؟ والعاقل يُدرك براءته ﷺ منهم ؛ وشاسع البون بينه وبينهم لفروق لا تكاد تُحصى!! .

* * *

المستشرقون يحاكون المشركين في فرية السحر

نهض رسول الله ﷺ بأعباء الرسالة بلاغاً وتطبيقاً ، دعوة وتعليماً ؛ علماً وعملاً ، ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً ؛ وأظهر الله عليه دلائل الصدق وبراهين النبوة ، لكنَّ العرب المشركين غلبت عليهم عصبيتهم لِما ألفوه من عبادة الأصنام وتبعيتهم في ذلك للسادة القادة ، فأضلوهم السبيل ، فزعموا أنَّ ما جاء به الرسول ما هو إلا سحر ، والسحر ينتج الغرائب والعجائب ، وهو موجود في كثير من أصقاع الأرض .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾[1] .

وقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[2] .

﴿ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾[3] .

---

(١) سورة ص : ٤ ـ ٥ .

(٢) سورة الزخرف : ٣٠ .

(٣) سورة هود : ٧ .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1] .

كذلك زعموا أن معجزة انشقاق القمر سحر ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[2] كما زعم كبيرهم الوليد بن المغيرة أن القرآن سحر ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[3] .

إذا تلقَّىٰ العقلاء قول الجاهلية هذا ؛ في جزيرة الأمية وبيئة الوثنية ؛ بالاستنكار والاستغراب ؛ لانكشاف بطلانه ، فكيف نتلقى هذا القول إذا صدر عن أناس يدَّعون العلم والبحث الموضوعي الحيادي المدقق في عصر النهضة الحديثة !!؟ فهذا المستشرق الشهير « مرجليوث » من زعماء الاستشراق ، قد زعم « أن الباعث على بعثة الرسول إنما هو أعمال الشعوذة » وزعم « أن محمداً ﷺ عرفَ خدعَ الحواة وحيلَ الروحانيين ، ومارسها في دقة ولباقة . وأنه كان يعقد في دار الأرقم جلسات روحانية!! »[4] وأراد بالجلسات الروحية : الجلساتَ الاحتيالية التي يحضرونها في أوربا على أنها « تحضير أرواح » .

فوارق تُميز السحرة وأضرابهم عن الأنبياء

لما كان الساحر يأتي بأَعاجيب مدهشة ، فقد شبَّهَ الجهلةُ النبي به واهمين أن بينهما قدراً مشتركاً ، في حين أن الفرقان بينهما عظيم بارز ، يفوق في ظهوره افتراقَ الليل عن النهار ؛ وأهلِ الجنة عن أهل

---

(١) سورة الأنعام : ٧ .
(٢) سورة القمر : ١ ـ ٢ .
(٣) سورة المدثر : ٢٤ .
(٤) محمد رسول الله ـ ايتين دينيه ـ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٤٦ .

النار ؛ وخيارِ الناسِ عن شرارهم . فلْنُعدد من الفوارق العامة ما يسهل إدراكه وعرفانه :

الأول ـ اختلاف أحوال كل منهما : فصاحب المعجزة تتلألأ أنوار التقوى في وجهه ، وتلوح آثار الصلاح في محياه ، من الذين ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ شيمتهم الحلم والاصطبار ، وخلقهم الصفح والعفو والاستغفار ؛ والجود والسخاء والإيثار ؛ والحنو والحدب على الضعفاء والمساكين ؛ والإعراض عن زخرف الدنيا وعن اتباع شهواتها .

أما أصحاب الحيل والسحر والشعوذة فرذائل التزوير لائحة في وجوههم ؛ ومخايل الختل والغدر واضحة في جباههم ، قُصارى همهم استمالةُ الملوك والأُمراء والأغنياء وإيثارُ مواطنهم ، وغايةُ أُمنيتهم نيل الجاه والعزّ في الدنيا والظفر بما يقضي وطر النفس والشهوات[1] .

الثاني ـ إن الأنبياءَ قد اختط الله منهجهم ، فسلكوا سبيل الحق ، فلا يتأتى منهم إلا الصدق ، ولا يأمرون أو يتصرفون إلا بالبر والتقوى والعدل والخير والإحسان ، يبتغون الآخرة ، ويعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً . ولو ابتغى نبي غير المنهج الرباني ـ حاشاه من ذلك ـ لكان فيه حتفه . فإن الله تعالى وقد آتاه سلطانه وبرهانه لا يتيح له استغلال ذلك في إضلال الناس . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾[2] .

أما أصحاب السحر والكهانة من المشركين والكتابيين وأهل البدع والفجور من المسلمين فإنهم يخبرون كذباً ، ويأمرون بالفحشاء والمنكر

---

(١) إيثار الحق على الخلق ـ لأبي عبد الله محمد بن المرتضى اليماني ص ٦٧ ـ ٦٨ ـ مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة سنة ١٣١٨هـ .

(٢) سورة الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧ للتوسع في تفسير الآيات انظر روح المعاني جـ ٢٩ ص ٥٤ والجامع لأحكام القرآن جـ ١٨ ص ٨٧٦ ، ٢٧٧ .

ويقترفون المحرمات والمظالم ولا يعبدون الله تعالى ، بل ينغمرون في مخاضات الضلال والكفر ، ويتقولون على الله بغير علم ، وقد حرّم الله هذا إطلاقاً . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

الثالث ـ يؤيد اللهُ الرسلَ بملائكته ، فيجعلُهم سبباً في حصول المعجزات ؛ حسب مشيئته سبحانه ، فإنهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . فالأنبياء لا يَدْعون الملائكة للإيمان ، بل الملائكة تعينهم وتؤيدهم ، فالخوارق التي تحصل بأفعال الملائكة تختص بالأنبياء وأتباعهم ، لذلك أخبر الله تعالى أن القرآن إنما أنزله الله بملك من عنده : ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾[2] .

أما أصحاب السحر والكهانة فيستعينون بالجن في تحصيل الأخبار وإظهار العجائب ، ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾[3] .

الرابع ـ أن آيات الأنبياء لا يقدر عليها إنس ولا جان ، إنما تحصل بأمر الله تعالى ، فهي خارجة عن اعتياد الناس والجان ومقدورهم . فآيات الأنبياء خاصة بهم لا يقدر على معارضتها إنس ولا جان ، قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[4] .

---

(١) الأعراف : ٣٣ .
(٢) التكوير : ٢٠ .
(٣) الشعراء : ٢٢١ ـ ٢٢٣ . أسهبت في الكلام عن السحر في كتابي : بيّنات المعجزة الخالدة : ص ٣٩ ـ ٤٩ واحترزت من التكرار ههنا .
(٤) الإسراء : ٨٨ .

ومعجزات الأنبياء يستحيل إبطالها على يد أي مخلوق ، سواء أكان من زمرتهم أم من غيرهم .

أما عجائب السحرة فهي مقدورة الإنس أو الجن أو الحيوانات ، كالطيران للطيور . . أو حمل الجن الكافرين بعضَ المأكولات من مكان لآخر لتوضع بين يدي الساحر فتكون للناس عجباً في حين أنها من مقدور الإنس ، غير أن الجن تفعل ذلك والناس لا يبصرون ، ومعارضتها ممكنة ، بل كثيراً ما رأى الناس منافسات بين أصحاب تلك المهنة ، فيعارض بعضهم بعضاً أو يبطلُ له عجائبه .

فالعجائب معتادة لا تسمو على قدرة المخلوقات، فالتفريط ممن ظنَّها دليلاً على النبوة ، حين وجب عليه أن يتأملها فيكشف دلالتها على كذب صاحبها .

أما ما أعطاه الله لسليمان عليه السلام فكان بمجموعه يخرج عن قدرة الإنس والجن كتسخير الرياح والطير(١) ، وأرى أنه يفترق في استخدام الجن أنفسهم عن أصحاب السحر والكهانة افتراقاً عظيماً ؛ فأولئك يخدمون أغراض الجن ويتملقونهم ويستجدونهم أن يساعدوهم على تحقيق مآربهم . أما سليمان عليه السلام فأعطاه الله سلطة عليهم ، فكانوا أطوعَ من بنانه يهابونه ويرهبون جانبه ؛ خشية أن يُحرقوا حتى توفاه الله تعالى ، وهم مستمرون على تنفيذ أوامره . فلما خَرَّ جسده بعد أن أكلت الأَرضةُ عصاه ، تبينت الجنُّ أنْ لو كانوا يعلمون الغيب ما أقاموا في العناء والتعب هذه المدة بعد وفاة سليمان عليه السلام . قال الله تعالى :
﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾

---

(١) النبوات ص ٢٧٩ ـ ٢٨١ و٢٤٤ وغيرها .

يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴾[1] .

قال علاّمة المأثور الإمام إسماعيل بن كثير : (يذكر الله تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمَّى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئاً على عصاه ـ وهي مِنْسأته ـ كما قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة ، وغير واحد ـ مدة طويلة نحواً من سنة ـ . فلما أكلتها دابة الأرض ، وهي الأَرَضَةُ ضعفتْ «وانكسرت» وسقط إلى الأرض ، وعُلم أنه مات قبل ذلك بمدة طويلة ، تبينت الجن والإنس أيضاً أن الجنَّ لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك)[2] .

وقد تحدثتُ عن السحر حديثاً وافياً في كتاب « بينات المعجزة الخالدة »[3] وبينت حقيقته وأنه قاصر عن التصرف في أمور الكون بشيء يستحق أن يحسب له حساب ، وأشرت بوسيلة التخلص من أَضراره ، ثم قلت :

« والخلاصة أن عجائب السحر والكهنة فنون أشبه ما تكون ، من ناحية تلقيها عن الآخرين ، بالعلوم والصناعات المعروفة . فمن أراد إتقانها سلك مسالك أهلها، واجتمع بمعلميها، فيحقق نتائجهم أو يتفوق

---

(١) سورة سبأ : ١٢ / ١٤ و« القطر » : النحاس و«جفان كالجواب» : الجفنة : القصعة ، والجواب : جمع جابية ، وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء: يجمع فيه .

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ ٦ ص ٤٨٧ ـ ٤٨٩ .

(٣) للكاتب نفسه .

عليهم ، فهي فنون تلزم روادها بالتفرغ والتعلم والمزاولة ، ونتاج السحرة بجانب المعجزة سخيف هزيل لا يساوي شيئاً ، مما يثبت أنه يغاير المعجزات والكرامات وأنه دونها بكثير ، فأين نتاج السحرة من خلق الناقة في قلب الصخرة لسيدنا رسول الله ﷺ!؟ .

لذا تجد العقلاء من أهل فن السحر والكهانة ينكبون على الإيمان بالرسل ، فقد خرَّ سحرة فرعون ساجدين ، قال الله تعالى : ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[1] .

واعتزل أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه ـ من أهل المدينة ـ الكهانة ، وآمن بالله ورسوله محمد طه الأمين صلى الله عليه وعلى أصحابه أجمعين .

الخامس ـ أن نتاج السحر والكهانة لا يمكن أن يصمد في معارضة المعجزات ، التي أيد الله بها النبيين والمرسلين ، فإنك ترى المعجزات غالبة قاهرة ونتائج السحر والكهانة مندحرة مندثرة .

نستخلص هذا من معارضة السحرة موسى عليه السلام ، إذْ دعاهم فرعون لذلك، ووعدهم ومنَّاهم بالعطاء الجزيل والتقريب إليه ، إنْ هم غلبوا ما جاء به موسى في هذه المبارزة العلنية العظيمة ، وهم ألوف كثيرون ، وهم أنبغ الأقوام بالسحر .

ولما أعطاهم سيدنا موسى عليه السلام الفرصة ليكونوا أول المُلْقين ، تمكنوا من إظهار غاية ما عندهم من براعة السحر ، إذْ أرسلوا حبالهم وعصيهم ، فإذا هي حيَّات كبيرة كثيرة ـ فيما يراه الناس ـ فملأت الرهبةُ قلوبَ الناس ، وداخلهم من ذلك وهم عظيم!! فألقى موسى عصاه بأمر

---

(١) سورة الأعراف : ١٢٠ / ١٢٢ .

الله تعالى ، فإذا هي تبتلع ما يكذبون ويخيلون للناس . . فلم يبقَ في الوادي منها شيء .

لقد ظهر الحق وعلا وهيمن بانتصار ساحق لا يُقاوَم . . تيَقَّنَ السحرةُ أنَّ هذا ليس من جنس ما جاؤوا به ، وأنه لا يكون إلا من خلق الله خالق الأكوان . فألقوا أنفسهم ـ دون تكلف ـ لله ساجدين ، وملأَ اليقينُ قلوبَهم فانطلقوا معلنين : ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ وإليك النص بتمامه : قال الله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[1] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٠٣ / ١٢٢ ومعنى قوله تعالى (ملئه) : قومه ، (ظلموا بها) : كفروا بها عناداً ، (بينة من ربكم) : بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به(أرجه) : أَخرِّه ، (حاشرين) : أناس يحشرون الناس =

السادس ـ أن معجزات الأنبياء لا تُنال بالكسب وبذل الجهد ، فأمرها عائد إلى الله وحده ، لا اختيار لأحد في جلبها أو دفعها ، بل الله يأتي بها حسب علمه وحكمته وعدله ورحمته ومشيئته ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ . . ﴾[1] . لذلك أخفق من توهم غير ذلك كالسهروردي وابن سبعين وغيرهما من المتفلسفة .

أما عجائب السحرة والكهان وأهل الشرك والبدع فإنها تُنال بالكسب والتعلم وبذل الجهد المفتَنِّ في الغواية والتعاون مع الجنِّ على الشرور والآثام، فالسحر فن معروف ، له معلمون يعرفونه ويلقنونه تلامذتهم ، وفيه مصنفات ، فمن تولع به وطالع كتبه ، وتتلمذ لمشاهيره تعلمه وأتقنه ، بل قد ينبغ فيه فيفوق أقرانه ومعلميه[2] .

السابع ـ أن آيات الأنبياء ليستْ معتادةً لغير الذين يصدقون على الله ، ويُصدقُون الذين جاؤوا بالصدق من عنده . فظهور ذلك النوع الخارق للعادة على أيديهم كاف في الدلالة على صدقهم بما جاؤوا من عند الله ، فليس من سنة الله في خلقه تأييد الذين يُزَوِّرُوْنَ عليه في الناس . قال الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[3] .

وقال : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ

= يجمعونهم ـ وهم الشرط ـ (تلقف) : تبتلع ، (يأفكون) : يكذبون ويخيلون الأعينَ ، (صاغرين) : مقهورين مغلوبين .
(انظر تفسير القرآن العظيم جـ ٣ص ٤٤٩ ـ ٤٥٤ ـ طبع دار الشعب بمصر) .

(١) سورة الرعد : ٣٨ وسورة غافر : ٧٨ .

(٢) النبوات ص ١٧٠ وص ٢٨٢ . وإيثار الحق ص ٦٥ ـ ٦٦ . وفيه ورد عن تعلم السحر « وإنما اختلف في تعلمه فقيل حرام ، وقيل فرض كفاية . وهذا باطل . . » .

(٣) سورة الشورى : ٢٤ .

ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[2] .

أما أعاجيب السحرة والكهنة فإنها مألوفة الظهور على أيدي الدجاجلة والمخادعين الطامعين في أموال الناس والتسلط عليهم . فظهور هذا النوع على يد امرىءٍ دليل كافٍ على كذبه واحتياله[3] وأما ظهور الأعاجيب على أيدي فُسَّاق المسلمين فهي - في نظري - إما أن تكون ضرباً من السحر ، وأما أن تكون مبنية على تلاوته مأثورات ، وأوراداً لبعض الأولياء الصالحين أصحاب الكرامات ذوي الطريقة المحمودة الملازمة للكتاب والسنة ، فيكون ظهور ذلك على يده نوعاً من التكريم للأولياء الصالحين، وللدلالة على صحة طريقهم وإسلامهم ، وليس تكريماً لمن تظهر على يده آحاد الناس السالكين طريقهم ، فانتبه! .

الثامن : ـ أن الأنبياء يفتحون العيون العُمي والآذانَ الصُّمَّ والقلوب الغلف ، ويزيلون عنها غشاوات التقليد الأعمى والضلال الموروث والتبعية الصماء ؛ فإذا بها منطلقة في آفاق الكون ، تُدرك الحقائقَ ، وتحلل الحوادث ، وتصلُ المسببات بأسبابها ، وتتعرف من الموجودات على موجدها العظيم تبارك وتعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[4] .

لكنَّ السحرة يفسدون السمع والبصر والعقلَ والإدراكَ ، إذْ يخيلون للإنسان الأشياء على خلاف حقيقتها فيتغيرُ حسه وعقله . قال الله تعالى ـ في قصة موسى ـ عن السحرة : ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ

---

(١) سورة الحاقة : ٤٤ ـ ٤٨ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٨ .

(٣) النبوات ص ٢٨١ .

(٤) سورة فصلت : ٥٣ .

﴿ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا يفيد أن تأثيراً وقع على الأعين فغيَّر في رؤيتها للأمور[1] .

التاسع ـ أن النَّبي قد خَلتْ من قبله الأنبياء ، فهو يسير على منهجهم ، وينسج في إصلاح الناس على منوالهم ، بتبليغ دعوة الله في الأرض ، فلا يأمرُ بنقيض ما جاؤوا به ، من عبادة الله وحده والعملِ بطاعته والترغيب فيما لديه والترهيب من عقابه ؛ إيماناً به وباليوم الآخر ، ويدعوهم إلى الإيمان بجميع الكتب والرسل . فالأول منهم يبشر بالثاني ، والمتأخر منهم يؤمنُ بمن قبله ، فلا يُتصور أن يُبطل نبي معجزةَ آخر . وإذا جاء بنظيرها فإنه يصدقه فتكون معجزةُ كل منهما برهاناً له وللآخر أيضاً . ولا يُخَطِّىء بعضهم بعضاً ، ولا ينقم عليه أو ينتقصه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ .

وقال : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ .

وقال : ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[2] .

أما السحرةُ والمبتدعة فيحسدُ بعضُهم بعضاً ويحقد عليه ، ويوغر

---

(١) النبوات ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ والآيات : ١١٦ وما بعدها من الأعراف .

(٢) النبوات ص ٢١ وص ٢٨٢ وإيثار الحق ص ٦٧ . والآيات من سورة النحل : ٣٦ والبقرة : ٢٨٥ وآل عمران : ٨١ .

وقد تحدثت عن المعجزة وشروطها ، وأهم خصائصها في القرآن . وعن الكرامة ومنزلتها من المعجزة ، وعن الفرق الشاسع بين المعجزة والمخترعات العلمية . حديثاً وافياً يروي الغليل (انظر بينات المعجزة الخالدة ص ١٨ ـ ٣٨) .

صدور الناس ضده ولا يريد به إلا شراً ، وينافسه لعله يحظى بغلبته وذهاب صيته ، مما يثبت أنهم متنازعون في سبيل المنافع وتحقيق الأطماع من غير غرض سام أو نصرة معتقد صحيح .

العاشر ـ أن النبي لا يأمر إلا بمصالح العباد في المعاش والمعاد ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والشرك والظلم والكذب . فقد بعثه الله لتكميل الفطرة ، فدعوته وأحواله تتلاقى مع العقول النيِّرة والقلوبِ السليمة ، وتحتل فيها مكانةً عالية من القبول والاحترام ، وإنَّ دينَهُ موافق لموجب الفطرة التي فطرَ الله الناسَ عليها موافق للأدلة العقلية الصحيحة ، كما توافقه وتؤيدهُ ما جاءتْ به تعاليمُ الأنبياءِ قبله وشرائعهم . **فيبدو جلياً أنه مؤيد مصدِّق بصريح المعقول وصحيح المنقول .**

أما السحرة والكهنة وأهل البدع فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، يأتون الفواحش والمظالم ، ويعرضون عن الله جلَّ ذكره ، ويخالفون أَنبياءه وشرائعه . فهم مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول ، تنبذهم الفطر السليمة وتنفر منهم القلوب النقية ، وتفضح زيف باطلهم بصائر العقول النافذة[1] .

فالحمدُ أكملُ الحمدِ لله رب السموات والأرضِ ؛ هادي عباده بالأنبياء والمرسلين وبأتباعهم المخلصين ، إذْ ميَّز الخبيثَ من الطيب لئلا تزيغُ عين قبل اهتدائها أو تزلَّ قدم بعد ثبوتها ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[2] .

إن الأنبياء يمتازون من السحرة والأدعياء في الأحوال والأفعال

---

(١) النبوات : ص ١٢٨ و٢٨٤ . تقي الدين أحمد بن تيمية ـ ط المنيرية مصر .
(٢) سورة الأنفال : ٣٧ .

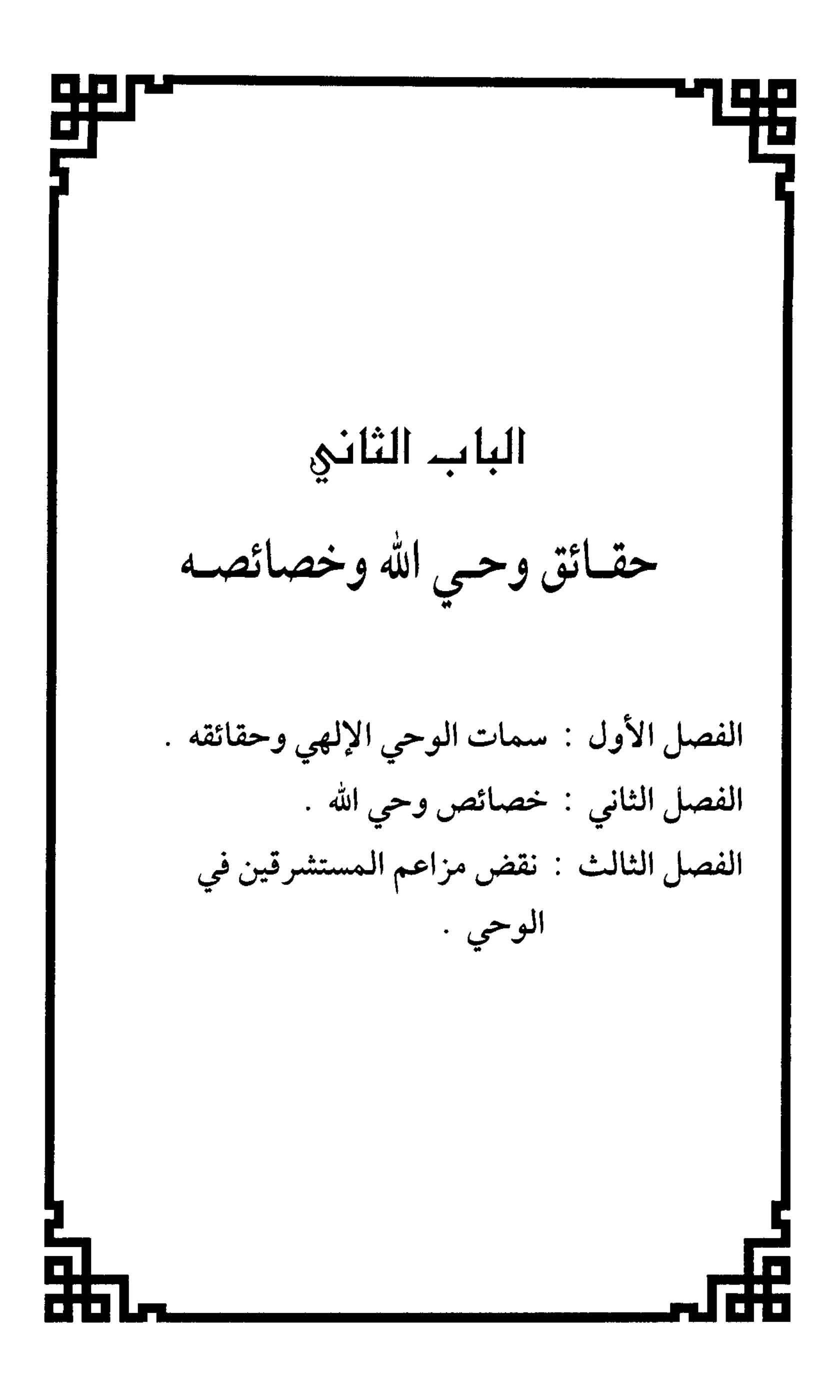
والأقـوال ، وفي الـدعـوة إلى الله تعـالى ، وبـكونهم مـؤيـديـن بمدد الله وبـالمعجـزات . . مما لا يخفى عـلى آحـادِ الـناس الـعـقلاء ، وهـذا من أسباب دخول الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً[1] .

فهل خفيَ هذا الحقُّ الساطعُ المبين على أدعياء البحث العلمي الحيادي المدقق من مستشرقين ومقلدين!؟ أم خضعوا لدوافع وأهداف ومؤثرات حملتهم على قذف التقول جزافاً بغير تعقل ولا هدى ولا كتاب منير ! ! ؟ ؟ .

* * *

---

(١) وقد استخلصت بحمد الله تعالى براهين نبوة محمد ﷺ من القرآن العظيم ، وقدمتها في بحوث كاملة ، وذلك في كتاب (نبوة محمد ﷺ في القرآن) .



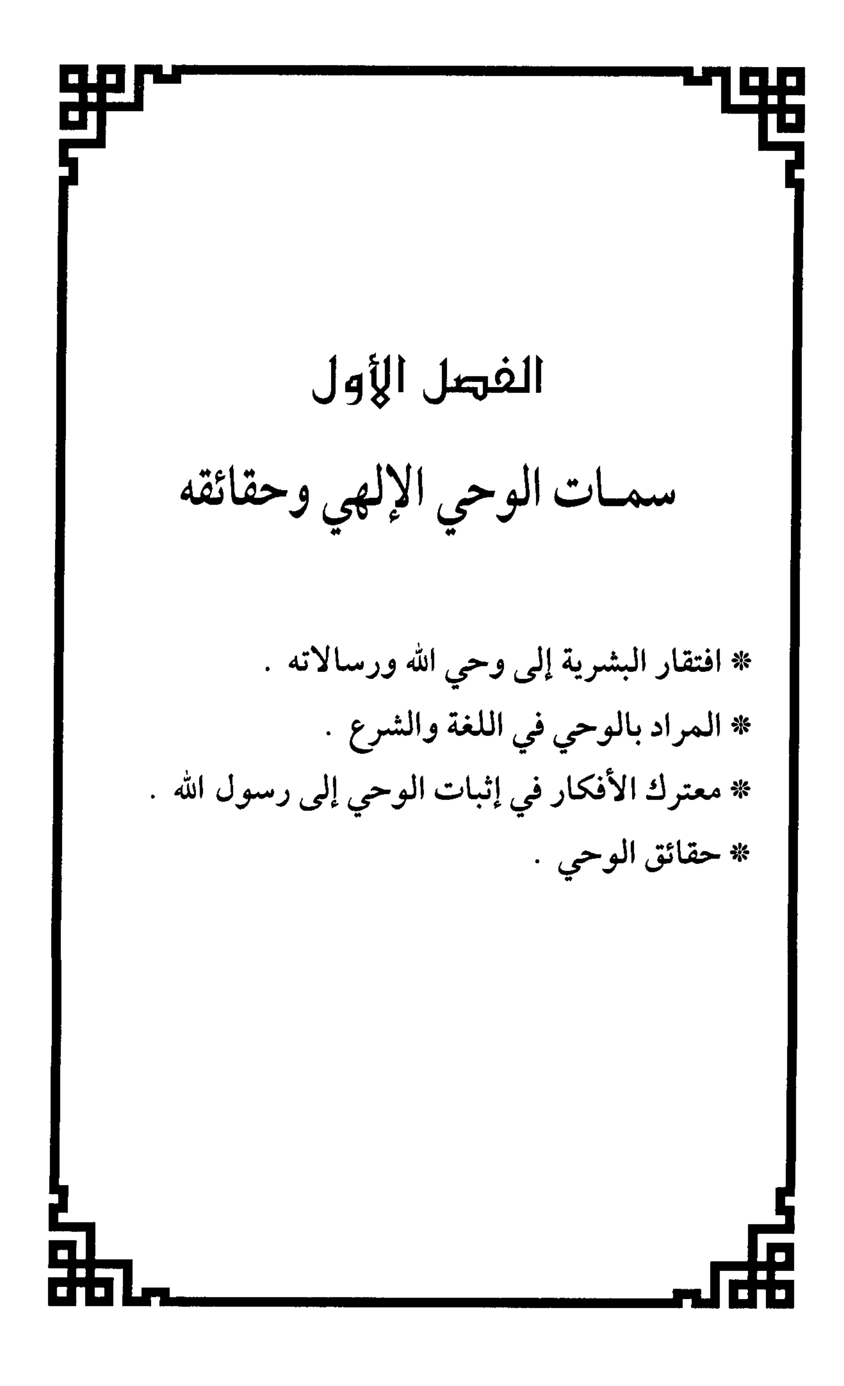
الباب الثاني

حقائق وحي الله وخصائصه

الفصل الأول : سمات الوحي الإلهي وحقائقه .

الفصل الثاني : خصائص وحي الله .

الفصل الثالث : نقض مزاعم المستشرقين في الوحي .



الفصل الأول

سمات الوحي الإلهي وحقائقه

* افتقار البشرية إلى وحي الله ورسالاته .
* المراد بالوحي في اللغة والشرع .
* معترك الأفكار في إثبات الوحي إلى رسول الله .
* حقائق الوحي .


http://kotob.has.it

إذا نظرت في بدائع الكائنات وافتقارها للخالق العظيم ، ونظرت في تيسيره وتدبيره وأحكامه وإتقانه الخلق تبارك وتعالى ، علمت أن مقتضى ألوهيته وحكمته أن لا يدع العباد حيارى بين عبادة الحجارة ومظاهر الطبيعة ، بل يهديهم إلى الإيمان به ، ويرسل إليهم رسولاً ، ويشرّع لهم شرعاً يكفل سعادتهم في دنياهم وآخرتهم ، فلا يتيهوا عن مرضاة خالقهم العادل الحكيم . وقد ذكر الله تعالى من حوار فرعون مع موسى وهارون قوله : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1] .

لا ريب أن كل عـاقل متى آمن بالله تعالى بدلائل العقل القطعية أمكنهُ أن يعرف صفات الباري تبارك وتعالى . وإيمانك بالله وصفاته الكمالية يهديك إلى أنه تعالى برأفته ورحمته وحكمته وعدله بين عباده لا بد أن يبعث إليهم رسولاً منهم يهديهم سواء السبيل ، وأنه تعالى يكافىء المحسنين ويعاقب المسيئين ، وأنه تعهد أن لا يعذب أحداً حتى ينير له سبل الرشاد ، وبهـذا ورد خطـاب الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[2] . ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[3] . فالإيمان بالوحي الإلهي إلى الأنبياء من لوازم الإيمان بالله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته الجلّى .

ألا ترى أن إرسال الله إلى قوم رسولاً إنقاذهم من الضلال بفضل الله ورأفته وحكمته؟! وما بعث الله محمـداً خاتم المرسلين ﷺ إلى الناس كافة في كل زمان ومكان إلا رحمة للإنسانية . كما وصفه جلَّ شأنه :

---

(١) سورة طه : ٤٩ / ٥٠ .

(٢) سورة فاطر : ٢٤ . وسورة الإسراء : ١٥ .

(٣) سورة النساء : ١٦٥ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] ، وقد عرّفنا رسول الله ﷺ بخلاصة مهمته ، فقال : « إنما أنا رحمة مهداة »[2] .

إذا تأملت طبائع البشر ونزعاتهم وغرائزهم وميولهم وحَيَدتها في كثير من المواقف عن الحق والخير أدركت أن الناس بأمس الحاجة إلى رسالة الله وإلى قدوة صالحة يرسله الله إليهم ، يجالسونه ويعاينون فيه الصورة التطبيقية الواقعية لدين الله تعالى ، فيرون الفضائل حية مجسدة والرذائل مطروحة مجتنبة .

إن بعثة الرسل وإنزال الشرائع مِنَّة من الله ورحمة على سبيل التلطف بالبشر والفضل عليهم . قال ابن تيمية رحمه الله : « فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف مننه عليهم أن أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وبين لهم الصراط المستقيم »[3] .

إن الإيمان برسل الله يعني لا محالة الإيمان بوحي الله تعالى إلى الرسل . وأن محمداً ﷺ رسول الله حقاً وصدقاً جاءنا على ذلك بالدلائل البينات والمعجزات القاهرات ، وخلقه العظيم أسمى من أن يجد فيه

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات مرسلاً والحاكم مرفوعاً وقال : صحيح على شرطهما ، وأقره الذهبي .

(٣) لوائح الأنوار : جـ٢ ص ٢٥٠ ومعتقد أهل السنة أن بعثة الرسل ممكنة ، جائزة على الله سبحانه وتعالى ، ومضى بعض المعتزلة إلى أنها واجبة على الله ؛ بناء على أصل اتخذوه في مذهبهم ، هو قاعدة التحسين والتقبيح العقليين ، وعلى ما يتفرع عنه من اعتبار الغرض ووجوب الألطاف ووجوب رعاية الأصلح ، والأصل فاسد فما تفرع عنه فاسد أيضاً . فإرسال الرسل ـ عندنا ـ لمعاضدة العقل وتسديده أمر جائز في حقه تعالى . وأنه وقع وحصل فهو واجب وقوعاً أو سمعاً . انظر شرح المواقف لعلي بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ جـ٨ ص ٢٣٥ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م مطبعة السعادة بالقاهرة . وانظر لوائح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية جـ٢ ص ٢٤٧ / ٢٤٨ .

مخاصم مجالاً للطعن في صدقه وأمانته فيما يُبلغ عن ربه . والقرآن الذي أعجز الفصحاء والبلغاء هو المعجزة الخالدة أبد الدهر ، وهو شاهد عظيم على أن رسالة محمد ﷺ عين اليقين من رب العالمين .

الوحي في اللغة والشرع

الوحي في اللغة : قال ابن منظور : إعلام في خفاء ، ولذلك صار الإلهام يسمى وحياً [1] .

وقال الراغب الأصفهاني : أصل الوحي الإشارة السريعة . ولتضمن السرعة قيل : أمر وحي . وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض . وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب أو بإشارة ببعض الجوارح ، وبالكتابة[2] .

وإليه ذهب ابن كثير في النهاية .

ونلاحظ أن الراغب وابن الأثير نبّها على اعتبار السرعة في حقيقة الوحي . وقد أغفل ذلك صاحب اللسان وصاحب تاج العروس ، لكنهما أفاضا في ذكر استعمال الوحي في سرعة خاصة .

---

(١) لسان العرب ـ محمد بن منظور الإفريقي ـ وفيه أن الوحي بمعنى الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وحيت الكلام إليه وأوحيت، ووحى وحياً. وأوحى أيضاً أي كتب، والوحي المكتوب والكتاب أيضاً. وقال الألوسي: قال الإمام عبد الله التميمي: الوحي أصله التفهيم، وكل ما فُهم به شيء من الإلهام الإشارة والكتب فهو وحي (روح المعاني جـ ٢٧ ص٥٢ الطبعة المنيرية) وقال الزجاج: الإيحاء: الإعلام على سبيل الخفاء (التفسير الكبير ـ للرازي جـ١١ ص١٠٨).

(٢) المفردات في غريب القرآن . للراغب الأصفهاني. ط. مصطفى البابي الحلبي .

نقول : إن الراغب وابن الأثير كانا على حق فيما ذهبا إليه . فقد أفادت إطلاقات اللغة العربية أن السرعة والخفاء من سمات الوحي ومزاياه .

الوحي في الشرع : قال ابن الأنباري : إنما سمي وحياً لأن الملك أسرَّه على الخلق وخَصّ به النبي الذي بعثه الله إليه [١] .

أقول : ومنه تعلم أن الوحي إنما يكون سراً .

وقال الراغب : ويقال للكلمة الإلهية التي تُلقى إلى أنبيائه : وحي . وذلك أضرب حسبما دلَّ عليه قوله ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [٢] .

وزبدة القول أن الوحي شرعاً : إلقاء الله الكلام أو المعنى في نفس الرسول بخفاء وسرعة ؛ بمَلَكٍ أوْ دون مَلَك .

ولقد أورد القرآن الكريم في مواطن كثيرة كلمة (الوحي) أومشتقاتها بالمعاني التي أطلقت عليها في اللغة العربية [٣] . كما استعملها بالمعنى الخاص بالرسل ، وهو إعلام خاص خفي سريع من الله تعالى لرسله وأنبيائه .

أقول : ومن هنا تلحظ أن معنى الوحي في الشرع أخص منه في اللغة

---

(١) لسان العرب : وفيه : قال الأزهري : وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحياً . والكتابة تسمى وحياً . وقال الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ معناه : إلا أن يوحي إليه وحياً (بوساطة ملك) فيعلمه بما يعلم البشر أنه أعلمه . إما إلهاماً أو رؤيا ، وإما أن ينزل عليه كتاباً كما أنزل على موسى أو قرآناً يتلى عليه كما أنزل على سيدنا محمد ﷺ . وكل هذا إعلام (خفي) وإن اختلفت أسباب الإعلام فيه .

(٢) سورة الشورى: ٥١ .

(٣) كالإلهام فيما لا صلة له بالشرائع والأحكام كقوله ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (سورة القصص : ٧) ، ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى ﴾ (سورة النحل : ٦٨) .

من جهة مصدره وهو الله تعالى، ومن جهة الموحى إليهم وهم الرسل .

معترك الأفكار في إثبات الوحي

دارت المعركة بين مثبتي الوحي ومنكريه حامية الوطيس في تاريخ الفكر الإنساني وحاضره . وكل يأتي بما لديه من حجج ودلائل . وقد وجدت أفضل الأجوبة المسكتة والبراهين الغلابة هي ما أورده الله في كتابه المبين ، **وأن أبلغ منهج في إثبات الوحي هو منهج القرآن العظيم** ، إذ لا يدانيه فكر ولا منهج في تثبيت الوحي إلى سيد المرسلين محمد ﷺ وإلى إخوانه النبيين قبله ، فما هو هذا المنهج ؟!

لا أعرف أحداً تطرق إلى إعطاء صورةٍ كلية عن هذا المنهج ، فلا بد لي أن أعول في أخذ هذه الصورة على القرآن ذاته . ولقد وجدت بعد تقصي الآيات البيِّنات أن الذكر الحكيم قد سلك في إثبات الوحي لمحمد ﷺ مسلكين ، أقام بهما الحجة وحسم النزاع ، فإما أن يكون الخصم ممن آمن برسول سابق فهو من أهل الكتاب ، وأما أن يكون جاحداً جميع الرسل كالمشركين والملاحدة ، ولاشك أن المستشرقين لا يخرجون عن هذين الصنفين .

إذا كان الخصم مؤمناً برسول قبل محمد ﷺ فيلزمه أن يثبت الوحي لمن آمن به من رسل ، فما يقوله هناك في إثبات حادثة الوحي ، يحتج به عليه هنا ، وهذا ما نواجه به اليهود والنصارى ، فإنهم يؤمنون بالأنبياء ، وإن خالفوا في بعضهم . وقد أقام الله الحجة على اليهود في كتابه المبين ، وذلك أنهم بالغوا في إنكار نزول القرآن على محمد ﷺ حتى أظهروه في صورة المستحيلات .

أما إذا كان المجادل في وحي الله تعالى من الملاحدة ، فإنه لابد من

تأسيس البحث معه على الإيمان بالله تعالى ، فهذا هو الأصل الأصيل في البحث . وقد عبر عن هذا بعض ملاحدة القومية الطورانية ـ من كبار أتباع كمال أتاتورك ـ إذ قال : أعطوني الإيمان بالله أسلم لكم بكل ما تقولون في الرسل والرسالات [١]. لكن هذا لا يمنع أن نجابه المجادل بما في ظواهر الطبيعة من براهين الإيمان بالله رب العالمين ، وبما في ظواهرها من دلالات عقلية على إمكان الوحي الإلهي إلى الرسل دون وساطة مادية مباشرة ، وبهذا يسقط توهم المجادل أن الوحي من المستحيلات ، وتنطوي مسافة شاسعة كانت بينه وبين الإيمان بوحي الله ورسله ورسالاته . وفي هذا الاستدلال العلمي الذي نسوقه من إفحام الملحد والمشرك ـ جاحد النبوة ـ مالا يطيق دفعه .

وفي هذه الحال يجب على الداعية ـ في تقديرنا ـ أن يقيم أولاً الدليل على إمكان وقوع الوحي عقلاً ، ثم يثبت ـ ثانياً ـ حصول الوحي لسيدنا محمد ﷺ بذكر الحوادث الدالة عليه ، والأحوال التي كانت تعرض للرسول إبان نزول الوحي على مرأى من الصحابة رضوان الله عليهم . ويزيد بالمرحلة الثالثة براهينه فضلاً وقوة في إقامة الحجة الحاسمة فيذكر المعجزات الحسية والعقلية التي أجراها الله لمحمد ﷺ .

وهذا المنهج ـ برأينا ـ كفيل بحسم مادة النزاع ، وقطع دابر الشك عند من رزق فكراً صحيحاً وقلباً حياً مشغوفاً بالحق ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[٢] وقد سلك القرآن هذه المسالك وجلّى الحقيقة فيها بالبرهان الساطع [٣].

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم ـ شيخ الإسلام مصطفى صبري جـ٣.

(٢) سورة ق : ٣٧.

(٣) توسعت في الجانب من البحث في : «نبوة محمد ﷺ في القرآن» ص١٦٦/ ١٨٤ط. حلب. فليرجع الباحث إليه.

إثبـات الوحـي عقـلاً

يتوقف الإيمان بوحي الله إلى حد بعيد على الإيمان بعالم الغيب . وكثير من الناس ينكرون مالا يخضع لإدراك الحواس ، ويشدون الوثاق على عقولهم وأفئدتهم بسلاسل الحسيات وأصفادها ، ثم يزعمون أنهم يعولون في ذلك على العلم ونتائجه . . !!

لقد قطع العلم شوطاً بعيداً في الدلالة على وجود مغيبات كثيرة غير مُحسّة من موجودات ونواميس كونية ، عرفنا بعضها ولم نعرف معظمها . وكثيراً ما يجد علماء الكونيات أنفسهم أمام مشكلات موصدة مستعصية على الكشف فتتركهم حيارى لا يدرون من أمرها شيئاً ذا بال!

فمن الموجودات التي لا تراها الأبصار(١) تلك الأنواع الكثيرة من الأشعة غير المرئية ؛ كأشعة (اكس) التي تخترق الجسد الآدمي في أثناء تصويره ، لتساعد الطبيب على تشخيص مرضه ، وتستعمل في علاج حالات مرضية أيضاً . والإنسان يولدها على الرغم من عدم رؤيتها بالعين . ثم الأشعة فوق البنفسجية والأشعة تحت الحمراء . . . وإن التيار الكهربائي نفسه لا يُرى في السلك الناقل ، إنما نرى آثاره من برودة في الثلاجة وحرارة في المكواة ونور في المصباح . . إلخ . ثم الأمواج « الكهرطيسية » الموجودة في الفضاء ، تحمل الأصوات من بلد لآخر فتلتقطها أجهزة المذياع (الراديو) وأجهزة اللاسلكي كما تحمل الأصوات والصور فتلتقطها أجهزة الرائي (التلفزيون)، **إن هذه الموجودات (الأشعة غير المرئية بأنواعها والأمواج الكهرطيسية) قد**

---

(١) ولا يغيب عنك أن الناس قبل تطور العلم قد عرفوا وجود مالا يرى بآثاره : كالهواء والمغناطيس والعقل والروح.

تعرفها الإنسان في العصر الحديث من آثارها . فهل كانت معدومة قبل أن يعرفها الإنسان؟ وهل يكون الإنسان القديم مصيباً لو أنكر وجودها لأنه لم يبصرها بأم عينه ، مع توفرها في أرجاء الكون من غابر الأزمان؟ وهل يسوغ للإنسان المعاصر أن يجحد وجود كل مالم ير؟ أو أن يجحد كل مالم يتعرفه بآثاره؟؟ وهل وصل العلم ذروته وأحاط أهلوه بكل موجود علماً؟ ألم يبلغك أن العلم توصل إلى معرفة اليسير من شؤون الكون وعجز عن إدراك الكثير ؟ ! هذا ما قرره رجاله المختصون .

إن الإنسان الذي عرف تلك الحقائق في الكون وانتفع منها ينبغي أن يكون أكثر تفهماً وتقبلاً لحادثة الوحي ، وأقوى إيماناً برسالات الرسل وبالملائكة الذين يبلغونهم رسالات ربهم ، وهم مخلوقات نورانية . فالعلم جعله يوقن بوجود مالا يرى من أشعة وجدها الإنسان في الطبيعة ثم جعل يصنعها ويستخدمها ، ومن أمواج « كهرطيسية » انتفع منها في تقريب البعيد بالمناجاة أو المشاهدة أو بكليهما معاً ، بوساطة ـ أجهزة ـ صغيرة شائعة الانتشار فيستمع بها ما يبثه إليه المذيع من آلاف الأميال من قصص وحوادث وأخبار . . وهذا الرائي المزود بالبطارية أعان المرء في كل بقعة على أن يرى ويسمع من يتحدث إليه من شاسع البعاد .

فإذا بلغ الإنسان ذلك ، فإن الله خالق الإنسان الذي منحه العقل والقوة والبيان ، وفاطر الأكوان المتصرف فيها بما يشاء، وله القوة المسيطرة جميعاً والعلم المحيط، وبيده ملكوت كل شيء قادر ـ بكل يقين ـ على أن يوصل العلم والحق بوسيلة لا تُرى بالأعين إلى بعض خلقه وهم الرسل . ومن رأى هذا مستحيلاً أو عسيراً على الخالق ـ تعالى عما يصفون ـ فقد أهدر عقله وأضاع رشده ، إذ لم يقدر البون الشاسع بين ضعف المخلوق وجهله قوة الخالق وسعة علمه ، ومَنْ عجز عن إدراك هذا الفرق فقد عجز عن الحفاظ على إنسانيته .

ونحن نرى أن القرآن قد أورد في إمكان الوحي استدلالاً بغير المنظور قال تعالـى : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1] .

بيان القرآن أصناف الوحي

لا ريب أن الأفضل أن نعود إلى القرآن نفسه ، فإنه وإن حصرها في أصناف ثلاثة ؛ فإنها تشمل جميع صور الوحي التي أَسماها العلماء كيفيات أو مراتب[2] . فعزمت على سرد أَصناف الوحي حسب الدلالة القرآنية وإحكام بيانها بالأحاديث النبوية : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴾[3] .

الصنف الأول : أن يُلقي الله المعنى في قلب النبي مباشرة ، ويكون ذلك في اليقظة أو المنام . وأشار إليه قوله تعالى (إلا وحياً) .

أولاً ـ إلقاء الله معنى في قلب النبي يقظة[4] ويتم ذلك من غير وساطة ملك ، مع خلق علم ضروري عند النبي بأن هذا المعنى قد قذفه الله قطعاً ، فهو نور ينبلج في القلب فلا يندفع ولايحتمل الشك أو التأويل .

ثانياً ـ إلقاء الله معنى في قلب الرسول مناماً ، كما حكى القرآن على

---

(١) سورة الحاقة : ٣٨ ـ ٤٣ وانظر روح المعاني جـ ٢٩ ص ٥٢ ـ ٥٣ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٨ ص ٢٧٤ .

(٢) انظر الإتقان جـ ١ ص ٤٤ ، وشرح المواهب للزرقاني جـ ١ ص ٢٦٨ المطبعة الأميرية.

(٣) سورة الشورى : ٥١ .

(٤) روح المعاني جـ ٢٧ ص ٥٠ .

لسان إبراهيم : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ . . ﴾[1] .
وحصل لسيدنا رسول الله ﷺ أول عهده بالوحي ، ثم حصل في مناسبات سجل القرآن بعضها ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴾[2] .

وإنما كانت الرؤيا وحياً وجزءاً من النبوة باعتبار ما يقترن بها من التيقن بأنها من عند الله تعالى . وإن الوحي إلى النبي بالرؤيا أول أمره هو إعداد نفسي وروحي للوحي الصريح إليه يقظة ، وليس تمهيداً فكرياً إعلامياً ، لذا فوجىء الرسول بالملك بحراء إذْ لم يرتقب لقاءه سابقاً . وفي الصحيح عن عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحي ، وقرأ : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾[3] .

الصنف الثاني : وأشار إليه قوله تعالى : ﴿ أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ وقد حصل لسيدنا موسى عليه السلام إذ كلم الله موسى بلا وساطة فلم يره موسى . قال تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[4] .

الصنف الثالث : أن يرسل الله ملك الوحي جبريل عليه السلام إلى النبي عليه السلام ، فيوحي إليه ما أمره أن يوحيه ، ويحصل له علم ضروري بأنه ملك الوحي يبلغه عن الله تعالى . وقد أشار إليه بقوله : ﴿ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ ﴾ وقد حصل هذا لسيدنا محمد ﷺ ولجميع الرسل من قبله . قال تعالى : ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا

---

(١) سورة الصافات : ١٠٢ .
(٢) سورة الفتح : ٢٧ .
(٣) انظر شرح المواهب اللدنية للزرقاني جـ ١ ص ٢٢٥ طبع المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٥ .
(٤) سورة النساء : ١٦٤ .

﴿ لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

اتصال جبريل بالرسول الكريم :

لعلك تسأل : بأي أصناف الوحي نزل القرآن على رسول الله ﷺ ؟؟

إن نزول القرآن ينحصر في الصنف الثالث من الوحي ، والصحيح المعتمد يقيناً لدى العلماء أن القرآن أنزله الله بوساطة ملك الوحي على محمد ﷺ في اليقظة فحسب[2] . قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[3] . واذكر معارضة جبريل للرسول بالقرآن في كل رمضان مرة ، وفي آخر رمضان من عمره مرتين[4] .

وأطلق عليه اسم روح القدس والروح الأمين ، لأنَّه كان يتنزل بما يحيي موات القلوب ، فهو مثل الروح . ويرى الرازي أن إضافة (روح) إلى (القدس) في الآية لأنه مجبول على الطهارة والنزاهة من العيوب ، وروحانيته أتم وأكمل من سائر الملائكة يعني أنهم جميعاً : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[5] فخُصَّ دونهم جبريل بهذه الإضافة : « روح القدس » .

ويرى الراغب الأصفهاني : أنه خُص بذلك لاختصاصه بالنزول

---

(١) سورة البقرة : ٩٧ .

(٢) شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٧٢ الطبعة الأميرية ، وانظر رسالة العقد المنتظم في أقسام الوحي المعظم ص ١٢ . طبعة عيسى البابي الحلبي .

(٣) سورة الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥ .

(٤) انظر صحيح البخاري ـ كتاب فضائل القرآن : ٣/ ٢٢٧ ، والخلق ـ باب ذكر الملائكة ؛ ٢/ ٢١٣ . ط عيسى الحلبي بمصر .

(٥) سورة التحريم : ٦ .

بالقدس من الله . أي بالنزول بما يطهر به نفوسنا من القرآن والحكمة والفيض الإلهي .

وهذا عندنا أرجح لتعلقه بأمر ظاهر في مهمته ، فإن مدار تلقيبه بـ (الروح) مستند إلى مهمته . والتأويل بالاستناد إليها أنسب منه مستنداً إلى صفة قائمة في الملك « كالطهارة » فإنها صفة مشتركة بين جميع الملائكة وإن تفاوتت بينهم فيها .

وكان اتصال جبريل برسول الله ﷺ بأساليب متعددة :

أولاً - ظهر جبريل بصورته الملكية الحقيقية . وكان ذلك مرتين فحسب كما في صحيح مسلم وجامع الترمذي عن عائشة رضي الله عنها[١] .

ثانياً - أن الوحي كان يأتيه أحياناً من الملك صوتاً مجرداً قوياً مجلجلاً أشبه قوة بصلصلة الجرس ، يقرع سمعه فلا يبقى فيه مجال لغيره . وعبر الرسول ﷺ عن هذا ، لما سأله الحارث بن هشام : كيف يأتيك الوحي! فقال عليه السلام : (أحياناً يأتيني مثلَ صَلْصَلةِ الجَرَسِ وهو أشدُّهُ عليَّ فيفصمُ عني وقد وعيتُ عنه ما قال)[٢] .

ثالثاً - أن يشخص المَلَكُ أمامَ الرسول بهيئة رجلٍ عادي وإنما يظهر الملك بصورة بشرية تأنيساً لمن يخاطبه من الأنبياء . وقد أخبر الرسول عن هذا في جوابه للحارث :

(وأحياناً يتمثل لي رجلاً فيكلمني فأعيْ مايقول)[٣] . وقد جاءه مرة بصورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر - كما سيمر معنا - وقد

---

(١) انظر فتح الباري جـ ١ ص ١٨ وشرح المواهب اللدنية للزرقاني جـ ١ ص ٢٣٧ المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٢٥ .

(٢) سيمر بك الحديث تاماً عما قليل.

(٣) سيمر بك الحديث تاماً عما قليل.

روى النسائي بسند صحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن جبريل كان يأتي رسول الله ﷺ في صورة دِحْية الكلبي . وكان دِحيةُ يضرب به المثل في حسن الصورة[1] .

رابعاً ـ وأحياناً يلقي الملك في فؤاد الرسول وعقله معنى خاصاً من غير أن يراه الرسول أو يسمعه . قال ﷺ : (إن روحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوْعي أنه لنْ تموتَ نفس حتى تستكمل رزقَها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب . ولا يَحْتَمِلَنَّ أحدكم استبطاءُ الرزقِ أنْ يطلبَهُ بمعصيةِ الله ، فإن الله تعالى لا يُنالُ ما عنده إلا بطاعته) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب القناعة والحاكم وصححه من حديث ابن مسعود من طرق[2] .

حقائق وحـي الله

شهد الصحابة رضي الله عنهم إمام المرسلين وهو يوحى إليه ، وحدثهم ﷺ عن بدء الوحي وأحواله ، فاستبانت من خلال ذلك كله خصائص الوحي ، واستقر في أفئدتهم علم اليقين بأن هذا وحي الله العظيم إلى نبيه الكريم محمد ﷺ ، فإنه خارج عن دائرة إمكاناته ومعارفه ، بل هو مأمور خاضع لا يملك من أمر الوحي شيئاً . ولا سبيل له إلى اجتلابه ولا إلى دفعه ، ولكن للوحي الإلهي سيطرة وهيمنة على النبي الكريم ، يشهد الناظر آثارها عليه في أثناء نزول الوحي إليه ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[3] .

---

(١) انظر ترجمة دحية في الإصابة لابن حجر.

(٢) معنى (نفث في روعي) (بضم الراء) ألقى في قلبي أو عقلي. (أجملوا في الطلب) اطلبوا الرزق من الطرق الحلال من غير تهافت وتكالب على الحرام.
انظر فتح الباري جـ ١ ص ١٥ وما بعدها. وانظر شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٢٥ وما بعدها وروح المعاني جـ ٢٧ ص ٥٠ وما بعدها.

(٣) سورة النمل : ٦.

ولا سبيل للباحث إلى معرفة خصائص الوحي وإثبات ربانية مصدره إلا بالنظر المتأمل المستنبط في حقائق الوحي، فلا بد لنا من سرد أهم الأحاديث التي وردت في وصف مظاهر الوحي وتحديد سماته .

وإليك طائفة من الأحاديث تكشف لك عن وقوع الوحي حقيقة لسيدنا محمد ﷺ وتصف مظاهره :

روى البخاري في أول صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت : « أول مابدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[١] ، ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث[٢] فيه ـ وهو التعبُّدُ الليالي ذوات العدد ـ قبل أن ينزع[٣] إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق[٤] وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ .

قال : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد[٥] ثم أرسلني فقال : اقرأ .

فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ .

---

(١) (جاءت مثل فلق الصبح) : ظهرت مطابقتها للواقع كظهور ضياء الصبح لناظره.

(٢) (يتحنث) يتعبد. وفي الأصل يتحنث فلان : يفعل فعلاً يخرج به الحنث وهو الإثم ـ كما في النهاية لابن الأثير ـ.

(٣) (ينزع) : يرجع.

(٤) (جاءه الحق) الأمر الحق وهو مجيء الملك بالوحي، وسمي حقاً لأنه من الله تعالى.

(٥) (غطني) : ضمَّني وعصرني. وأصل الغط حبس النفس، ومنه غطه في الماء (حتى بلغ مني الجهد) حتى بلغ الغط مني غاية وسعي.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .

فقال : زملوني زملوني .

فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع[١] .

فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيتُ على نفسي[٢] .

فقالت خديجة : كلا والله مايُخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتُعين على نوائب الحق[٣] .

فانطلقت به خديجة حتى أتتْ ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة .

وكان امرأ تنصَّر[٤] في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي .

فقالت له خديجة : يا بن عم اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا بن أخي ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى .

---

(١) (زملوه) : لفوه. (الروع) : الفزع.

(٢) (لقد خشيت على نفسي) أي خشيت المرض أو الموت لشدة ما أصابني من الرعب.

(٣) (الكل) : العاجز أو الذي لا يستقل بأمره.
(تكسب المعدوم) تعطي الفقير المعدم مالا يجده عند غيرك.

(٤) (تنصر) صار نصرانياً. فإن ورقة لما كره عبادة الأوثان خرج إلى الشام يسأل عن الدين فاعتنق النصرانية ، وتعلم اللغة العبرية.

فقال له ورقة : هذا الناموس[١] الذي نزَّل الله على موسى . ياليتني فيها جذَعاً[٢] ، ليتني أكون حياً إذْ يخرجك قومك !!

فقال رسول الله ﷺ : أومُخرجيَّ هم؟؟

قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . وإنْ يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[٣] .

ثم لم يَـنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوفي وَفَـتَر الوحي[٤] .

وروى البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ : (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ماقال . وأحياناً يتمثلُ لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول) .

قالت عائشة : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه لَيتفصَّدُ عرقاً)[٥] .

وروى البخاري أيضاً عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال وهو يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : (بينا أنا أمشي إذ سمعت

---

(١) (هذا الناموس) وهو في الأصل صاحب السر. وأراد به ملك الوحي جبريل عليه السلام الذي يوصل الوحي سراً إلى الأنبياء.

(٢) (يا ليتني فيها جذعاً) يا ليتني أعود في أيام دعوتك شاباً.

(٣) (نصراً مؤزراً) : نصراً قوياً.

(٤) (لم ينشب) لم يلبث أو لم يتعلق ورقة بشيء من الأمور حتى مات (فتر الوحي) : تأخر مدة من الزمان. والحكمة في ذلك أن يذهب عن النبي ﷺ ما أصابه من الفزع ويحصل له التشوف والتلهف إلى عوده.

(٥) رواه البخاري في باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ورواه مسلم في صحيحه ومالك في الموطأ. ومعنى (صلصلة الجرس) الصلصلة في الأصل : صوت وقوع الشيء.

صوتاً من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض . فرُعبتُ منه ، فرجعتُ فقلت زملوني ؛ زملوني! فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ ﴾ . فحمي الوحيُ وتتابع)[1] .

مشهد رسول الله ﷺ وهو يوحى إليه

ولقد شهد أصحاب الرسول ﷺ ما يعتريه حين ينزل عليه الوحي .

روى البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴾ قالا: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه[2] فقال ابن عباس فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله يحركهما .

وقال سعيد : أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما ، فحرك

---

(١) صحيح البخاري : باب كيف كان بدء الوحي. والآيات النازلة هنا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴾ ومعنى المدثر : المغطى بثيابه ويراد به النبي نفسه. (قم فأنذر) حذر من العذاب من لم يؤمن بك. (وربك فكبر) عظم ربك. (وثيابك فطهر) كناية عن تطهير النفس من الشوائب باجتناب النقائص .
(والرجز فاهجر) الرجز : العذاب. أمره بترك كل ما يسبب العذاب من الآثام ورأسها عبادة الأوثان.
وقوله : (فحمي الوحي وتتابع) أي جاء كثيراً. وفيه مطابقة لتعبيره عن تأخره بالفتور. (في حديث عائشة الأول).
ـ انظر في مفردات الأحاديث : فتح الباري جـ ١ ص ١٥ وما بعدها ـ ط. الخشاب.
وانظر النهاية لابن الأثير.

(٢) يعني أنه كان يحرك شفتيه مع لسانه. وانظر سورة القيامة : ١٦ ـ ١٩ .

شفتيه فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ قال : جمعه لك في صدرك وتقرأه . ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ . قال : فاستمع له وأنصت . ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ ثم إن علينا أن تقرأه . فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه[١] .

وهذا رجل يستفتي رسول الله في حكم التطيب للمحرم بعُمرة ، فلا يملك النبي له جواباً حتى جاءه الوحي فاحمر وجهه وخاض في غطيط :

روى البخاري[٢] أن يعلى قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما : أرني النبي ﷺ حين يوحى إليه . قال: فبينما النبي ﷺ بالجعرانة ومعه نفر من أصحابه جاءه رجل فقال : يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب ؟ فسكت النبي ﷺ ساعة فجاءه الوحي فأشار عمر رضي الله عنه إلى يعلى . فجاء يعلى وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أُظل به ، فأدخل رأسه ، فإذا رسول الله ﷺ محمرُّ الوجه وهو يغطُّ ثم سُرِّيَ عنه . فقال : أين الذي سأل عن العُمرة ؟ فأُتيَ برجل . فقال اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات ، وانزعْ عنك الجبة واصنعْ في عُمرتك كما تصنعُ في حجتك[٣] .

وهاهم أولاء أصحاب الرسول ﷺ يشهدون محاورته رجلاً لا يعرفونه فليس من أهل المدينة ، ولا يرون عليه أثراً من السفر كاغبرار الثوب أو الشعر ، فلا يبدو أنه غريب ليسألوه عن قومه وموطنه .

---

(١) باب كيف كان بدء الوحي برسول الله ﷺ من صحيح البخاري.

(٢) كتاب الحج. باب غسل الخلوق من الثياب. ورواه مسلم ـ كتاب الحج ـ باب ما يباح للمحرم بحج أو بعمرة والنسائي ـ كتاب الحج ـ باب الخلوق للمحرم.

(٣) قوله. (يغط) الغطيط صوت النفس المتردد من النائم أو المغمى وقوله : (سري عنه) : زال عنه ما اعتراه تدريجياً.

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذْ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لايُرى عليه أثرُ السفر ولا يعرفه منّا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه على ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه .

وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام؟

فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً .

قال : صدقت .

فعجبنا له يسأله ويصدقه ! !

قال : فأخبرني عن الإيمان؟

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال: صدقت . *قال* : فأخبرني عن الإحسان ؟

قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك .

قال : فأخبرني عن الساعة؟

قال : ماالمسؤولُ عنها بأعلمَ من السائل . .

قال : فأخبرني عن أماراتها ؟

قال : أن تَلدَ الأَمَـةُ ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان .

ثم انطلق . فلبث ملياً .

ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟

قلتُ : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنه جبريل أتاكم يُعلمُكم دينكم[1] .

معاناة الرسول شدة في أثناء تنزل الوحي

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴾[2] .

ذهب الحسن وقتادة إلى أن المراد أن العمل به ثقيل ، وقيل ثقيل وقت نزوله من عظمته ، واستدل ابن كثير للقول الثاني بأحاديث كثيرة ، سنورد

---

(١) قوله (فأسند ركبتيه إلى ركبتيه) أي جلس أمام الرسول وركبتاه أمام ركبتيه (ووضع كفيه على فخذيه) أن الرجل جلس جلسة المتأدب المستفهم ، فوضع كفيه على فخذي نفسه كما هو مألوف في طلاب العلم.
(أخبرني عن أماراتها) عن علاماتها الدالة على قرب وقوعها.
(أن تلد الأمة ربتها) : للعلماء في المراد منه أقوال كثيرة ، أشهرها كما ذكره ابن الأثير : «هي الأمة تلد للرجل ، فيكون ابنها مولى لها ، وكذلك ابنتها ، لأنها في الحسب كأبيها.
والمراد أن السبي يكثر ، والنعمة تفشو في الناس وتظهر». ويبدو لنا أنه انقلاب المفاهيم والقيم ، حتى تتطاول الفتاة على والدها؛ والخادمة ونحوها على سيدتها ، وهكذا. . .
(وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان) فالعالة : جمع عائل ، وهم الفقراء. والرعاء : جمع راع ، وهم الرعاة. الشاء : جمع شياه. والمعنى أن أهل البادية ومن على شاكلتهم من الأجلاف والهمج ـ ويغلب عليهم الفقر عادة ـ ستبسط لهم الدنيا فيتنافسون على مراتبها ويترقون في البنيان متباهين . (ملياً) : طائفة من الزمان طويلة.

(٢) سورة المزمل : ١ ـ ٥.

بعضها قريباً . وذكر الرازي في المراد عشرة أقوال اختار منها : كونه عظيم القدر جليل الخطر .

وقد أحسن ابن جرير الطبري بالجمع بين القولين الأَولين إذْ قال : (وأولى الأَقوال بالصواب في ذلك أن يقال : إن الله وصفه بأنه قول ثقيل ، فهو كما وصفه به ثقيل محمله ثقيل العمل بحدوده وفرائضه)[1] .

منذ الجولة الأولى للوحي قاسى الرسول ﷺ شدة، وبذل في تحمله غاية ما في الوسع من جهد . بل إنه في هذه الجولة عانى منه هلعاً ارتج له فؤاده حتى خشي على نفسه .

لقد ورد في حديث عائشة رضي الله عنها (. . حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال ما أنا بقارىء . قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده . . فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . . .[2] .

وما أكثره هولاً وأفزعه منظراً أن يسمع الإنسان صوتاً من جهة السماء فينظر فيها شخصاً جالساً على كرسي معلق في الفضاء بين السماء والأرض .

وبصورة عامة فإن الرسول ﷺ كان يعالج من التنزيل شدة ـ كما قال

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٩ ص ٢٩ مطبع المنار سنة ١٣٤٧ هـ. ومفاتيح الغيب ج ـ ٨ ص ٢٥١ ـ ٢٥٣ وجامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ للطبري ج ٢٩ ص ١٢٧ ـ ١٢٨ وانظر البحر المحيط جـ ٨ ص ٣٦٢.

(٢) انظر الحديثين السابقين : ص ١٠٨ ـ ١١٠ .

ابن عباس ـ[1] وأبلغ أنواعه شدة وتأثيراً مجيئه إليه بصوت صادر عن الملك أشبه بصلصلة الجرس (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ فيفصمُ عني وقد وعيتُ عنه ما قال) .

فيفهم من هذا الحديث أن الوحي كله شديد الوَقْع على رسول الله ﷺ وأن تنزله بهذه الصفة أشد من غيرها . ولكن ماسبب هذه الشدة؟ لا ريب أن الفهم من كلام مثل صلصلة الجرس أعسر من فهم كلام الرجل في خطابه المعهود . . والسبب المؤدي للشدة والإرهاق ، أن التخاطب يتطلب تناسباً وتلاؤماً بين المتكلم والسامع . ولا يحصل هذا إلا بأحد أمرين :

إما أن يتصف النبي بوصف ملك الوحي باستثار الروحانية فيه وتقويتها وتغليبها على الأَوصاف الجسدية ، كما في حالة الاستماع لصوت الملك مباشرة حتى يقرب عند الرسول من صلصلة الجرس .

وإما أن يتصف المتكلم (ملك الوحي) بوصف النبي فتغلب عليه الأوصاف البشرية . (وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول) .

ولا جرم أن الحال الأولى كانت أشق على الرسول ﷺ ، وإذا كان الوحي كله شديداً عليه فإنه يستجمع قلبه فيكون أوعى لما سمع . وعلى كل فإن النبي ﷺ ينال ـ بتحمله هذه المشقة ـ زيادة الزلفى من الله ورفع الدرجات[2] .

لقد لمس الصحابة بأنفسهم مظاهر هذه الشدة وآثارها في رسول الله

---

(١) فتح الباري ج ١ ص١٦ وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ج١ ص٢٢٩ .

(٢) ولا شك أن البشر أضعف من أن يشاهد الملك على حقيقته إلا أن يقوي الله على ذلك بمدد خاص. وهذا ما حصل لسيدنا رسول الله. ومع ذلك فقد عانى لعدم الألفة ومغايرة الطبيعة ما عانى. راجع أصناف الوحي.

ﷺ ، قالت عائشة (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإنَّ جبينه لَيتفَصَّدُ عَرقاً)[١] وأطل يعلى رضي الله عنه لما ناداه عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وهو يوحى إليه فرآه محمر الوجه متتابع الأنفاس في غطيط أشبه بغفوة النائم[٢] .

وهذا رسول الله ﷺ تشهده عائشة ووالدها رضي الله عنهما وقد تنزل عليه الوحي في بيتها ، فأحر جسمه ، وتحدر العرقُ منه كحبات اللؤلؤ . قالت عائشة رضي الله عنها : (فو الله مارام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ماكان يأخذه من البُـرَحَاء ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ، وهو في يوم شاتٍ ؛ من ثقل القول الذي ينزل عليه)[٣] .

وإذا كان صوت الوحي قد طرق سمع رسول الله ﷺ قوياً كصلصلة الجرس يشغل أذنيه ويملأ أقطار نفسه ، فإنه قد طرق أسماع الصحابة حوله خافتاً غير مفهوم أشبه ما يكون بدويّ النحل . فاختلف تشبيه صوته بين الفريقين نظراً لاختلافه قوة وخفوتاً بينهما لتركز وجهته على الرسول دون الصحابة ، فوصفه كل كما سمع فلا تعارض بين الوصفين . عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يُسمع عند وجهه كدوي النحل فأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة ثم سُرِّيَ عنه فقرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ـ إلى عشر آيات منها من أولها وقال : من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة : ثم استقبل القبلة ، ورفع

---

(١) راجع ص ١٠٢ .

(٢) راجع ص ١٠٣ .

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير ـ سورة النور . ومعنى (رام) : فارق ، من (رام يريم ريماً) . (البرحاء) شدة الحمى . (الجمان) : اللؤلؤ ـ فتح الباري ج ٨ ص٣٣٦ .

يديه وقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تُهنا، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تُـؤثِرْ علينا ، اللهم أرْضنا وارْضَ عنا)[١] .

وتوجع زيد بن ثابت رضي الله عنه وبرَّح الألم فخذه حتى خاف عليها من ثقل فخذ رسول الله المستندة إليها حين نزل عليه الوحي . فقد أخرج البخاري (عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أنزل الله على رسوله وفخذه على فخذي فثقلت عليَّ حتى خِفْتُ أن تَرُضَّ فخذي)[٢] .

ويشهد الصحابة رسول الله ﷺ ممتطياً ناقته ، فينزل عليه الوحي وهو على ظهرها فتثقل وتهوي إلى الأرض تبرك عليها ، حتى يلتصق باطن عنقها بالأرض لقوة واكتمال بروكها . (قالت عائشة رضي الله عنها : وإن كان ليوحى إليه وهو على ناقته فتضرب جرانها من ثقل ما يوحى إليه)[٣] .

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم وصححه والترمذي والنسائي واللفظ للترمذي في كتاب التفسير ـ باب ومن سورة المؤمنين انظر فتح الباري : ١ : ١٥ وشرح المواهب للزرقاني : ١ : ٢٢٩ وجامع الأصول جـ ١٢ حديث ٨٨٠٧.

(٢) صحيح البخاري في تفسير سورة النساء. وانظر شرح المواهب للزرقاني : ١ : ٢٢٩.

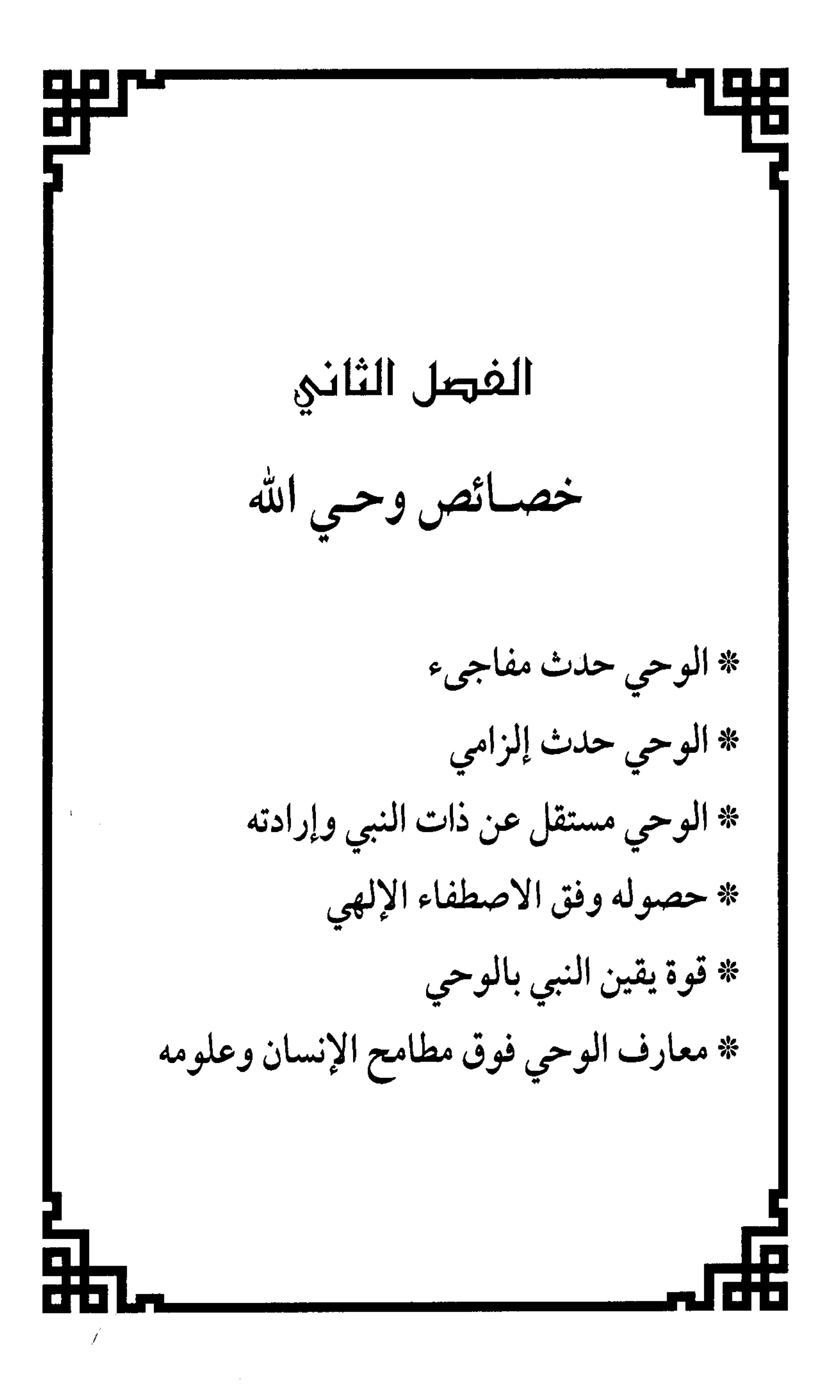
وقد ذكر أيضاً رواية الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه أخذته (حمى) شديدة ، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان ، ثم سري عنه. وكنت أكتب وهو يملي علي فما أفرغ حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل الوحي حتى أقول : لا أمشي على رجلي أبداً. ولما نزلت عليه سورة المائدة كادت أن ينكسر عضد ناقته من ثقل السورة) ورواه أحمد والبيهقي في الشعب.

أقول : يبدو أن هذه الرواية ضعيفة ، فقد أشار الهيتمي في مجمع الزوائد جـ ٧ ص ١٣ ونسبها لأحمد والطبراني ، وبين أن في سند الحديث شهر بن حوشب ، وهو ضعيف وقد وثق.

(٣) رواه أحمد جـ ٦ ص ٤٣٥ والبيهقي في الدلائل. انظر شرح المواهب ١ : ٢٢٩ وتفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٣٥ وفتح الباري جـ ١ ص ١٧. وقال الراغب في مفرداته : الجران : باطنُ العنق. وكذا في النهاية لابن الأثير.

إن ظواهر الوحي كما تحدث عنها النبي ﷺ وكما عاينها أصحابه لأدلة قاطعة تنفي التوهم بأن الوحي شيء متكلف مصنوع أو أنه أمر تحضيري يُستجمع له الفكر والروية ، بل تثبت هذه الظواهر يقيناً أن الوحي إلى محمد ﷺ أمر سوي لا اعتلال معه، إلزامي لا اختيار له فيه ، وأنه تلقين من الله العزيز الحكيم بقوة وقدرة ؛ وهيمنة وسيطرة ؛ وحكمة ورحمة .

* * *



الفصل الثاني

خصائص وحي الله

* الوحي حدث مفاجىء
* الوحي حدث إلزامي
* الوحي مستقل عن ذات النبي وإرادته
* حصوله وفق الاصطفاء الإلهي
* قوة يقين النبي بالوحي
* معارف الوحي فوق مطامح الإنسان وعلومه

خصائص الوحي

ومن حنايا القرآن الحكيم وأحاديث النبي الكريم أستخلصُ أهمَّ خصائص الوحي المميزة :

١ ـ الوحي حدث مفاجىء :

إنه حدث تلقائي فجائي طرأ على حياة من اصطفاه الله للرسالة أو النبوة دون سابق توقع أو تطلع ، فهذا محمد ﷺ في عزلته عن العالم فاجأه ملك الوحي في غار حراء، وأخذ يعتصره بقوة حتى أجهده وأضناه . فعل ذلك به ثلاثاً حتى ارتجف فؤاده وخاف على نفسه ، فانطلق لتوه إلى زوجه خديجة مرتاعاً ، فلما سكن ، أخبرها الخبرَ مستغرباً وجلاً ، ثم انطلق معها ليستفسر عنه ويتعرف منه[1] .

وبينما كان ﷺ ماشياً طرق سمعه صوت من السماء فرفع بصره إليه فشاهد جبريل جالساً على كرسي بين السماء والأرض ، ففزع منه ورجع إلى بيته يتزمل ثانية . **لكن ملك الوحي لم يدعه يركن إلى التزمل والتدثر ، فها هو ذا يستنهضه مرة إثر أخرى** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . . . ﴾[2] . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . . . ﴾ هذا

---

(١) راجع الحديث ص ١٠٨ ـ ١١٠ .

(٢) سورة المدثر أسبق نزولاً من المزمل. انظر ابن كثير جـ ٤ ص ٤٤٠ . وفتح الباري=

وغيره من صور الوحي أفاد أن الرسول لم يستشرف الوحي ولم يتأهب له ، بل لقد طرق الوحي حياة الرسول طروقاً مباغتاً لم يكن في حسبانه ، حتى كان يفاجئه ليلاً ونهاراً في سفرٍ أو حضرٍ راكباً أو جالساً .

٢ ـ الوحي حدث إلزامي :

إن مظاهر بادرة الوحي كما نص عليها الذكر الحكيم وتحدث عنها النبي الكريم وشاهد آثارها الصحب الكرام ؛ لتؤكد أنه أمر إلهي سَويّ نقي من أدنى شائبة للذات البشرية ، فهو إلزامي لا اختيار له فيه ، ولا سبيل إلى اجتلابه ولا إلى التخلص منه ، وإنه تلقين من الله العليم الحكيم ذي العزة والجلال ؛ بقوة وهيمنة وحكمة ورحمة . وإنك تستبين ذلك من ناحيتين :

أولاهما : الأعراض الجسدية : ولقد ينزل عليه الوحي فتعتريه أعراض الزامية كاحمرار الوجه وتتابع الأنفاس مع تحول الوعي عما حوله إلى ملك الوحي . وينجلي عنه الوحي في اليوم القارس البرد وأن العرق ليتقاطر غزيراً من جبينه[1] . وأن جسم رسول الله ﷺ ليثقل من شدة الوحي ، حتى تكاد فخذه ترض فخذ زيد دونها ، وحتى تثقل ناقته فتبرك على الأرض[2] وتزخر أذناه بأصوات حادة كصلصلة الجرس ، يجد الصحابة لها دوياً كدوي النحل [3] .

وواضح لكل ذي لب أن هذه الأعراض إلزامية مفاجئة فليس في طوق أحد من البشر افتعالها ، وأن مسببها ـ بلا مراء ـ ذات أخرى تغاير الذات المحمدية .

= ج ٨ ص ٥١١ وروح المعاني ج ٢٩ ص ١١٥ . وراجع الحديث : ص ١١٠ .

(١) راجع نص الحديث : ص ١١٠ وحديث عائشة : ص ١٠٨ .

(٢) راجع الأحاديث الثلاثة : ص ١١٠ ـ ١١٨ .

(٣) راجع نص حديث عمر: ص ١٠٦ .

ويزيد القضية جلاء أن هذه الأعراض غير إرادية ما كانت تعتري رسول الله قط إلا في المدة الوجيزة التي يتلقى فيها القرآن . فاقتران هذه الأعراض العضوية ببادرة الوحي برهان جلي على براءة ظاهرة الوحي من شوائب الذات الإنسانية الصحيحة أو العليلة .

ثانيتهما : الأحوال النفسية : لقد ألمَّ الخوف رسول الله ﷺ من ملك الوحي في تنزلاته الأولى حتى خشي على نفسه الهلاك . وكان الأمر مبهماً عليه حتى راح يستفسر عنه[١] ثم عرض له فأرعبه حتى لاذ منه بالفرار . والتجأ إلى التدثر والتزمل ليسكن فؤاده ويدفع عن نفسه مشاهدة الملك ووميض الوحي فلم يُجده ذلك شيئاً . فإذا بلغ الوحي أشده وقرع صليله مسامع الرسول اتجه وعيه كلية إلى ملك الوحي حتى يقضي مقالته[٢] .

فمحمد ﷺ أراد أن يتملص طواعية من ملك الوحي ، لكن سلطان وحي الله لم يترك له مناصاً من الإذعان والتلقي . إن مقاومته تلك[٣] تدل على التعارض بين وجهته التي اتخذها بدافع من سجيته الشخصية وحتمية النبوة التي طوقت إرادته وهيمنت على ذاته . وفي هذه القرائن دلائل قوية للنظرة الموضوعية في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

٣ ـ الوحي مستقل عن ذات النبي وإرادته :

يظهر لك من الخصيصتين السابقتين أن الوحي خارج عن ذات رسول الله ﷺ . فهو تلقائي فجائي إلزامي . والأعراض الجسدية والأحوال النفسية تفيد استقلاله عن إرادة النبي ﷺ وعجزه عن دفعه عن

---

(١) راجع الحديث : ١٠٨ ـ ١١٠ .
(٢) راجع الحديثين : ١١٦ .
(٣) وقد نسب الأستاذ الكبير مالك بن نبي هذه المقاومة إلى أنبياء آخرين أيضاً .

نفسه . وتفيد القرائن أيضاً عجزه عن استحضاره ، فإن الوحي قد انقطع بعد أن جاءه الملك في غار حراء أول مرة . فلما عرف النبي جلية الأمر أقضّ مضجعه فتورُ الوحي ، فقد خاف أن يكونُ حُرم نعمة النبوة ، فلما شاهد المَلك على كرسي بين السماء والأرض فزع إلى أهله يتدثر ويتزمل . . وفي فترة الوحي هذه حكم إلهية جليلة ، منها : أنه ﷺ لما فجأه ملك الوحي أول مرة في الغار هالـهُ لقاؤه ، ونفر منه طبعه البشري لمخالفته المألوف الإنساني ، ولم يتمكن بالتالي من التأمل في تلك الحال ، فجاءت فترة الوحي تعطي رسول الله فسحة لإنعام النظر واطمئناناً إلى تلقي الوحي وألفةً للملك عليه السلام ، فيذهب عنه الرَّوعُ ويحصل له التشوفُ إلى عودة الوحي . فالله تبارك وتعالى يعدّ الرسول ويقويه ويحوطه بعنايته الخاصة ليتحمل الوحي ، لكنه لا يسلخه عن طباعه البشرية .

ومن الحكم الإلهية أيضاً : أن هذه الفترة قد حملت الرسول على التعجب والتساؤل والبحث ، وانتشر الخبر بين طائفة يعز عندها محمد بن عبد الله ، فخلّف انقطاع الوحي يقيناً بأن هذه الظاهرة خارجة عن ذات النبي ، فصار مع من حوله متثبتين من إلهية ظاهرة الوحي (١).

وقد استبطأ رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام فحثه على الإكثار من زيارته ، فنزل الجواب آية من القرآن تبين أنه مأمور من الله تعالى وأن الله لا ينسى رسوله .

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله

---

(١) الظاهرة القرآنية ص ٩٦/ ٩٧ ـ طبعة ثانية ـ دار العروبة بالقاهرة. راجع حديث البخاري عن بدء الوحي في أول صحيحه وفي كتاب التعبير منه. وأما مدة فترة الوحي فقيل كانت سنتين ونصف سنة ، وقيل ثلاث سنوات وقيل أياماً وقد رجحه ابن حجر. انظر فتح الباري ج ـ ١ ص ٢١ وجـ ١٢ ص ٢٩١/ ٢٩٢.

لجبريل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت الآية: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[1].

وهناك آثار أخرى تفيد أن جبريل قد احتبس عن رسول الله ﷺ. ذكر بعضها ابن كثير[2]، وأنه ـ كما روى البخاري ـ طلب الوحي في بعض المسائل الملحة المهمة فمكث شهراً لا يأتيه فيها وحي[3]، وروى محمد بن إسحاق أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ليسألاهم عن محمد عليه الصلاة والسلام باعتبارهم أصحاب كتاب، فقالت لهما أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإنْ لمْ يفعل فالرجل متقول فَرَوْا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوَّل، ماكان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ماكان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فجاؤوا رسول الله ﷺ. فقال لهم: «أخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، قالوا: وعدنا محمد غداً. واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه. وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف؛ فيها معاتبة إياه على حزنه عليهم

---

(١) سورة مريم ٦٤ ـ والحديث في كتاب التفسير من صحيح البخاري.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٣٠.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة النور.

وخبر ماسألوه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح[1] .

ولقد كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه غرزياً في أثناء تلقي الوحي حرصاً على الدقة في استحفاظ القرآن ، فأتاه الأمر بالاستسلام الكامل للوحي قلباً وفكراً وجارحة ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾[2] . ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[3] .

وهكذا يجد الباحث أن الوحي كان ينقطع عن رسول الله ﷺ مع شدة طلبه وحرارة لهفته إليه ، وأنه فجائي إلزامي يأمره بالتسليم التام . ولهذا دلالة بليغة على أن حدوث الوحي مستقل عن تدخل ذات النبي وإرادته ، وأنه لا سبيل له إلى دفعه أو استحضاره ، وهذا مما يقوي اليقين بصدق صاحبه والاطمئنان إلى ربانية مصدره .

---

(١) وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث وهو متكىء على عسيب (غصن نخيل) إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح. فقال : ما رأيكم إليه؟ وقال بعضهم : لا يستقبلكم بشيء تكرهونه! فقالوا : سلوه. فسألوه عن الروح ، فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي قال : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، ويمكن التوفيق بين الروايتين بأنه قد تعدد النزول والنازل واحد. وأن يحمل سكوت النبي ﷺ في المرة الثانية بأنه قد يوقع مزيداً من البيان عن الروح. وعلى كل فإن فترة الوحي ههنا خمسة عشر يوماً عن الإجابة عن السؤالين الأولين لم تزل قائمة دون معارض. وبيت القصيد هنا الاستشهاد على خروج الوحي عن ذات وإرادة محمد ﷺ ، وهو موفور فيما ذكرنا وفي آثار آخرى لم نذكرها عزوفاً عن الإطالة ـ انظر صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الإسراء ـ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢٠ / ٣٣٢ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ وفتح الباري ج ٨ ص ٢٧٩ .

(٢) سورة القيامة : ١٦ .

(٣) سورة طه : ١١٤ .

حصول الوحي وفق الاصطفاء الإلهي :

اشرأبت أعناق المشركين إلى مقام النبوة بعد أن سمعوا آيات الله الباهرات ، ورأوا ما أجراه على يد محمد ﷺ من معجزات قاهرات . تملّك الحسد قلوبهم ، كيف تكون النبوة خاصة بمحمد وفيهم من الزعماء من تعظمهم قبائل العرب!؟

اندفع أكابر مجرمي مكة يطالبون أن ينزل الله عليهم الوحي كما أنزله على المرسلين ، فكشفوا عن عنادهم واستكبارهم عن الحق المبين . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾[1] بل بلغ بالقوم الحمق واللجاج بالباطل أن ابتغى كل منهم حصول الوحي له . كما أخبر الله عنهم ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾[2] فكبح الله جماح غرورهم ولجاجهم ، إذ أشار إلى عظم أمر النبوة وأنها تكون لصاحب الأهلية واللياقة للتلقي عن الله جل جلاله ، فلا قيمة للاعتبارات الاجتماعية والمالية والسياسية البشرية . . وإنما العبرة كل العبرة لنبل الخلق وشرف النفس وصفاء السريرة وطيب الطوية . . إلى جانب المواهب والكفايات المساعدة على تبليغ الرسالة وتحمل أعباء الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله والنهوض بتربية الأمة .

وهذا لا يعلمه علم اليقين إلا الله رب العالمين ، فهو يصطفي من يشاء ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ والنبوة رحمة إلهية للناس جميعاً . فلما قضت حكمة الله ظهورها في زمان ما . شرّف سبحانه بها حسب

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٤ .

(٢) سورة المدثر : ٥٢ .

مشيئته وحكمته من كان أهلاً لها ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1].

أما الذين اقترفوا بتجبرهم وتكبرهم جريمة الإعراض عن رسالة الله ، ودفعهم الغل والحسد إلى تنفير الناس من رسالة الله ، فسلكوا ذلك الأسلوب من المكر والخداع والمراوغة ، فإنهم لهذه الأوصاف الخسيسة ليسوا أهلاً للنبوة ، ولكنهم جديرون أن يجازوا على تجبرهم وتطاولهم وتعاليمهم بالضد ، بالذل والهوان والتحقير ، ويعاقبوا على مكرهم وكفرهم بالعذاب الأليم ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾[2] .

وتقلب مجرمو مكة بين أنواع الكفر ، ومن ذلك زعمهم أن أمر الوحي والنبوة إنما يليق برجل كثير المال عظيم الجاه من مكة أو الطائف . وروي أنهم قصدوا الوليد بن المغيرة من مكة وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف . وروي أن الوليد بن المغيرة كان يقول : لو كان ما يقول محمد حقاً لنزل عليّ أو على ابن مسعود ؛ يعني عروة الثقفي . فكشف الله زيف زعمهم بقوله :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[3] .

لقد ابتغوا أي زعيم كان من مكة أو الطائف كما يفيد ظاهر النص . وتعللوا بهذا العذر مراوغة منهم لدفع حجج النبوة القاطعة التي قامت

---

(١) سورة آل عمران : ٧٤.

(٢) مفاتيح الغيب جـ ١٣ ص ١٧٥/ ١٧٧ . والكشاف جـ ٢ ص ٥٠ وتفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٧٢/ ١٧٣ وروح المعاني جـ ٨ ص ١٧/ ٢٠.

(٣) سورة الزخرف ٣١/ ٣٢ ، وانظر تفسير ابن كثير ٧ ص ٢١٢/ ٢١٣ ط الشعب.

عليهم . وجهلوا أن رتبة النبوة إنما يمنحها الله أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً وأصلاً ، والعظيم عنده تعالى هو عظيم النفس بالترفع عن الرذائل الأرضية والزخارف الدنيوية وبالتحلي بكمالات الفضائل القدسية ، وأثار الله النكير على جهلهم والعجب الشديد من تحكمهم بالوحي بالقرآن العظيم لمن يريدون باستفهام إنكاري قوي ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ !!؟ ﴾ وقد أبطل الله شبهتهم فذكّرهم أنه تعالى قد فاوت بمشيئته وحكمته بين خلقه فيما أعطاهم من منافع الدنيا ومناصبها وأرزاقها ، وكذا في العقول والمواهب والإمكانات حتى صاروا يستعمل بعضهم بعضاً في مصالحهم لقاء أجور ومنافع فيتعايشون ويترافدون ، فلم يقدرْ أحد من الخلائق على تبديل هذه الطريقة . ولا ريب أن النبوة وما يتعلق بها من هداية وإيمان وسعادة في الدارين أسمى من منافع الدنيا وزخرفها ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ فالدنيا هينة على الله ، وقد جعل لمعيشتها طريقاً تعجز الخلائق عن تغييرها . وأمر الوحي والنبوة والرسالة عظيم عنده تبارك وتعالى ، إذ يجلّي به للإنسانية الحقائق الإلهية ويهديهم إلى الشرائع الربانية . فالوحي أجدر بأن يختار الله له داعياً من خيرة الأقوام ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[1] ، فكيف يجعل لأحد من خلقه أثراً في توجيه الوحي أو التحكم فيه !!؟؟

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾[2] .

---

(١) سورة الحج : ٧٥ وانظر روح المعاني جـ ١٧ ص ١٨٧/ ١٨٨ .

(٢) سورة النحل : ٢ . وقوله تعالى : ﴿بالروح﴾ : بالوحي ﴿على من يشاء من عباده﴾ : على الذين اصطفاهم الله لتلقي الوحي وهم الأنبياء والرسل «انظر للتوسع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧٤ . طبعة الشعب» .

ومن أكرمه الله بالجاه وسعة الرزق وغمره بألوان بره وجب عليه أن يكون أكثر انصياعاً لحكم الله واهتداءً بهدي رُسلِ الله وأبعدَ عن التحكم والعناد والعصيان .

تلكم آيات بينات ، أكدت أن الوحي أمر إلهي محض ، لا أثر لسعي المرء في كسبه أو دفعه ومن ثَمَّ فإن النبوة منحة إلهية إلزامية غير كسبية ، فلا ينالها الإنسان بالجهد الفكري أو الترقي الروحي والأخلاقي، ولا عبرة في حصولها للقيم الدنيوية والاعتبارات المادية ، فإن الله جلت عظمته قد اختص بالنبوة من شاء وفي الوقت الذي شاء حسب مشيئته وحكمته وعلمه ورحمته ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] .

٥ ـ قوة يقين النبي بالوحي :

يجب أن نضيف إلى معارفنا عن الوحي رأي الذات المحمدية نفسها فيه، ولابد لنا في سبيل ذلك من عودة الذاكرة إلى أوصاف هذه الذات، فإنها أخلاقية رفيعة ، تنعم بقدر عظيم من الفطانة ورجاحة العقل ، ذات منزهة عن الصغائر والسفاسف ، لاترقى إليها الظنون ، وقد سبق الحديث عنها. ثم لننظر علام استقر رأي هذه الذات. . ؟؟ وهل تمت قناعتها اعتباطاً أم باستخدام كامل الطاقة الفكرية. . ؟؟

انطلق فكر محمد ﷺ في دراسة بادرة الوحي إلى غايتها تدريجياً ، فروى بذلك نزوع عقله الراجح ، ولبَّى رغبته الملحة في الوصول إلى اليقين في هذه الظاهرة. لقد جاءه الملك في غار حراء فجأة يأمره بفعل

---

(١) سورة البقرة: ١٠٥ . وانظر مفاتيح الغيب للرازي ج٨ ص ٠١٢٢٠٩ /٢٠١ وروح المعاني ج ٢٥ ص ٧٢ ـ وتفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٢٦/ ١٢٧ .

مالا يقدر عليه (اقرأ) ثم هو يغطّه ويرسله!! أمر فجائي إلزامي خارج عن ذاته ، بعيد كل البعد عن سوانح فكره. راح بحال مضطربة فناجى خديجة بالذي جرى ، وعبر عن عمق تأثره بقوله «لقد خشيتُ على نفسي؟» أصدر قوله هذا بداهة ، فجاء إقراراً عفوياً دالاً على حقيقة أمره. حدث عجيب لم يعرفه ولم تعرفه خديجة أثار في نفسه التساؤل، فانطلق معها إلى ورقة.. ثم فتر الوحي.. ويلوح له الملك على كرسي بين السماء والأرض.. حدث لم يخطر من قبل بباله!! يفزع إلى التدثر والتزمل بعداً عنه فيوافيه على الرغم من إرادته.. أدّى كل ذلك إلى تنشئة يقينه بالوحي ونموه وتعاظمه. **وكانت كلُّ حالةٍ من أحوال الملكِ شاهداً جديداً على حقيقة الوحي واستقلاله عن ذاته. وشاهداً على صدوره عن الذاتِ الإلهية العلية. لقد استقر به مطاف التعجب والاستفسار إلى هذه القناعة الذاتية القاطعة والمعرفة اليقينية ، وتتوالى عليها الأيامُ وأحداثُ الوحي فما تزيدها إلا قوةً ورسوخاً.**

٦ ـ معارف الوحي فوق مطامح الذات الإنسانية وإمكانها :

في بيئة الجهالة القاتمة بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام، فجاء قومه بعقيدة وأحكام تنافي ما أقاموا عليه من وثنية وتقاليد عفنة نتنة، وقاوم عقائد القوم بحدة وصلابة حتى أزعجهم وأقلقهم. هذا نهج لا ينصرف إليه ذهن متزعم ، وإنما يجيء الوحي به إلى النبي ويأمره بالتزامه ، على الرغم مما يلقى من عنت القوم. عرف ورقة بن نوفل هذه الحقيقة قبل وقوعها فأعلم بها محمداً عليه الصلاة والسلام بقوله : «.. إذْ يخرجك قومك ، فقال : أوَ مُخْرِجيَّ هم!! قال : نعم! لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُوديَ..» وهاهم أولاء زعماء الشرك قد مشوا إلى أبي طالب عم رسول الله فقالوا : « يا أبا طالب إنَّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعابَ ديننا ، وسَفَّهَ أحلامنا ، وضلّل آباءنا ، فإما أنْ تكفه عنا وإما أن تُخلي بيننا

وبينه » وإذ لم يكف عن دعوته عادوا إلى أبي طالب يتذمرون ثانية حتى قالوا : « . . وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين . . »[1] .

فالوحيُ يُلقي إلى النبي ﷺ عقيدةً متميزةً ليناهض بها العقيدة الشعبية السائدة الراسخة، ويُغير القيمَ والمفاهيم ويَقلبَ الأوضاع. وهذا أمرٌ لا تستحسنه الذاتُ الإنسانية ولا تسعى إليه إنْ تعلقت بزعامةٍ أو حرصتْ على جاهٍ .

قال الأستاذ مالك بن نبي : «ويتميز النبي الموحى إليه عن منافسه المحترف ـ المزَوِّر ـ بمقاومته العنيفة ضد الأُلوهية القومية التي صارت لُبَّ العقيدة الشعبية ، فجميع الاتجاهات الخُلُقية للنبي الموحى إليه قائمة على أساس الفكرة المتسلطة الملازمة : فكرة إله واحد عام ، يريد النبي أن يثبت فرائضه الخاصة في شعائر قومه»[2] .

تنزل البيان القرآني في مكة المكرمة رائعاً جليلاً قوياً في حرب العقيدة الوثنية الشائعة في أرجاء الجزيرة العربية ، ودحض تحريف أهل الكتاب بنسبتهم الولد إلى الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وجَلَّت الآياتُ وحدانية الله وصفاته، وأثبتت الوحي إلى محمد رسول الله ﷺ وخضوعه لأمر الله ، فجاءت بياناً ربانياً سما على معهود الناس ومعتقداتهم في ذلك العصر ، فتأمل هذا النجم الرباني الزاهر من سورة الأنعام المكية :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ص ٢٧٧/٢٧٨ .
(٢) الظاهرة القرآنية ص ٧٩ .

صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾[١] .

وحمي الوحي وتتابع نزوله بالقرآن ، فتزاحمت في وعي الرسول الأمين حقائق إلهية ودينية وتاريخية وكونية واجتماعية لم يخط منها قبل شيئاً في لوحة إدراكه وذاكرته ، فكانت خارجة عن إطار ذاته بل عن معلومات عصره أيضاً . اشتمل القرآن على عقيدة الوحدانية الصحيحة ودلائلها ، وعلى أركان العقيدة الإسلامية العظيمة ، ثم على أحكام الشريعة الغراء ، وعلى حقائق من التاريخ ممحصة ، تصحح ما ورد في الكتب السماوية الأخرى من زيف وتشويه ، وعلى أخبار غيبية مستقبلية صدقتها وقائع الدهر ، وعلى وعود أنجزها الله لعباده المسلمين . . وغير ذلك من أوجه إعجاز القرآن الكريم[٢] . وكل ذلك أفكار منتظمة في أسلوب منطقي يسهل استيعابه . وإن دراسة هذه الأفكار وصلة بعضها ببعض ، ما تقدم في النزول منها وما تأخر ، لتبرهن على خروجها عن نطاق فعالية الذات المحمدية وعبقريتها . **وإن هذه المعلومات والأفكار والأحكام خارجة أيضاً عن حدود الفكر الإنساني عامة في العصر المحمدي ، بل يستحيل أن ينشئها أي فكر إنساني على مر الدهور ومر**

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٠/ ١٠٧ .

(٢) انظر أوجه إعجاز القرآن في كتابنا : «بينات المعجزة الخالدة».

العصور. ويكشف ذلك، دون أدنى ريب؛ عن صدورها عن قدرة إلهية خلاقة منظِّمة[1].

أخبـــار الغيب في القرآن والسنـــة :

تجد في القرآن الكريم والسنة من الغيب الماضي أخباراً عن تاريخ الخلق وتاريخ الرسل ومواقفهم، وعن أناس آخرين من أهل التقوى والصلاح مثل أهل الكهف، وعن آخرين من أهل الطغيان كفرعون وهامان وقارون وأصحاب الأُخدود.

وتجد من الغيب الحاضر أخباراً عن المنافقين تكشفهم وتميزهم . . كما تُعرّفك الآياتُ بأوصاف الملائكة المكرمين وأحوال أهل البرزخ . . وقد يرد ذلك الخبر الغيبي بقرآن أو سنة .

ومن أخبار الغيب الحاضر التي أوحى الله بها إلى رسوله ما كان في فتح مكة من مناجاة بين الأنصار . زعم فيها بعضهم لبعض سراً أن الرسول ﷺ ـ وقد دانت له بلده مكة واستسلم له قومه ـ سيقيم في وطنه وقومه ويترك المدينة، قالوا ذلك حرصاً عليه وحسرة لفراقه. فأوحى الله إليه وهو على الصفا وبدت عليه مظاهر الوحي فشهدها الصحابة. وإليك طرفاً من حديث الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه :

«فجاء أبو سفيان فقال : يا رسول الله! أبيحت خضراء قريش[2]. لا قريش بعد اليوم. ثم قال[3] : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» فقالت الأنصار، بعضهم لبعض : أمّا الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة

---

(١) قارن بالظاهرة القرآنية ص ٢١٣ .

(٢) (أبيحت خضراء قريش): استؤصلت جماعة قريش بالقتل وأفنيت.

(٣) (ثم قال) يعني رسول الله ﷺ .

بعشيرته[1] . قال أبو هريرة : وجاءَ الوحيُ ، وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا ، فإذا جاء فليس أحد يرفع طَرْفَهُ[2] إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي ، فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار » ! قالوا لبيك يا رسول الله ! قال : قلتم : أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ؟ قالوا : قد كان ذاك . قال : « كلا ! إني عبدُ الله ورسوله . هاجرتُ إلى الله وإليكم . والمحيا محياكم والممات مماتكم » فأقبلوا إليه يبكون ويقولون : والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنَّ بالله وبرسوله . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله ورسوله يُصدقانكم ويعذرانكم »[3] .

لقد كثرت الأخبار عن غيب المستقبل في القرآن والسنة ، وكشفت العصور المتتابعة عن تحققها جميعاً كما أخبر رب العالمين ورسوله الصادق الأمين ﷺ ، من ذلك الإخبار عن انتصار المسلمين وعزتهم مع قلتهم وضعف إمكاناتهم وعلى الرغم من كثرة وقوة عدوهم . . والإخبار عن انتشار الإسلام حتى يبلغ مشارق الأرض ومغاربها بعزِّ عزيزٍ أوْ بذُل ذليل . والإخبار عن عجز البشر الأبدي عن معارضة القرآن ، والإخبار عن تغلب الروم على الفرس بعد أن دحرهم في هزيمة ساحقة . والإخبار عن دخول المسلمين مكة المكرمة مهاجرين وأنصاراً . إلى أخبار كثيرة[4] .

كما وعد الله بحفظ كتابه المبين ونصر رسوله المبين وأصحابه الغر الميامين، وإذلال من أخرجوهم من وطنهم . . إلى وعودٍ كثيرة مطلقة ،

---

(١) ظنوا ذلك لأنه أمرهم بالكف عن دماء قريش .

(٢) (يرفع طرفه إلى رسول الله) : يرفع بصره إليه.

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب فتح مكة ـ حديث ١٧٨٠ جـ ٣ ص ١٤٠٦ تحقيق فؤاد عبد الباقي . ورواه أبو داود في سننه ـ كتاب الخراج والإمارة ـ باب ما جاء في خبر مكة. وانظر جامع الأصول جـ ٨ ص ٣٦٧ ، ٣٦٩ وعيون الأثر جـ ٢ ص ١٧٣/ ١٧٥ .

(٤) انظر كتابنا « بينات المعجزة الخالدة » ص ٣٢١ ـ ٣٨٥ .

ووعود أخرى كثيرة مقيدة بشروط . لقد جاءت أحداثُ العصور بوقوع ما أنبأَ به رب العالمين وأخبر ، وبإنجاز ما وعد الله به وتعهد ، فقد صدق الله وعده ، وأعزَّ جندَهُ ونشر دينه وخذل أعداءه .

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [1] .

لقد طرأت معارف الوحي على رسول الله ﷺ ، إذْ لم تشغل فكر رسول الله ﷺ من قبل في قليل أو كثير . وجاءت متجاوزة نطاق بحوث الذات الإنسانية فصار مستحيلاً عدُّها من المعارف الشخصية في شيء . ووجب التسليم بأنها معارف إلهية تلقائية مطلقة لا يتوصل الفكر وحده إلى شيء حقيقي فيها . فجعلت بذلك ثقة النبي بها مطلقة ويقينه بربانيتها كاملاً . وقذفتْ في أفئدةِ العقلاء حوله يقيناً قاطعاً بصحةِ الدعوة وإلهيـة الرسالة .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [2] ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [3] .

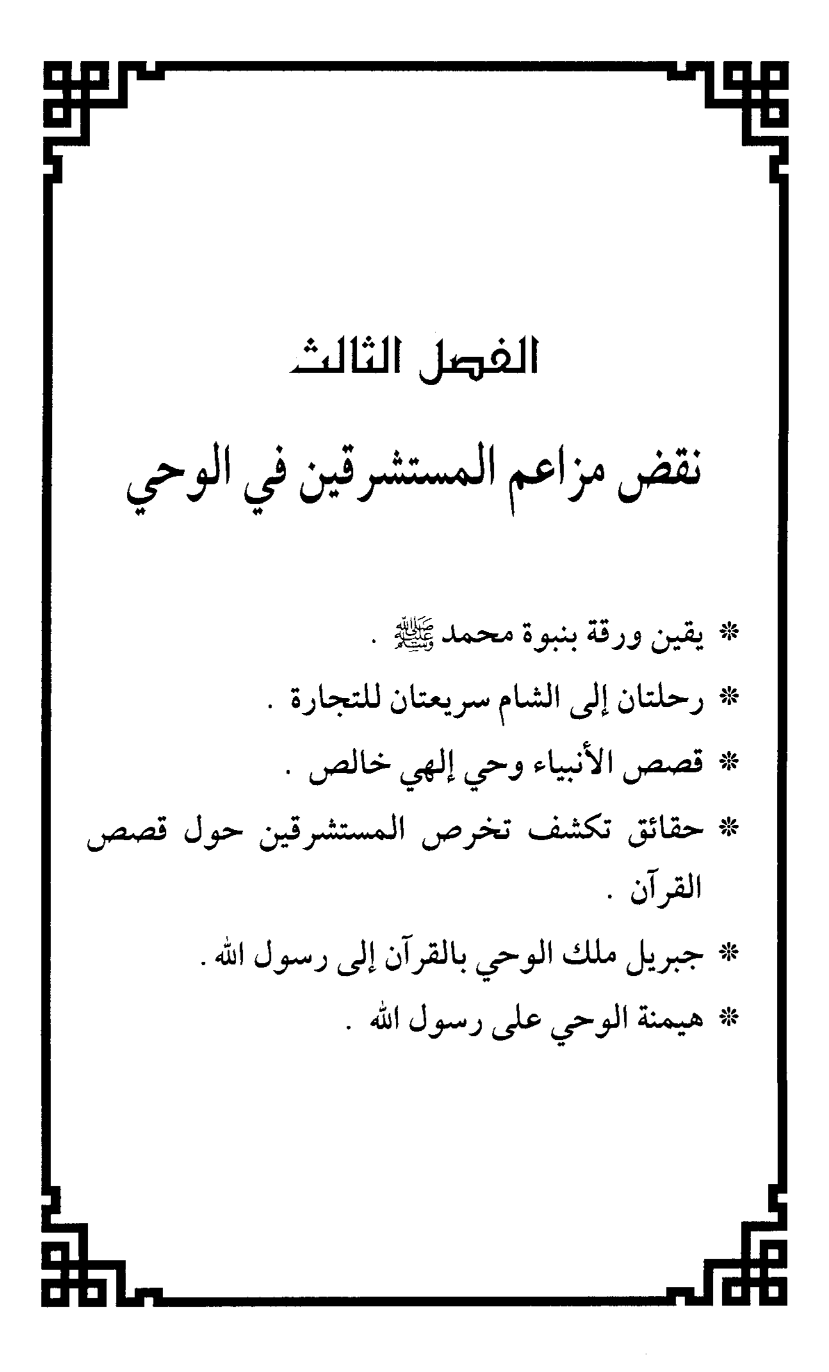
* * *

---

(١) سورة النساء ٨٧ وانظر المصدر السابق ٣٥٩ ـ ٣٦٦ .

(٢) سورة النساء : ١١٣ .

(٣) سورة النحل : ١٠٢ .



الفصل الثالث

نقض مزاعم المستشرقين في الوحي

* يقين ورقة بنبوة محمد ﷺ .
* رحلتان إلى الشام سريعتان للتجارة .
* قصص الأنبياء وحي إلهي خالص .
* حقائق تكشف تخرص المستشرقين حول قصص القرآن .
* جبريل ملك الوحي بالقرآن إلى رسول الله .
* هيمنة الوحي على رسول الله .


http://kotob.has.it

يقين ورقة بنبوة محمد ﷺ

دأب المستشرقون من عهد بعيد على اتهام سيدنا رسول الله ﷺ بالأخذ عن أشخاص من أهل زمانه ، فكان من ذلك زعمهم أنه تلقى عن ورقة بن نوفل ؛ ذهب إلى ذلك قديماً درمنغام وغيره . وذهب إليه حديثاً البرفسور (مونتكمري واط) فقال في أثناء حديثه عن زواج النبي من خديجة : « كما أن خديجة كانت ابنة عم رجل يدعى ورقة بن نوفل بن أسد ، وهو رجل متدين اعتنق أخيراً المسيحية . غالباً وبالتأكيد فإن خديجة قد وقعت تحت تأثيره ، ويمكن أن يكون محمد قد أخذ شيئاً من حماسة فكرته »(١) .

وقال : «ويبدو ورقة من بين الذين اتصل بهم محمد لسبب معرفته بكتب المسيحية المقدسة . ولا شك أن المقطع القرآني حين ردده محمد يجب أن يكون قد ذكره بما هو مدين به لورقة .

ومن المغري التفكير بأن هذا كان نتيجة لملاحظة ورقة بصدد الناموس ، ولكن هذا يتطلب تنزلات وحي سابقة على مقطع « اقرأ » ليغذي تلك الملاحظة .

ولهذا فمن السهل « الأيسر » الافتراض بأن محمداً كان قد عقد صلات متكررة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة . وقد تأثرت التعاليم

---

(١) MOHAMMAD AT MECCA. 39 .

الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة . وهذا ما يعود بنا إلى طرح مشكلة العلاقة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي السابق له »[1] .

وتحدثنا كتب الحديث الصحاح عن لقاءٍ تم بين محمد ﷺ وبين ورقة ، بعد أن بلغ من الكبر عتياً ، فعمي ، وذلك حين تنزل على محمد ملك الوحي في غار حراء . وقد حملت محمداً زوجه خديجة على لقيا ورقة ، ليستفسر عن حقيقة هذا الذي دخل عليه الغار بتلك الطريقة المهيبة : « فقالت له خديجة : يا بن عم اسمع من ابن أخيك ! فقال له ورقة : يا بن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل على موسى ، ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أوَ مُخْرجيَّ هم ! ؟ قال : نعم ! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُوديَ ، وإنْ يدركني يومُك أنصرْك نصراً مُؤزراً ، ثم لم يَلْبَثْ ورقةُ أن توفيَ ، وفَتَرَ الوحي»[2] .

ولا أحب الاقتصار على رواية أصح الكتب بعد القرآن ، وهو صحيح الإمام البخاري ، بل أسرد من المصادر التي يحتج بها المستشرقون عادة ، ومنهم « واط » وهي كتب التاريخ ، وفي مقدمتها : تاريخ الطبري .

ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في رواية في تاريخه أن خديجة طمأنت زوجها . . ثم قال : « فأتت خديجة ورقة بن نوفل فأخبرته الخبر ، فقال : لئن كنت صادقة ، إن زوجك لنبي ، ولَيلقينَّ من أمته

---

(١) MOHAMMAD AT MECCA. 52 .

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه . وقد ذكرناه قبل بتمامه ص١٠٨ ـ ١١٠وروى الطبري نحو هذه الرواية أيضاً في تاريخه ج٢ ص٢٩٨/ ٢٩٩ .

شدةً ، ولئن أدركتُـهُ لأومنَنَّ به »[1] .

وروى الطبري في رواية أخرى طويلة أن خديجة بعد أن طمأنت زوجها . . « انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد ـ وهو ابن عمها ، وكان ورقة قد تَنصَّر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ـ فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قدوس ، قدوس ! والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر ـ يعني بالناموس جبرئيل عليه السلام الذي كان يأتي موسى ـ وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ ، فأخبرته بقول ورقة ، فسهّل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم ، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره ، وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، وبدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل ، وهو يطوف بالبيت فقال : يا بن أخي ، أخبرني بما رأيت أو سمعت ، فأخبره رسول الله ﷺ . **فقال ورقة والذي نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى ، ولتُـكذبنَّـهْ ، ولتُؤْذَينَّهْ ، ولتُخرجنهْ ، ولتُقاتَلنَّـهْ . ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرنّ الله نصراً يعلمه . ثم أدنى رأسه فقبّل يافوخه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله »**[2] .

« وقد زاده ذلك من قول ورقة ثباتاً ، وخفف عنه بعض ماكان فيه من الهم »[3] .

ونصتْ روايةُ ابن سعد أن خديجة ذهبتْ وحدها إلى ورقة بن نوفل ، فأعلن إيمانه ويقينه بأن هذا الحدث هو وحي الله ، وتعهد بنصرة الرسول

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٩٩ / ٣٠٠ .
(٢) وانظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٤/ ٣٥٧ .
(٣) تاريخ الرُّسل والملوك جـ ٢ ص٣٠١/ ٣٠٢ .

وتأييده . فلم يترك بذلك مجالاً لتوهم الأخذ عنه وليس امرؤٌ لديه علم بدين الله تعالى وهو على حافة القبر يستسيغ أن يكذب على الله في أقدس الأمور . . في وحي الله ورسالته . جاء في رواية ابن سعد :

ثم أتت ـ خديجة ـ ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك. فقال : إن يك صادقاً فهذا ناموسٌ مثل ناموس موسى ، فإنْ يُبعث وأنا حيٌّ فسأعزِّرُهُ ، وأنصره ، وأؤمن به»[1] .

الجمــع بين روايــات كتب الحـديث والسيرة :

أما اللقاء الذي تَمَّ بين سيدنا محمد ﷺ وورقة فإنه تم في زمن متأخر ؛ بعد مجيء ملك الوحي المرة الأولى ؛ واستشارته عجب الرسول واستفساره . هذا أمر أجمعتْ عليه جميع المصادر ، لكنها اختلفت في زيارة خديجة لورقة ، هل كانت وحدها أم بصحبة محمد بن عبد الله ﷺ؟

وأرى أن الجمع بين روايات السيرة ورواية الإمام البخاري يفيد أن خديجة ذهبت أول مرة وحدها ، لتسأل ورقة تأويل هذا الحدث . . ثم ذهبت أيضاً مع محمد ﷺ إلى ورقة وحضرت هذا اللقاء وشهدته . وإذا كانت رواية ابن سعد قد أوردت زيارة خديجة لورقة منفردة ؛ فإن رواية ابن إسحاق لم تنف هذا الحضور ولم تُثبته ، بينما جمعت رواية الإمام الطبري بين الزيارتين في سياق واحد . فكانت أوفى تعبيراً عن الحادثة .

ولا يغيب عن بالك أن خديجة هي المرأة الشهيرة بفطنتها ورزانتها ورجاحة عقلها .

طريقــة ورقـة في إعـلان يقينــه :

لقد استقصى المحدثون والمؤرخون كل ما عُرف عن ورقة بن نوفل ،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص١٩٥ ط . بيروت.

مما له سند صحيح وما ليس له سند صحيح ، فلم نعثر في رواياتهم على ما يشير إلى أنه كان داعية إلى النصرانية ، ورواية الإمام البخاري وهي أوثق رواية في أوثق مصدر تاريخي وكذا رواية ابن إسحاق لدى الطبري وابن هشام وغير ذلك من الروايات أفادت **أن نصرانية ورقة كانت قاصرة على نفسه ، ولم تكن لديه حماسة التعليم ولا القدرة عليه والتفرغ له ، وإلا لكان أنشأ مدرسةً لها سمعتها ومشكلاتها في الحياة الجاهلية الوثنية ، وما تخفى ولا تغيب أخبارها عن أحد أبداً ! !**

وها أنت ذا تجد أن ورقة يقف مستطلعاً نبأ ما حصل لمحمد ، ولم يكن ورقة يومها ولا قبلها معلماً ولا ملقناً ، ولو كان له بعض ذلك لأعلن ابتهاجه بأن غرسه قد أثمر . . ! ! لكنه أعلن أن وصف محمد ﷺ لملك الوحي مطابق لما عنده من صفات ملك الوحي الذي أنزله الله على موسى ، إذ قال له ورقة : « والذي نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى ، ولَتُكذبنَّهْ ، ولتُخرجنه ، ولتُقاتلنَّهْ ، ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرنَّ الله نصراً يعلمه . . » .

أعلن ورقة بصراحة قوية مجلجلة أن هذا الحدث إلهي المصدر والسبب ، خارج عن طاقة « محمد » المخلوق وتصرفه وإرادته . وأن مشيئة الله اختارت محمداً ﷺ رسولاً إلى العالمين دون علمٍ سابق منه ؛ ودون إرادته أو تطلعه وسعيه .

ولكن لماذا أعلن ورقة أن الملك هو ملك الوحي الذي بعثه الله إلى موسى ولم يقل إلى عيسى ! ؟ علماً بأن ورقة نفسه يقيم على شيء من النصرانية ؟

ذهب ابن حجر العسقلاني إلى أن ورقة أعلن بهذا أن المَلَكَ الذي لقيه محمد ﷺ في غار حراء **هو ملك الوحي الذي أجمع أهل الديانتين**

« اليهودية والنصرانية » **على الإيمان بنزوله إلى موسى** . ولم يقل ورقة « إنه الذي نزل على عيسى » لأن اليهود ينكرون نبوة عيسى وصلته بوحي الله »[1] .

قلت : ورأي اليهود هذا معروف في الجزيرة لاستيطانهم بعضها ، فلقد احتاط ورقةُ فنسب الملك إلى موسى ليكون أبلغ في إعلان التيقن والتأكيد بأنه ملَكُ الوحي، وأقطع حكماً بنبوة محمدٍ ﷺ ، وأنفى للشك وأبعد عن الاحتمال والتأويل الذي يجرُّه إليه قذف الموضوع في لُجة الخلاف بين اليهود والنصارى ، وهذا غاية ما يمكن أن يُعبر به ورقة عن يقينه بإلهية رسالة محمدٍ ﷺ .

ونسرد ملاحظاتنا حول المسألة فيما يلي :

(أ) ـ تنفي النصوص أي صلة سابقة بين ورقة ومحمد ﷺ :

إن اللقاء بين محمد ﷺ وبين ورقة بن نوفل قد تم في زمن متأخر بعد مجيء ملك الوحي المرة الأولى إلى رسول الله ﷺ .

وقد دلت النصوص على عدم وجود صلة سابقة بين محمد ﷺ وورقة بن نوفل ، حتى إن فكرة الاتصال بورقة لم تطرأ على بال الرسول الكريم سعياً لإزالة الإشكال عن نفسه ! بل كانت الفكرة من اقتراح خديجة ، فلو كانت هناك صلة سابقة كما زعم بغير دليل « واط » المستشرق ، لتبادرت إلى ذهن الرسول سريعاً فكرةُ استفتاء ورقة !؟ أما وإن الفكرة وليدة خاطر خديجة فأمر طبيعي أن تعلم المرأة من قريباتها وأقربائها أحوال ابن عمها واتجاهه الديني الذي خالف به أهل الجاهلية . ولكن زعمه أن خديجة وقعتْ تحت تأثير ورقة ؛ فزعم مجرد لا دليل عليه إطلاقاً ، بل الدليل قائم على عكسه تماماً ، حتى في بعض المصادر التي

---

(١) فتح الباري ـ ابن حجر العسقلاني جـ ١ ص ٢٠ .

يعول عليها البرفسور ، ويؤثرها على كتب الحديث الصحيح التي حوت أضبط الوثائق التاريخية بعد القرآن العظيم . **فانظر رواية محمد بن سعد كاتب الواقدي في « الطبقات الكبرى » الحدث الأول للوحي ، فإنها تدلك على أنه لم يكن بين خديجة وورقة زيارة ، إذ جاء فيها : « ثم انطلقت (خديجة) إلى ورقة بن نوفل ، وهي أول مرة أتته** ، فأخبرته ما أخبرها به رسول الله ﷺ ، فقال ورقة : **والله إنَّ ابن عمك لصادقٌ ، وإنَّ هذا لَبَدْءُ نبوة ، وإنه لَيأتيهِ الناموسُ الأكبر »**[١] .

فقد كان حرياً بمحمدٍ بعد الإشكال الذي حيَّره وأربكه في حراء أن يذهب لتَوّه إلى ورقة قبل أن يذهب إلى بيته ليسأل ورقة ويستعين به لو كان ورقة أُستاذاً قديماً له ، كما زعم « واط » . لكنك ترى حقائق التاريخ مناقضة زعمه من وجوه كثيرة جداً ، فما دليله عليه إذن ! ؟

من المؤسف حقاً أن « واط » ـ البرفسور ـ قد قدم زعمه الهزيل بغير دليل ؛ اللهم إلا أن يكون دليله هو مجرد الاحتمال الوهمي أو الافتراض الخيالي الذي أفادته كلماته : « ويمكن . . ويبدو . . فمن الأفضل الافتراض . . » وقد درج « واط » على إيراد أمثال هذه الأدلة في تأييد معظم مزاعمه حتى لقبه بعض طلابه « بروفسور الاحتمالات » . وقد غاب عن فطنته الحادة أنه ليس كل أمر محتملاً وقوعه في تصور الذهن والخيال ؛ قد وقع وتحقق حدوثه فعلاً في الواقع المعاصر أو في الماضي الغابر !

---

(١) دلت الرواية على أنه لم تكن زيارة معتادة بين البيتين : محمد وورقة . ولا يمكن حمل عبارتها على ما يخالف هذا المعنى . فإن روايات الواقدي لحادثة الوحي ـ وهذه منها ـ ليس فيها ذكر اتصال بين الطرفين إلا هذا الاتصال الوحيد بوساطة خديجة منفردة مرة واحدة فقط ، فتأمل!! انظر الطبقات الكبرى ـ محمد بن سعد كاتب الواقدي جـ ١ ص ١٩٤/ ١٩٥ طبعة بيروت.

(ب) ـ موقف ورقة يدل على ربانية الوحي إلى رسول الله :

١ ـ إن ورقة بن نوفل وقف من محمد رسول الله مستطلعاً مستفهماً كشأن الراهب بحيرىٰ تماماً! فأين هو التعليم والتلقي !؟

٢ ـ زدْ على ذلك أنه أنبأ رسول الله بأن قومه المشركين سيكافئونه على الهداية بالأذى والعداء والاضطهاد الشديد ، وأن حاله معهم كحال رسل الله قبله مع أقوامهم . ويمضي ورقة في إعلانه إلهية هذه الرسالة ويقينه بها ، فيندفع على كبر سنه بالتطوع للتضحية مناصرة لدعوة الله ورداً لأعدائها الكائدين[١] .

٣ ـ إنَّ ورقة نفسه لم يدَّعِ النبوة ، ولم يطلب لنفسه مكانةً واعتباراً في الدعوة الجديدة كدليل ومرَشد لها . . !! أرأيت لو كان ورقةُ مصدر معارف محمد ﷺ ، أكان يقف منه موقف التابع المصدق المؤيد المناصر . . !!؟

(ج) ـ موقف قريش يثبت عزلة محمد ﷺ عن ورقة :

إن قريشاً لم تتوان لحظة في تصيد أدنى مطعن محتمل وتوجيهه إلى رسول الله ﷺ . . فقد بالغت في ذلك وأفرطت حتى زعمت أنه مجنون . وزعمت أنه يتعلم من فتى أعجمي رومي رقيق لديهم . . !

فلو كان هناك أقل قدر من التواصل بين محمد وورقة لافترصته قريش وَلَبنت مزاعمها عليه . ومثل هذه الصلات الدينية لا تخفى في مجتمع وثني ريفي قديم ضيق مكشوف بعضه تجاه بعض. . !! لكنَّ قريشاً مع إفراطها في العداء والبهتان ، لمّا لمْ تُورد شيئاً من هذا القبيل دلّ ذلك على عدمه أصلاً. وعلى أن القول به باطل مفضوح لا طائل وراءه!! بل لو كان شيء

---

(١) راجع الشطر الأخير في الحديث : ١٠٨ ـ ١١٠.

من ذلك محتملاً احتمالاً لمالتْ قريشٌ إلى ورقة ليعلم شبابها ، فيناهضوا بذلك دعوة محمد ﷺ .

(د) ـ إسلام ورقـة ووفاته من دلائل وحي الله إلى رسوله :

وها هو ذا ورقة يموتُ « ثم لم يَنْشَبْ ورقة أنْ تُوفيَ وَفَتَـرَ الوحيُ »[1] فمن أين لمحمد ـ بعده ـ تلك العلوم يتلو بعضها بعضاً أكثر من عشرين سنة !؟ وهذه الرواية جملة من وثيقة تاريخية ثابتة في صحيح الإمام البخاري ، وهي في منهج نقد الأخبار راجحة على كل ما يعارضها من الأخبار ، نظراً لثبوتها بدراسة دقيقة في السند والمتن .

وجمهور المؤرخين والمحدثين وكتاب السيرة يعولون على هذه الحقيقة ، وهي وفاة ورقة سريعاً بعد هذا اللقاء . دل على ذلك لفظ الرواية (ثم لم ينشب) والمعنى : لم يتعلق ورقة بشيء من الأمور حتى مات . وهذه اللفظة (ينشب) يعبر بها العرب عن السرعة والعجلة[2] .

ويبدو من جميع الروايات أن ورقة كان يدرك أنه مشرف على أجله لفرط هرمه ووهن عظمه ، ففي حديث البخاري أنه قال للرسول الكريم ﷺ «ليتني أكون حياً إذْ يُخرجك قومك . . وإنْ يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ». وهذا النص الوثيق أورده «واط» نفسه في كتابه . . فإنه من رواية الزهري التي عول عليها. لكن كتب التاريخ لم تتبع منهج النقد الدقيق للأخبار كما حصل في كتب الحديث. فرواية الزهري عند البخاري فيها «ثم لم يَنْشَبْ ورقة أن توفي وفتر الوحي». وما قبلها دليل عليها يقتضي حصول مضمونها. فما وجهُ تكذيب «واط» بهذه الفقرة!؟

إن الكاتب المذكور زعم أنها زيادة لا أصل لها ، وأنها أضيفت

---

(١) آخر حديث البخاري وقد مر بك كاملاً ص ١٠٨ ـ ١١٠ لم يَنْشَبْ : لم يلبث.

(٢) انظر فتح الباري جـ١ ص ١٥ وعمدة القاري للعيني جـ ١ص ٥٣ .

لتسويغ موقف ورقة وعدم إسلامه فيما بعد ، إذ قال : « وأما بقيةُ القصة من ناحية ثانية ، فهي تبدو كأنها محاولة لتفسير السبب الذي من أجله لم يصبح ورقة مسلماً على الرغم من موافقته . وهناك بعض الروايات التي تجعل موته بعد سنتين أو ثلاث من رسالة محمد »[(١)] .

ولا يغيب عنك أن ورقة قد أشهر تصديقه ، فماذا يحتاج أكثر من ذلك لإعلان إسلامه ؟ هل كان عليه آنئذ أن يذهب إلى الكنيسة ليحذف اسمه من سجلاتها ؟ أم كان عليه أن يحصل على صك يُبرىء ذمته من المسيحية ، بعد أن عبث فيها رجال الكنيسة ، وحرفوا كلام الله وتنكروا لبشارات السيد المسيح بخاتم المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام !؟

ثم عول « واط » على رواية شاذة أفادت أنَّ ورقة عاش بعدُ نحو ثلاث سنين .

أقول : حسناً ! لو افترضنا فإن الدعوة كانت سرية تماماً. كما ذكر « واط » نفسه في الكتاب[(٢)] نفسه فما يشعر الناس بكتمان الرجل إسلامه أو بعدم إسلامه أيضاً !؟

ولو فرضنا أنه عاش بعد ولم يعلن إسلامه ، فما الذي يدعو المسلمين للكذب والاختلاق ومخالفة شرع الله !؟ أليس هناك قساوسة وأحبار وفصحاء عرب ، عرفوا رسالة النبي ﷺ وإعجاز القرآن وصرحوا بذلك ثم لم يؤمنوا[(٣)] فهل افترى المسلمون شيئاً في حقهم لتسويغ عدم إسلامهم !؟ حاشا أمة الإسلام من ذلك ! أم كان المسلمون عاجزين أن يقولوا : غلبه

---

(١) MOHAMMAD AT MECCA. 51 .

(٢) MOHAMMAD AT MECCA. 58.

(٣) كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة من المشركين وكالعاقب عبد المسيح والسيد صاحبي نصارى نجران . (انظر كتابينا «بينات المعجزة الخالدة ص ١٧٨/ ١٨٢ و« نبوة محمد ص ٢٤٠»).

الحسد وطغت عليه العصبية فاستكبر وأبى كما فعل غيره !؟

وإذا كان غرضهم تسويغ عدم إشهار ورقة إسلامه ، فما كان يمنعهم أن يقولوا عبارة أقوى وأبلغ في الدعاية للإسلام !؟ مامنعهم أن يقولوا : إنه أسلم وعاش في الإسلام ثلاث سنوات ، كما أسلم من هو أعلم منه بكثير ، وهو حبر اليهود في المدينة ، عبد الله بن سلام ، إذ أسلم ، واستكتم الرسول إسلامه حتى يسأل اليهود عن مكانته فيهم . فلما أقروا بها أشهر إسلامه أمامهم !![1]

وما منعهم أن يقولوا : إن ورقة أسلم في مرحلة الدعوة السرية ـ وتوفي في أثنائها ـ وأنهم رأوه يصلي خلف رسول الله ﷺ مع علي وخديجة في بيت ابنة عمه خديجة ذاتها !!؟ ما منعهم أن يزعموا ذلك لو كان رائدهم شيئاً من الدعاية أو التسويغ !؟ فإن مثل هذا أجدى وأقوى . . أليس كذلك !؟ فالمسألة تحتاج إلى فهم وعقل !

إن الاختلاق والكذب وتزوير الحقائق والتبديل في الدين إنما هو من أخلاق أمم أخرى وشيمها !؟ حتى زعمتْ فئة من النصارى أن الله الواحد

---

(١) جاء في حديث الإمام البخاري ـ كتاب الأنبياء ، باب خلق آدم ـ أن عبد الله بن سلام لما أسلم قال : « يا رسول الله! إن اليهود قوم بُهْتٌ ، فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك » . فجاءت اليهود ودخل عبد الله في البيت ، فقال رسول الله ﷺ : « أي رجل فيكم عبد الله بن سلاّم ؟ » قالو : « أعلمنا وابن أعلمنا ، وأخيرنا وابن أخيرنا » ، فقال رسول الله ﷺ : « أفرأيتم إن أسلم عبد الله !!؟ » قالوا : «أعاذه الله من ذلك !! » قال : فخرج عبد الله إليهم ، فقال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » ، فقالوا : « شرنا وابن شرنا » ووقعوا فيه .
و« البُهْت » : بضم الباء : الكذب والافتراء . وقوم بهت : جمع بهوت ، من بناء المبالغة في البهت . انظر النهاية لابن الأثير وجامع الأصول ج ١٢ ص ٩٧ / ٩٨ .

هو ثلاثة ، وأن الثلاثة واحد . فالواحد والثلاثة شيء واحد !!؟ وإن تلك الفئة تقترف مثل هذا في دينها ثم تحاول أن توهم أبناءها حصوله في أمة سيد المرسلين . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهم

والواقع أن الوحي الأول علم مهمٌّ من أعلام نبوة الرسول الكريم ﷺ ، كله دون ضجيج ، ودون تكذيب فاقع يلفت الأنظار أو يثير السخط العميم والغضب العظيم في المسلمين . لذا لم يجب « واط » على دلالة الحديث الحتمية بشيء ، وإنما حول الأنظار عنها ببراعة احتيالية فائقة ، فزعم أن بقية قصة نزول ملك الوحي زيادة أضيفت فيما بعد ، لتسويغ عدم إسلام ورقة . إذن علينا ـ في زعمه ـ أن نرفض هذه الرواية لهذا السبب ، وعلينا لسبب آخر مشابه « لا يعرفه القارىء لأول وهلة ، ولم يذكر المؤلف ، إذ يحتمل أن يكون في كلامه هنا توجيه لبني قومه بالإشارة ؛ مع حرصه على عدم إثارة سخط المسلمين أو انتباههم إلى فساد تخطيطه » علينا ـ في زعمه ـ أن نعول على أي نص يجمع بين ورقة ومحمد ، لماذا ؟ لأنه أفضل من النص الذي يجعلهما لا يلتقيان !!

ولكن ما قيمة النص الذي يجمع بينهما ـ حسب دعواك ـ وهل هو وثيق !؟ وما طريق توثيقه !؟ وماسبب ترجيحه !؟ وما وجه أفضليته من ناحية البحث العلمي الموضوعي الحيادي !؟ ثم أين هو هذا النص !!؟؟

تأمل النهج العجيب الذي سلكه « واط » في بحثه الموضوعي الحيادي ! تأمله في قوله : « وأما بقية (قصة الوحي في غار حراء) من ناحية ثانية فهي تبدو كأنها محاولة لتفسير السبب الذي من أجله لم يصبح ورقة مسلماً على الرغم من موافقته لمحمد ، ولسبب مشابه ، فإن النص

الـذي يجمـع بيـن محمـد وورقـة أفضـل مـن النـص الـذي يجعلهمـا لا يلتقيان »[1] .

(هـ) ـ الكذب على سيرة رسول الله من منهج المستشرقين :

أفادت الروايات أن الصلة بين ورقة ومحمد ﷺ إنما حصلت بعد أن جاءه الملك في غار حراء ، لكن الباحث الغربي المتحامل « مسيحياً كان أم يهودياً أم ملحداً » ربما يحتسب أن هذه الحادثة فرصة عظيمة للطعن في نبوة الرسول ، إذ أثبتت اللقاء . . وهي رواية تاريخية وثيقة معترف بها عند المسلمين في أوثق مصادرهم ، فهي مغرية حقاً أن تستغل تماماً من وجهة نظر الباحث الغربي المغرض !

غير أن البحث الحيادي النزيه يورد على المستشرقين اعتراضاً فإن هذا اللقاء إنما تم بعد نزول الوحي على محمد فعلاً ! مما يفيد أنه لا علاقة لورقة به ولا تأثير لآرائه في حصوله قبل هذا اللقاء على الأقل !! وهذا استنتاج موضوعي حتمي ملزم ! فيثبت بالتالي صدق محمد ﷺ في تلقيه الوحي الأول ، وصدقه أيضاً فيما تلاه من الوحي ، فقد منحه الله النبوة بالوحي الأول . أضف إلى ذلك أنَّ ورقة قد وافاه أجلهُ سريعاً !!

لذا نبَّـهَ « واط » الباحثين الغربيين على أن لا يستدلوا بهذه الرواية ذاتها ، فإنها لا تخدم مآربهم وأغراضهم ـ وإصدار التوجيهات للغربيين من مقاصد « واط » الأساسية في كتابه ـ فمن الأفضل لهم ، في نظر هذا «الكاتب الحيادي الموضوعي ! » ، أن يستدلوا بافتراض محض « اختلاق » لا أصل له في التاريخ إطلاقاً !! أرشدهم إلى ذلك بقوله : « ولهذا فمن الأفضل الافتراض بأن محمداً كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة بن

---

(١) MOHAMMAD AT MECCA. 51.

نوفل منذ وقت مبكر وتعلّم أشياء كثيرة »[١] .

(و) ـ خدمتهم ضلالات التبشير بالاختـلاق على الرسول زوراً وبهتاناً :

ماذا قصد المؤلف من زعمه استمرار حياة ورقة ثلاث سنين بعد الوحي الأوَّل ؛ ومن اختلافه اتصالات دينية تلقى فيها محمد بن ورقة منذ وقت مبكر ؟ إن بيت القصيد من هذه المزاعم وأمثالها هو الإيهام بأن الإسلام فيه كثير من أفكار ورقة ، ولكن أفكار ورقة المتنصّر مستمدة من الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) المقرر لدى الكنيسة ، إذن الإسلام ـ حسب زعمه ـ مقتبس من المسيحية ، وهذا ما يعبر عنه المستشرقون المتأخرون : بالعلاقة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية ؛ أو بين الوَحْيَين ؛ كما قال «واط» ههنا :

« ولهذا فمن (الأفضل) الافتراض بأن محمداً كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة بن نوفل منذ وقت مبكرٍ وتعلَّم أشياء كثيرة . وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة بأفكار ورقة !! وهذا ما يعود بنا إلى طرح مشكلة العلاقة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي السابق له »[٢] .

« فإن النصَّ الذي يجمعُ بين محمد وورقة أفضلُ من النصِّ الذي يجعلهما لا يلتقيان »[٣] .

---

(١) مر بك النص بتمامه في مطلع حديثنا عن ورقة .

(٢) MOHAMMAD AT MECCA. 52 وقد ورد في تقرير (الكونت هنري دي كاستري) أن هؤلاء المستشرقين لم يقصدوا تجلية الحقائق التاريخية ، بل قصدوا حفظ روح البغضاء في نفوس أقوامهم وخدمة المقصد المسيحي الحكيم ـ حسب زعمهم ـ لذلك لجؤوا إلى السبِّ والشتم والتحريف في النقل «راجع: محمد رسول الله ـ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٥ » .

(٣) النص بتمامه قد مر بك قبل صفحات. وجاء في بيان المستشرق المسلم « ناصر الدين دينيه » أن هؤلاء المستشرقين يعمدون إلى هدم بعض الأخبار الصحيحة . تأييداً لآرائهم وعصبياتهم ثم يعمدون إلى بناء ـ وبالأحرى إلى اختلاق ـ أخبار =

أي منهج في تحقيق الأخبار التاريخية جَعَلَ هذا الافتراض أفضل ؟ وهل لديك أنت وأضرابك منهج في البحث العلمي أصلاً !؟ ثم ما وجه الأفضلية ؟ لا يرى العاقل لها وجهاً إلا التعنت في إعظام شأن المسيحية المشوهة ؛ وفي اتهام الرسول الكريم جزافاً واعتباطاً بأنه اقتبس منها عن طريق ورقة ! فأين ما وعدت في مقدمة كتابك أن تبحث بشكل حيادي وموضوعي كمؤرخ !؟ ثم أين منهجك التاريخي لننظر فيه ولنحتكم إليه عند سلامته !؟ أين ما وعدت به !؟

فهل ترى أيها القارىء النبيه أنّ لهذا النموذج صلة بالموضوعية ! أو بالمنهج العلمي القويم ! أو بالحياد النزيه في البحث ! تأمل هذا كله قبل أن يبلغك أن ديانة البروفسور العظيم هي المسيحية ، وأنه في الحقيقة ـ التي يخفيها ـ قسيس في كنيسة إنكليزية ! لقد عرفه بذلك الطلاب المسلمون النابهون الذين درسوا في جامعته .

لا ريب أن هذا الزعم يحتاج إلى دليل ، فأين المقارنة الموضوعية بين التعاليم الإسلامية والمسيحية التي تكشف عن التأثر أو عن الاقتباس !؟ كلام دون دليل مصيره الإهمال ! إن مقارنة المعلومات عند الطرفين تكشف استحالة اقتباس الإسلام من تلك الديانة شيئاً ! لكن ما موقف القارىء العاقل من إصدار المستشرق « واط » هذا الحكم اعتباطاً !؟ لا شك أنه سيعطي الكاتب وأمثاله رتبتهم الحقيقة ، ويعرف مستوى بحوثهم وحقيقة أغراضهم !

فالمثقف العادي من المسلمين يدرك يقيناً أنَّ الإسلام يختلفُ جذرياً مع المعترف به عند أهل الديانتين اليهودية والمسيحية ! والاختلاف قائم على أشده في العقيدة والشريعة والأخلاق والقصص ، ولعل الله ييسر لنا

= تحل محل ما هدموه . وها أنت ترى تطبيق ذلك بأم عينك ! فافهم !! « محمد رسول الله ـ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٦/٥٧ » .

إعطاء القارىء صورة مناسبة عن ذلك في المستقبل . والله ولي التوفيق .

وتجد لهذا الصنف من المستشرقين الملتزمين خدمة الكنيسة موقفين متناقضين تماماً . عبَّر عنهما الأستاذ العلامة الجليل الشيخ محمد كرد علي رحمه الله في حديثه إلى الأستاذ الحافظ الشيخ أحمد الصديق الغماري حين قال له : «اسمع يا سيد أحمد ! أمرُ هؤلاء المستشرقين عجيب !! جاؤوا إلينا بكتبهم وآرائهم ، مُدَّعين أنهم يقصدون البحث العلمي الحر ، فقبلنا منهم ما أبدوه من طعن في كتابنا وديننا بل شاركناهم فيه ، تمسكاً بالمبدأ المذكور ، حتى إذا ما أردنا أن نناقش أحدهم في مسائل دينه ، كالتثليث أو الصلب أو الفداء ؛ هزَّ رأسه استنكاراً وقال : العقائد الإيمانية لا تقبل المناقشة ولا يدخلها العقل !! ونسي ماكان يدعو إليه من بحث في دين الإسلام بقصد هدمه ! »[1] .

ولا يخفى عليك أنَّ الدافع لهذا التناقض بغضهم الشديد للإسلام ورسوله وكتابه وللمسلمين عامة ، فلا يرضون عن أحد منهم حتى يكفر ويلتحق بهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . . . ﴾[2] .

(ز) ـ منهجهم في ترك مصادمة مشاعر المسلمين والتزام الاحتمالات الوهمية :

إن القسيس المستشرق « واط » له طريقة خاصة باتت هي الطريقة الحديثة المفضلة لدى المستشرقين ، وهي عدم مصادمة مشاعر المسلمين مباشرة ، لذا لجأ إلى طمأنتهم في مقدمة الكتاب أنه سيكتب بشكل

---

(١) الإحسان في تعقب الإتقان للسيوطي ـ عبد الله بن الصديق الغماري ـ ص ١٦ . ط . مصر .

(٢) سورة البقرة : ١٢٠ .

موضوعي وحيادي كمؤرخ، وأنه لن يعارض العقائد الإسلامية الأساسية. . ثم راح يتدرج بهدوء ليصل إلى غرضه . وقد اتبع في ذلك منطق المغالطة في الاستنتاج وهو منطق مرفوض في شتى صنوف البحث العلمي . والباحث النبيه يلحظ أن الكاتب قد أعطى النتيجة التي يريدها بعد مقدمات احتمالية وهمية ، تظهر قوله: «غالباً . وبالتأكيد ، ويمكن، ويبدو » ثم أتبع ذلك بالنتيجة التي قصدها مسبقاً ، فقال بصيغة الجزم واليقين : « ولا شك أن المقطع القرآني حين ردده محمد يجب أن يكون ذكّره بما هو مدين به لورقة » .

ثم انظر قوله : « فمن الأفضل الافتراض . . » وتأمل كيف ابتنى نتيجة قطعية على تلك المقدمة الموهومة المفترضة ، إذ قال : « وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة ! ! »(١) .

فكيف ينتج اليقين من الافتراض والاحتمال الوهمي الذي لم يؤيد بدليل ولم يقم على صحته برهان ! ؟ إن المقرر في أصول العلوم كلها أن النتيجة تتبع أضعف المقدمات وأوهاها ، فلو كانت جميع المقدمات قوية إلا واحدة ضعيفة لجاءت النتيجة ضعيفة بغير شك ! لكن العبقرية الخارقة في أبحاث « واط » وأمثاله تستخلص اليقين الذي لاشك فيه من مقدمات الوهم والخرص ! ! وإن لم يكن هذا من منبع عقلية التثليث فهو من منبع المكر والاختلاق ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾(٢) .

وسبق أن أشرنا إلى أن هذا المسلك من جملة طرائقهم الكثيرة التي اتبعوها في بحوثهم وأدت إلى اختلال منهجهم وفساده ومجافاته لكل منطق علمي مقبول ! ! (٣)

---

(١) MOHAMMAD AT MECCA. 39-52.

(٢) سورة الأنفال : ٣٠ .

(٣) تقدم بحثنا : اختلال مناهج البحث الاستشراقي ص ٣٦ ـ ٣٨ فقرة ٩ .

(ح) ـ الحقائق التاريخية تفضح تخرصات المستشرقين بشأن ورقة :

إن مكة مجتمع أمي صغير ، وأحوال الفرد فيه مكشوفة لجميع أفراده ، سفراً وإياباً ، عملاً وتعلماً . . يستحيل إخفاؤها ومنع اشتهارها ، فإن أخبار الأفراد تسري في المجتمعات الصغيرة سريان النسيم ، حتى تبلغ آحادهم من شقوق الأبواب والنوافذ .

فلو كان محمد الصادق الأمين ﷺ زاول التعلم من بشر لظهرت عليه آثاره، ولعرف قومه أخباره ، ولاحتجوا عليه بذلك . كيف لا ؟ وهم قد اختلقوا تهمة التلقي من فتى رومي حداد مملوك ! ! فلو توهموا أدنى احتمال للقاء مع ورقة والتلقي منه لما فوّتوا تلك التهمة الباطلة لتسويغ موقفهم ، وكيف يدعونها إلى توهم أشدّ منها ضعفاً . وهو الأخذ عن قين رومي جاهل ! ! ؟ ؟

وإن في امتناعهم عن قذف الرسول الكريم بتهمة اللقاء مع ورقة والتلقي منه قرائن قوية تؤكد وفاته مبكراً في مطلع بعثة النبي ﷺ .

وقد جلّى القاضي عبد الجبار رحمه الله بعض هذه الحقائق، إذ قال : « ونحن وإن لم نكن في زمانه ﷺ ، فقد علمنا أنه ماقرأ هذه الكتب ولا اكتتبها ولا اختلف إلى أهلها ولا اختلفوا إليه . . ولا تلقى ذلك عن أحد من الناس ، لأنه مامن أحد يطلب فناً من الفنون إلا وله في ذلك تارات وطبقات . فأول ذلك أن يكون طالباً أو سائلاً عمن عنده هذا الأدب وهذا الفن من العلم والأدب ، ثم يختلف إلى أهله ويصحبهم فيكون تارة مبتدئاً ، ثم متوسطاً ثم ماهراً متقدماً . وكل هذه الأحوال معروفة معلومة لأهل زمانه ، لا يجوز أن يذهب عليهم . ولا يجوز أن يخفى ولا يكتم عن أحد كائناً من كان »[1] .

---

(١) تثبيت دلائل النبوة ـ القاضي عبد الجبار المتوفى سنة ٤١٥ هـ ص ٨٧ طبع دار العربية بيروت .

إن ظهور تلك العلوم الإلهية العظيمة الجليلة المعجزة للبشر على محمد ﷺ مع أنه لا يقرأ ولا يكتب ، لم يتلق من عالم ولم يطالع في كتاب شيئاً ، يثبت يقيناً أن القرآن العظيم وحي إلهي مستقل عن ذات محمد ﷺ مستعل على إمكاناته بل على إمكانات جميع البشر .

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1] .

والأظهر في قطعية هذه الدلالة أن تلك العلوم العلوية لم تأت أفكاراً في مراتب وأطوار على عادة العلماء المفكرين من البشر ، إنما جاءت رسول الله ﷺ دفعة واحدة ، كما هي، في أسلوب يعجز الأولين والآخرين . قال الإمام فخر الدين الرازي :

« إنه عليه السلام كان قبل إظهار دعوى الرسالة والنبوة ماكان يشرع في هذه المسائل ، وماكان يبحث عنها ، وماجرى على لسانه قط حديث النبوة والرسالة ، والذي يدل على صحة قولنا أنه لو اتفق له شروع في هذه المطالب والمباحث قبل إظهار ادعاء الرسالة والنبوة لقالت الكفار له : إنك أفنيت عمرك في التدبر والتأمل وتحصيل هذه الكلمات حتى قدرت الآن على إظهارها . ولما لم يذكر هذا الكلام أحد من الأعداء مع شدة حرصهم على الطعن فيه وفي نبوته ، علمنا أنه عليه السلام ما كان شارعاً قبل إظهار النبوة في شيء من هذه العلوم . ومعلوم أن من انقضى من عمره أربعون سنة ولم يخض في شيء من هذه المطالب العلمية ، ثم إنه خاض فيها دفعة واحدة وأتى بكلام عجز الأولون والآخرون عن

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٨ / ٤٩ .

معارضته . . فصريح العقل يشهد بأن هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل »[1] .

قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[2] .

* * *

---

(1) كتاب الأربعين في أصول الدين ص ٣١١ / ٣١٢ .

(2) سورة يونس : ١٦/ ١٧ .

رحلتان إلى الشام سريعتان للتجارة

أثيرت جلبة حول رحلة محمد ﷺ إلى بلاد الشام ، فقد فسرها المستشرقون بالاتجاه الذي حددوه لأنفسهم وهو الطعن في نبوة رسول الله ﷺ . وحسماً لمادة النزاع نعود إلى تاريخ رحلته في أقدم كتب السيرة والتاريخ ، الكتب التي يرتضونها . وإليك زبدة ماجاء فيها :

١ ـ الرحلة الأولى :

لما بلغ محمد ﷺ ثماني سنين توفي جده عبد المطلب بن هاشم ، فتكفله عمه أبو طالب ، ثم أزمع أبو طالب الخروج في تجارة إلى الشام مع الركب فتعلق به رسول الله ﷺ وهو ابن تسع سنين[1] ، فسافر به عمه ، فلما نزل بصرى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، فلما أقبلوا لينزلوا قريباً من صومعته رأى غمامة تظله من بين القوم . ثم أرسل بحيرى إليهم فقال : إني قد صنعت لكم طعاماً يامعشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ! فقال له رجل منهم : والله يابحيرى إن لك شأناً اليوم ، ماكنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً ! ؟ قال بحيرى : صدقت ! ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم . . وتخلف رسول الله من بين القوم لحداثة سنه في رحالهم

---

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ـ ابن سيد الناس جـ ١ ص ٤٠ طبعة بيروت .

تحت الشجرة . فلما تفرس بحيرى في وجوهم ولم ير الصفة التي يعرف عنده قال : لايتخلفنّ أحد منكم عن طعامي ! قالوا : ما تخلف أحد إلا غلام صغير في الرحال ، قال : ادعوه فليحضر .

« فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً ، ونظر إلى أشياء من جسده ، وقد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى فقال له : ياغلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ماأخبرتني عما أسألك عنه ، وإنَّما قال له بحيرى ذلك أنه سمع قومه يحلفون بهما ، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسألني باللات والعزى شيئاً ، فوالله ماأبغضت شيئاً قط بغضهما » فقال بحيرى : فبالله إلا ماأخبرتني عما أسألك عنه ، فقال له : «سلني عما بدا لك » فجعل يسأله عن أشياء من حاله ، من نومه ، وهيئته وأُموره ، فجعل رسول الله ﷺ يخبره ، فيوافق ذلك ماعند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده[1] .

(قال ابن هشام : وكان مثل أثر المحجم) .

قال ابن إسحاق : فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ماهذا الغلام منك ؟ قال : ابني ، قال له بحيرى : ماهو بابنك ، وماينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، قال : فإنه ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به قال : صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغنه شراً ، فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام »[2] .

---

(١) تحدثت عن خاتم النبوة في كتاب : نبوة محمد ﷺ في القرآن ص ٢٣٧ .

(٢) السيرة النبوة لابن هشام ج ١ ص ١٨٠ و ١٩٦ وتاريخ الرسل والملوك للطبري ج ٢ ص ٢٧٧ / ٢٧٨ وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٢٠/ ١٢١ .

٢ـ الرحلـة الثانيـة :

قال ابن إسحاق : وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ، ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له : ميسرة ، فقبله رسول الله ﷺ منها ، وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة ، حتى قدم الشام .

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشتري ، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعة ميسرة . . » وجاء في الطبقات الكبرى : « . . فخرج مع غلامها ميسرة ، وجعل عمومته يوصون به أهل العير ، حتى قدما بصرى الشام ، فنزلا في ظل شجرة ، فقال نسطور الراهب : مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ، ثم قال لميسرة : أفي عينيه حمرة ؟ قال : نعم ! لا تفارقه ، قال : هو نبي ، وهو آخر الأنبياء »[١] .

تقولات المستشرقين عن رحلات وهمية إلى الشام

زعم درمنغام ورينيه وغيرهما أن محمداً ﷺ قد اقتبس الأفكار الدينية من رحلاته إلى الشام ، وزعم درمنغام أنه مرّ مع القافلة بمدين ، وهي بلدة في سيناء فأخذ عن رجالها العلم[٢] .

---

(١) السيرة النبوية جـ ١ ص ٢٠٣ وتاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ٢٨٠/ ٢٨١ ، والطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ١٣٠ / ١٣١ .
(٢) الوحي المحمدي ـ رشيد رضا ص ٧١/ ٧٤ . طبعة خامسة بمصر .

لا ريب أن هذا الزعم وأمثاله لقي استنكاراً عاماً من المسلمين ، وكانت تظهر آثار الصدمة في نفس كل مسلم يقرؤه أول وهلة ، فيتبدى النفور من القول وصاحبه ومن كتاباته كلها عن الإسلام . . لما حصل هذا بوضوح وظهر هذه الطريقة الاستشراقية في الكتابة عن الإسلام «المصادمة للمشاعر والحقائق مباشرة» طريقة عقيمة ، لا تخرج مسلماً عن دينه ولا تقنع غربيّاً بوجهة نظر أئمة الاستشراق في بلده ؛ لذا عمدوا إلى أساليب أرق وأمكر وأدخل على النفس ، وقد بلغ الذروة فيها الدكتور مونتغمري واط . تأمل نشره الفكرة نفسها ، ولكن بأسلوب الاحتمال والتشكيك ، فقد ذكر « واط » الرحلة مع أبي طالب ثم مع ميسرة ثم قال « واط » :

« وربما » لم تكن خديجة ثرية جداً كما ذكر أحياناً ـ غير أن محمداً أصبح يملك رأس مال كافياً ، ليشارك بقدر في الأعمال التجارية .

في الحقيقة ليس هناك تسجيل أنه قد رحل من جديد إلى سورية « يعني بعد زواجه من خديجة » ولكن هذا لا يعني أنه لم يرحل . ويمكن أن يكون قد كلف رجالاً له بالإشراف على أعماله »(١) .

وطفقت في زماننا فئة من مرضى القلوب من الكتبة تحطب في حبال المستشرقين ، وقد استنارت في اتخاذ آرائها بحوالك الاستشراق . ظهر من هؤلاء الكتبة حاطب ليل في بلادنا ، نشر كتابه المادي المفضوح « محمد رسول الحرية » وكما يقول الناس ؛ « الكتاب يُعرف من عنوانه » . أفاض الكاتب في خدمة سادته قائلاً :

« ولكن أبا بكر لم يعد صغيراً . . فهو الآن يا محمد قد جاوز الثلاثين

---

(١) MOHAMMAD AT MECCA. 38 .

مثلك وقد خرج معك في كل رحلاتك يتاجر بماله »[١] .

« أدركتما كل شيء معاً ، وضقتما معاً بأسلوب الحياة في مكة ، ومضيت أنت تتأمل ، ولكن أبابكر مضى يقرأ فيما انتهى إليه من كتب الأولين ! . . ماأسعده فقد أتاحت له الحياة أن يتعلم القراءة والكتابة منذ الصغر ، على عكسك أنت ! . . ومازال أبو بكر يقرأ ويحفظ كل ما ينتهي إليه . ويحول رحلاته التجارية إلى فرص لمزيد من الاطلاع حتى أصبح اليوم أكثر فتيان قريش ثقافة . . وإنك لفخور به »[٢].

« لقد طالما تحدث محمد بن عبد الله مع صديقه أبي بكر بن أبي قحافة ، في هذا كله، ولقد رحلا معاً ، عانيا معاً ، وشاهدا الرهبان والكهان في بلاد بعيدة ، وسمعا معاً من الأخبار . . »[٣] .

زيف زعمهم ترحال النبي إلى الشام بعد الزواج

١ ـ لابد للباحث حين يقرأ صحف التاريخ أن يلاحظ الفوارق الشاسعة بين العصور الغابرة والأيام الحاضرة. . وذلك من نواح متعددة من الحياة الإنسانية . فلا بد من إغفال كل الوسائل الحديثة حين التفكير في الماضي .

ولا بد أن يأخذ الباحث بالحسبان ما يترتب على ذلك من نتائج . وما أكثر وما أخطر مايترتب على ذلك ! ! خذ مثلاً وسائل المواصلات في عصرنا ، فلعل طائرة تنقلك في ساعة واحدة من الجزيرة العربية إلى أوائل بلاد الشام « سورية الطبيعية » . بينما تعرف من مطالعتك الوثيقة في حنايا المصادر التاريخية المعتمدة أن أهل الجاهلية كانوا يضربون أكباد الإبل

---

(١) محمد رسول الحرية ـ ص ٤٨ ـ سلسلة كتاب الهلال .
(٢) المرجع نفسه ص ٤٨ .
(٣) المرجع نفسه ص ٥٣ .

شهراً في الصحراء ليزوروا القدس ! ![1] .

وإليك مثالاً آخر : إن البلدة أو المدينة المعروفة في أي دولة معاصرة تغص على الأقل بنحو نصف مليون نسمة ـ دع عنك المدن الكبرى ـ وهي متسعة الجنبات . وقد تعقدت الحياة المدنية فيها وكثرت مشاغل الناس بحيث لا يدري المرء عن جاره إلا النزر اليسير من الأخبار . وربما لا يلقاه في الأشهر العديدة إلا مرة فريدة ! لكن البلدة الكبيرة في جزيرة الأمية كانت مكة ، وهي في حسبان اليوم أقل من قرية صغيرة . . والمساكن فيها متقاربة والأزقة ضيقة على ماهو معروف من الحياة القديمة . . والناظر في أخبار التاريخ الوثيقة التي تشير إلى حدود مكة في الجاهلية ليعجب تماماً من صغر مساحتها ! ! .

أضف إلى ذلك كله تغاير البنية الاجتماعية ، فالناس في تقابل دائم ولاسيما في ناديهم الطبيعي الدائم وهو المسجد الحرام . فما يدوم غياب شخص معروف منهم برهة إلا ويفتقد ويعرف شأنه . . فما بالك برجل من أسرة وجيهة ذات نسب وحسب ورتب ! ! ؟ وقد بلغ هذا الرجل قدراً رفيعاً حتى تفرد بالاشتهار بلقب الأمين ، كما اشتهر بالصدق وحميد الخصال وكانت الأموال تودع أمانة عنده .

أرأيت لو غاب رجل بهذه الصفة في رحلة يستغرق طريقها شهراً . . فإذا أراد إنجاز مصالح تجارية احتاج إلى وقت أكثر لإنفاقه ! ! فإذا التزم التلقي والتعلم . . فالعلم يستنفد وقتاً مديداً . . فإذا أضفت إلى ذلك أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب كانت حاجته أمس إلى وقت أطول ! ! إذن سيعرف الأمر ويشتهر خبر سفره في مجتمعه الضيق ، وسيسأل عنه في المنتدى العام « المسجد الحرام » وسيحفظ القوم ذلك !

---

(١) سيرة النبي ﷺ ـ أبو محمد عبد الملك بن هشام ج ٢ ص ٤ .

٢ ـ وإذا لاحظنا وسائل المواصلات القديمة وتذكرنا قوافل الجمال التجارية في رحلتي الصيف إلى الشام والشتاء إلى اليمن ، أذكرنا ذلك أن القافلة فيها عدد من الرجال غير قليل . . ولهم مصالح مع أناس يودعونهم ، ولهم أهل يسيرون وراءهم مودعين إلى ظاهر مكة . . ولا بد من الاختلاط مع رفاق كثيرين في رحلة طويلة كهذه والتعاون معهم . . كل ذلك يجعل الرحلة تاريخاً لا ينسى في عمر الإنسان . . ويكون تاريخاً مشهوراً محفوظاً لدى الكثيرين لا يمحى من الأذهان ، ولا سيما في أناس دأبوا على حفظ أيامهم وأمجادهم وكل تواريخهم بالذاكرة لأنهم أميون . . ويشير إلى هذا المعنى في اشتهار الرحلات رواية ابن سعد في الطبقات عن رحلة النبي قبل الزواج مع ميسرة . ورد في رواية ابن سعد « فخرج (يعني رسول الله) مع غلامها ميسرة ، وجعل عمومته يوصون به أهل العير . . »[1] . إن وداع القوافل في انطلاقها واستقبالها بالابتهاج لدى إيابها من قبل الأحباء والأقرباء وأصحاب العلاقات المالية والتزام الرفاق يجعل الرحلة في القافلة يوماً مشهوداً لا ينسى ! !

٣ ـ إنك لا تنسى أن زعماء الشرك في قريش وأتباعهم قد ناصبوا محمداً العداء منذ أشهر دعوته . . وإنهم حرصوا على التماس كل قول لصرف الناس عن رسالته . لذا نجدهم بالغوا في اتهامه حتى الإسفاف ـ على الرغم من اشتهاره بالخلق ورجاحة العقل ـ إذ قالوا : ساحر ، مجنون ، شاعر مجنون ، كذاب . . إلخ لقد حاروا في التماس دليل مقنع يصرف الناس عن رسالته . أرأيت لو كان له ترحال إلى الشام يحتمل أن يتلقى فيه بعض العلم ، أكان المشركون يتركون اتهامه بالتعلم من نصارى الشام ! ؟

---

(١) راجع النص بتمامه في الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ١٣٠ / ١٣١ وذكرنا منه في الرحلة الثانية .

كيف وقد أمعنوا في التماس مثل هذا الدليل حتى حملهم غيهم أن يزعموا أنه تلقى العلم من رقيق رومي في مكة ! ! ؟

إن ظروف ذلك العصر التي تؤدي إلى اشتهار الرحلات ، وضيق المجتمع المكي ، وملازمة الأصحاب اضطراراً في تلك الأسفار ، وإن عدول قريش عن اتهامه بالترحال إلى الشام وتلقي العلم فيها إلى تعلات تافهة . . كل ذلك دلائل تفيد يقيناً عدم ترحاله بعد الزواج إلى الشام ، بل تفيد استحالة احتمال حصول ذلك حتى صار العقل العلمي ملزماً برفض افتراض هذا الاحتمال الوهمي لقيام الدلائل القطعية على نقيضه .

٤ ـ ارجع الآن إلى زعم البروفسور « واط » : « في الحقيقة ليس هناك تسجيل أنه قد رحل من جديد إلى سورية (يعني بعد زواجه من خديجة) ولكن هذا لا يعني أنَّـه لم يرحل . ويمكن أن يكون قد كلف رجالاً له بالإشراف على أعماله »[١] .

وهكذا جعل الأصل أن محمداً رحل إلى الشام مراراً بعد زواجه من خديجة ، وأن عدم ذكر شيء في مصادر التاريخ عن أي رحلة له إليها ليس دليلاً على عدم الرحلة ، بل من الممكن ـ احتمالاً ـ أنه لم يرحل . وهكذا عكس دلالة كتب التاريخ فجعل الاحتمال الذي لا دليل عليه « وهو زعم الرحلة » الحدث الأصلي الواقع ؛ إذ قال : « ولكن هذا لا يعني أنه لم يرحل » وجعل مادلت عليه المصادر « وهو عدم الرحلة » محتملاً احتمالاً ، إذ قال : « ويمكن أن يكون قد كلف رجالاً له بالإشراف على أعماله » وإنه احتمال في نظره غير صحيح ، إذ أورده بعد أن نسب إليه الترحال إلى الشام بعد زواجه من السيده خديجة .

وهذا التصرف المعكوس المنكوس من مناهج الاستشراق وأساليبه في

(١) MOHAMMAD AT MECCA. 38 .

البحث العلمي الموضوعي عن الإسلام ! وهو ـ في نظرهم ـ الحياد النزيه الذي لا تشوبه شائبة من الحقد أو العصبية أو المغالاة ، والذي لم تتسبب في ظهوره بعض المطامع الاستعمارية ! !

فصار في مذهبهم الحيادي العادل النزيه أن الأصل عدَّ كل شريف فاضل مجرماً حتى تثبت الدلائل المادية عدم إجرامه ! !

وهكذا فكل إنسان في المجتمع يدان بهذه الطريقة بأي تهمة يلصقها به أي واهم أو سفيه أو حقود متهور . فيعدَّ بهذه الطريقة كل إنسان صادق أمين فاضل مجرماً كذاباً ! فأين إذن مبادىء الحق وقواعد العدل ! ؟

لكن لا تنس أنه يظل البروفسور العظيم ـ ومن على شاكلته ـ بريئاً نزيهاً . . ! ! لأن هذا ـ عندهم ـ هو البحث العلمي الموضوعي الحيادي النزيه ! !

وبالاضافة إلى أَنَّ قواعد الحقّ تقرر أن المدعى عليه « وهنا المفترى عليه » بريء حتى يدان بالدلائل، فقد أظهرت لك البراهين القطعية استحالة حصول تلك الرحلات الوهمية المفترضة، وذلك للعوامل الكثيرة التي أسلفنا تبيانها .

٥ ـ أما زعم « الكاتب العربي المستغرب » أن أبابكر كان يعرف علوم أهل الكتاب ، فإنه زعم محض لا دليل عليه ، اللهم إلا أن يكون محاكاة للأجانب وارتقاباً للمنافع ، ولا شك أن قواعد البحث العلمي وقواعد الحق المعترف بها لدى كل إنسان ، تقضي أن يقدم المدعي بينة على دعواه ، فأين البينة على تلك الدعوى ! ! ؟ ولماذا لم يشتهر أبوبكر بمعرفته بالعبرية كما اشتهر ورقة بن نوفل في مجتمع الأمية والوثنية بمكة المكرمة ! ؟

ثم لماذا لم يدعم أبو بكر موقف صديقه الحميم بشهادته الوثيقة حول مسألة الوحي إذا كان يعرف أوصافه من الكتب السابقة ! ؟

أَلم يفعل ذلك ورقة ! وكان الموقف بأمس الحاجة إلى هذه الشهادة ! فإن المشركين أنفسهم لو عرفوا دراية لأبي بكر بالعبرية لا بد لهم أن يسألوه عن التطابق بين الدعوة الجديدة والدين القديم . وما أحرص الصحابة أيضاً على استماع شهادة أبي بكر لتعاضد الأدلة القطعية على رسالة محمد ﷺ فيزداد بها يقيناً على يقينهم . ،ويتناقلونها فيما بينهم وفي دعوتهم إلى أحبائهم ممن لم يسلموا ثم إلى أولادهم وإخوانهم في الدين الذين جاؤوا من بعدهم ! !

لقد أسلم عبد الله بن سلام وهو من أعظم أحبار اليهود وشهد بأن صفات محمد بن عبد الله هي صفات خاتم المرسلين المذكورة في الكتب المقدسة لديهم . . تلقى المسلمون شهادته بحرص بالغ ويقين زائد وتناقلوها إلى أيامنا هذه[١] .

فلو كان أبو بكر على اطلاع على النصرانية ، أما كان يخدم دينه بشهادة مثلها كذلك ! ؟ أما كان المسلمون يطلبون إليه ذلك ! ؟

إن زعم تعلم أبي بكر الكتب المقدسة قضية لا دليل عليها ، بل الأدلة قائمة على نفيها ، فإلى أين يذهب المتقولون على حقائق التاريخ ! ؟ ولماذا يؤفكون عن الحق المبين ! ؟

٦ ـ والعجيب أن هؤلاء الملاحدة ؛ وفي مقدمتهم الشيوعيون ؛ متآزرون تماماً مع التبشير والاستشراق ؛ ومنسجمون في أفكارهم مع الغزو الفكري الاستعماري ، وذلك في الوقت نفسه الذي يتحدثون فيه عن آثار الكنيسة السيئة في الغرب وثورة الإلحاد والشيوعية عليها، ويزعمون أنهم دعاة تحرر من الاستعمار وغزوه الفكري . . فهم في

---

(١) روى الإمام البخاري وغيره قصة إسلامه. وقد مر بك الحديث آنفاً ص ١٥١ .

الواقع مجمع النقائض ! ! لأن الكفر ملة واحدة ، والكفار بعضهم أولياء بعض في عداوة دين الله والكيد للمسلمين من عباد الله .

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1] .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[2] .

ولا ريب أن زعم الكاتب ترحال أبي بكر مع رسول الله والاستماع إلى الأحبار زعم يحاكي فيه التابع قائده والعبد سيده ! زعم بغير بيّنة ولا دليل ! ! بل هو تخرص تدحضه حقائق الواقع التاريخي كما تقدم ذكرها . أضف إلى ذلك أنه يستحيل أن تطيق قريش سكوتاً على ترحالهما وصبراً على طعنهما في دينها وآلهتها . ثم لا تقيم عليهما حجتها ـ لو كانت حاصلة ـ بأنهما سافرا وتعلّما . . ثم تنسبهما إلى التآمر عليها لاقتناص زعامتها ! !

إذا غابت حقائق السيرة والتاريخ عن المبشرين والمستشرقين لبعدهم عن الإسلام والعربية فإنها قريبة المنال جلية المعالم لكاتب صحفي عربي في بلد إسلامي عريق . . ! ! فما آفته إذن ! ! مامنعه عن استجلاء الحقائق من أهل الذكر ! ؟ ومادفعه إلى متابعة الأجانب . . حذو النعل بالنعل ! ! ؟ ؟

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنفال : ٣٧ .
(٢) سورة الأنفال : ٧٣ .
(٣) سورة الحج : ٤٦ .

قصص الأنبياء في القرآن وحي إلهي خالص

ههنا مسألة جديدة تتعلق بالمسائل التي سبق لنا نقاشها والرد على تقول المستشرقين فيها ، فإن معظم ماورد من قصص الأنبياء في القرآن إنما ورد على شاكلة تخالف معلومات أهل زمان البعثة النبوية سواء أكانوا يهوداً أم نصارى أم مشركين ! ! وبيّن القرآن أن الرسول الكريم ما كان يعرف هذه القصص ، ولا كان قومه يعرفونها ، وأن الله أنبأ بها محمداً بالوحي الإلهي بوساطة جبريل عليه الصلاة والسلام ، وأنها هي الحق الواقع في حياة الأنبياء السابقين عليهم صلوات الله وسلامه ، وأنها كانت قبل أن يوحي الله تعالى بها غيباً مجهولاً ، لا يدري بها أهل ذلك الزمان. إن الغريب أن تجد « واط » يعطيك فكرة عن قصص الأنبياء خلافاً لما هو مألوف ومعروف للمسلمين جميعاً . . ! ! ولكن الأعجب والأغرب أن يزعم أن تقوله في قصص الأنبياء هو رأي المسلمين أنفسهم ! ؟ ولكن من أي مصدر علم أن تقوله هو رأي المسلمين ! ؟ ولماذا لم يذكر المصدر ! ؟

زعم « واط » متزعم المستشرقين ما يلي :

« ورأي المسلمين هو التالي : « حينما اعترف المسلمون الأول بمحمد نبياً بدؤوا - ومحمد معهم - بالاهتمام بالأنبياء السابقين ، فاكتشفوا منهم من استطاعوا ، وأخذت معلوماتهم تزداد تدريجياً ، ونجد أثر ذلك في القرآن . وهناك جمل عديدة في القرآن تدل على أن المادة المفسّرة لم تكن غريبة عنهم . مثال : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ ﴾ ! [البروج : ١٧] .

وكذلك قوله : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ٤٤] يدل على

أن التفاصيل جميعها لم تكن معروفة من محمد نفسه»[1] .

ونسجل ههنا الملاحظات التالية :

أولاً : تناقض المستشرق وإرساله التهمة جزافاً دون دليل :

إن مضمون هذا النص يزعم أن الرسول تلقى من بعض الصحابة معلومات عن الأنبياء ـ وبالتالي يزعم أنه صاغها قرآناً يتلى ! ! ـ ولكن المؤلف الذي اكتسى ثوب المؤرخ لم يذكر خبراً تاريخياً يدل على مثل هذا التصرف عبارة أو إشارةً ! ! ثم لم يذكر أيضاً من هم الصحابة الذين اكتشفوا مع الرسول الأنبياء ، ولا كيف تم اكتشافهم ، ومن أي مصدر « أو حفريات أثرية» حصل لهم وهم أميون ! ! ؟ ؟ هل هكذا البحث العلمي الحيادي تعميم وتعمية وإصدار حكم بغير دليل ! ! ؟ ؟ ثم كيف أعانه أصحابه على استجماع أخبار الأنبياء وأفادوه بما لديهم ولدى غيرهم ـ كما تزعم ـ ثم ظلوا يتابعونه نبياً رسولاً ! ؟

فكانوا يتأسون به في التقوى والزهد في الحياة الدنيا ؛ وبالتعبد في جوف الليل . . وبالتضحية والفداء بالمال والدم . . جهاداً في سبيل الله ونصرة لدينه الحق القويم كيف يتأتى منهم فعل ذلك ونحوه لو كانت القضية كما يزعم ! ؟ .

ولكن ألم يسبق لك التقول افتراءً بأنه كانت له اتصالات مع ورقة ، حتى تلقى منه ما في الكتب المسيحية المقدسة[2] ! ؟ فكيف احتاج بعد ذلك إلى معرفة قصص الأنبياء من غيره !؟ ما هذا التناقض!!؟؟

ثانياً : جهل ومغالطة في استدلال المستشرق بقصص الأنبياء :

لربما يدخل الوهم قلب إنسان بعيد عن الثقافة الإسلامية ، فيتوهم أن

---

(١) MOHAMMAD AT MECCA. 84 .

(٢) راجع ص ١٤١ وما بعدها .

إيراد المستشرق النصين من القرآن دليل على ما يقوله ، ونحن نجيب عن ذلك بما يلي :

١ ـ إنه لم يستشهد بالنصين على أنهم كانوا يكتشفون أخبار الأنبياء ، إنما استشهد بالنص الأول على أنه يفيد أن الصحابة كانوا يعرفون أنباء يسيرة عن بعض المرسلين قبل نزول هذا النص من القرآن ، وهذا لا يقدم ولا يؤخر ، وهو أمر معلوم لدى جماهير المسلمين منذ عصر النبوة حتى زماننا هذا ! !

والنص الأول في سورة البروج التي ذكرتْ قصة أصحاب الأخدود ، وصبر أهل الإيمان على عسف الضلال والطغيان ! وبيان أن سبب نقمتهم على المؤمنين أنهم آمنوا بالله ورسوله ! ! ثم بيان مصير كل من الفريقين ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير . فإن بطش الله شديد ، وإنه المحيي المميت المبدىء المعيد ، الغفور الودود ، الفعال لما يريد . ثم ذكّر تعالى رسوله والمؤمنين بقوم آخرين إشارة للعظات البليغة ، فقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾[١] .

ولنا ههنا أن نسأل : ما الحكمة في الإشارة إلى قصة قوم فرعون وثمود إشارةً ؛ بينما فصلت السورة قصة أصحاب الأخدود تفصيلاً ! ؟

لو كان القوم يعرفون قصة أصحاب الأخدود لما ناسب تفصيلها إطلاقاً ، ولاسيما وأنها قرنت بموجز قصتي قوم فرعون وثمود ! ؟ ولو كان القوم يجهلون تماماً قصة قوم فرعون وقصة ثمود لما ناسب إيراد الإشارة إليهما بل لاقتضى المقام تفصيلاً لشأنهما . . مناسباً للعظات المشار إليها ! !

---

(١) آخر سورة البروج .

أكتفي في هذا الموقف بإيراد تفسير النص من « الجامع لأحكام القرآن » للإمام محمد القرطبي ـ رحمه الله ـ إذ قال :

(﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ أي قد أتاك يامحمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم . يؤنسه بذلك ويسليه . ثم بيّنهم فقال : ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ . المعنى : إنك قد عرفت ما فعل الله بهم حين كذبوا أنبياءه ورسله ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : أي من هؤلاء ـ مشركو مكة ـ الذين لايؤمنون بك ﴿ فِي تَكْذِيبٍ ﴾ : لك ، كدأب من قبلهم ، وإنما خص فرعون وثمود ، لأن ثمود في بلاد العرب ، وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين . وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم ، وكان من المتأخرين في الهلاك ، فدل بهما على أمثالهما في الهلاك . . ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ : أي يقدر أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون)[(١)] .

٢ ـ إن معرفة العرب بنتفٍ يسيرةٍ من أنباء بعض الأنبياء ـ قد أشار الله إلى عظاتها تربية لهم ـ لا تعني أنهم يعرفون مثل ذلك عن جميع الأنبياء فضلاً عن التفصيلات ! ! وقد أقر المستشرق بأن التفصيلات جميعها لم تكن معروفة من محمد نفسه ! ! غير أنه استشهد في الأعلى ببعض نص من سورة البروج . وهذا من أساليب كبار المستشرقين .

لكنّ بقية أخبار المرسلين وأقوامهم ليست معلومةً لسيدنا محمد وقومه على الإطلاق ، وما عرفها إلا بوحي الله . قال الله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[(٢)] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٩ ص ٢٩٧ / ٩٨ أبو محمد عبد الملك بن هشام ج ٢ ص ٤ .

(٢) سورة آل عمران : ٤٤ .

لا ريب أنه يتوجب على الباحث معرفة المشار إليه في اسم الإشارة (ذلك) ولا يمكن ذلك إلا بقراءة الآيات السابقة لهذه الآية ، فالسورة تدل باسمها أنها تتحدث عن نبيٍّ الله عمران وعن ذريته ، فقد تحدثت أيضاً عن نبي الله زكريا وولده نبي الله يحيى . وتحدثت عن ابنة عمران ، وهي السيدة الطاهرة مريم العذراء البتول ، وعما تثيره قصصهم من العبر والعظات ، ثم قالت السورة : ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ : أي الذي ذكرنا ـ آنفاً ـ من حديث زكريا ويحيى ومريم عليهم السلام من أخبار الغيب ﴿ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ ﴾ [1] .

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ ﴾ : أي عند المتنازعين ـ لم تشهد النزاع بينهم والمقصود من هذه الجملة تحقيق كون الإخبار بما ذكر ـ سابقاً ـ عن وحي ، على سبيل التهكم بمنكريه ! كأنه قيل : إنّ رسولنا أخبركم بما لا سبيل إلى معرفته بالعقل ؛ مع اعترافكم بأنه لم يسمعه ، ولم يقرأه في كتاب ، وتنكرون أنه وحي ! فلم يبق مع هذا ما يحتاج إلى النفي ؛ سوى المشاهدة التي هي أظهر الأمور انتفاء ، لاستحالتها المعلومة عند جميع العقلاء)[2] .

ومعلوم في قصة السيدة مريم أنهم اختلفوا فيمن يحضنها ، فاقترعوا بأقلامهم فكانت من نصيب زوج خالتها زكريا عليه السلام[3] ، فقد كان كل منهم حريصاً على كفالتها .

ثالثاً : دس اعتقادي وتهرب من سطوة البراهين القاطعة :

ينتقل البروفسور « واط » بقارىء كتابه فجأةً إلى واد آخر ، إذ أتبع

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي جـ٤ ص٨٥/ ٨٦ .

(٢) روح المعاني ـ محمود الآلوسي جـ ٣ ص ١٥٨ .

(٣) وقيل إنه كان زوج أختها .

تقوله السابق بتقول جديد : « ويجب مع ذلك أن نذكر هنا بأن التمييز الغربي بين الواقعة المجردة ومغزاها ليس مفهوماً تماماً في الشرق .

أما في الشرق العربي حيث لا يقيم الناس مثل هذا التمييز فيكفي القرآن أن يقول : (أنباء) ! !

هذا مايمكن التقدم به من مسلم يحاول إقناع غربي لا يؤمن بالمعجزات ! ! »[1].

١ ـ لا تعجب من هذا ! ! فقد درج المؤلف عليه من أول كتابه إلى نهايته ! أما تراه يبني وجهة نظره ـ دون فهم ـ على كلمة من آية ! ؟ كما تغافل هذا المؤلف عن البرهان العقلي الذي أورده القرآن العظيم في تمام الآية . . ! ! وقد أوضحناه لك آنفاً !

ثم أنت تسأله : من أي مصدر علمت أن المسلمين يكتفون بالاستدلال بكلمة (أنباء) ! ؟ من أيٍّ من كتب السيرة أو التفسير أو العقيدة ! ؟ نحن نتحدى هذا المستشرق أن يشير إلى مصدر علمي واحد يستدل على صدق القرآن بالطريقة التي زعمها ! !

٢ ـ إنك قدمت لكتابك بأنك وضعته لفئة المؤرخين . . وأنك ستتخذ موقفاً محايداً من المسائل الخلافية بين المسيحية والإسلام[2] . . !

ولكن ماذا ترى الآن في هذا النص ! ؟ وماذا يرى فيه المثقف الواعي ، بياناً تاريخياً أم دساً اعتقادياً ! ! ؟

٣ ـ إن أهم هجوم يشنه علينا رجال الاستشراق المحاربون للإسلام ؛ هو اتهامهم علماء المسلمين بأنهم يأخذون فقرة من كلامهم ويتركون ما يتصل

---

(١) MOHAMMAD AT MECCA. 84 .

(٢) MOHAMMAD AT MECCA. INTRODUCTION. X

بها . . وهو زعم لا أصل له ! وإني حرصت على استيفاء هذه الناحية ، فلا أغفل كلمةً تدعم وجهة نظر المستشرق حين الاستشهاد بنص من كلامه !

ولكن هل ترى المستشرق التزم المذهب العلمي الحيادي بإيراد النصوص كاملة ، وهو المذهب الذي يزعم توفرة فيهم ، وخلو كتابات غيرهم منه . . !

لم يكتف ـ هذا المؤرخ ـ أن استشهد ببعض النص ! ! بل إنّه أغفل إيراد نص مهم يرادف الأول ويعاضده ، وهو أظهر برهاناً لمن لم يتعمق في أسلوب البيان العربي . وذلك قول الحق تبارك وتعالى في سورة هود المكية بعد أن فصل قصة رسوله نوح عليه السلام :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

أفادت هذه الآية بجلاء أن محمداً لم يتلق من أحد من الناس قصص النبيين ، فالمعهود فيه أنه أمي لم يقرأ كتاباً قطّ في حياته ، ولم يتلقّ من عالمٍ علماً ! وأن قومه أميون لا يعرفون من تاريخ المرسلين إلا لمحات يسيرة عن بعضهم ، قد توارثتها الأجيال وسارت بها الأمثال . وقد أشار الله إلى معرفتهم إياها ، كما في سورة البروج ، وما عدا ذلك فإن الله تعالى عقّب على قصص المرسلين بما يثبت أنها وحي من الله إلى رسوله ، وما أرسلت هذه الحقيقة في القرآن مجردةً عن البرهان ، بل جاء بإثبات حقيقتها البرهـان العقلي جـاراً مجاوراً لا ينفك عنها أبد الآبدين . فقد أكد البيان الإلهي أن قصة نوح وحي منه تعالى فإنها فوق علم محمد وعلم قومه ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ

---

(١) سورة هود : ٤٩ .

عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[1] ومتى تنزل عليه هذا الخطاب ! ؟ إنه تنزل في مكة المكرمة ، قبل أن يؤمن به أحد من علماء أهل الكتاب، فتأمل سطوة البرهان ! !

أرأيت لو كان كلام « واط » في زعمه أن الرسول وصحبه الأوائل تعلموا أخبار المرسلين ، وزادوا معلوماتهم تدريجياً من مجتمعهم ـ كما أفاد في النص الأول ـ لو كان لتقوله أدنى صلة بالواقع ؛ لقال للرسول أصحابه والمشركون عند نزول الآية :

نحن قومك ، ونحن نعلم هذه الأخبار قبل نزولها ، ونحن أفدناك بها ! ؟ ولو كان في الأمر أدنى شيء من ذلك لقالوا عند الجهاد : أنبذل أرواحنا في سبيل كذبة كذبناها ! ! ؟ ؟

ولكن حاشا الرسول وصحبه من زيف هذه التقولات الجانية وأمثالها ! !

ثم كيف يواصل الصحابة الإقامة على هذا الدين بإيمان راسخ متين ؛ متحمسين مستبسلين بالروح والدم والمال للدفاع عنه ونشره بين العالمين ؛ لو لم يكونوا متيقنين أنه وحي الله بقصصه وبجميع ماجاء فيه ! ! ؟

رابعاً : حيرة القارىء بين جهل المستشرق وتحامله :

إن القارىء المثقف وقد لاحظ استشهاد المستشرق ببعض آية دون تمام معناها ؛ وإغفالاً تاماً ثانية تبين وجه الدليل صراحة ؛ على أن قصص المرسلين وحي الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ ، لا بد أن يتساءل :

إما أن يكون ـ البروفسور ـ المستشرق يعلم بوجود هذه الآية في سورة

---

(١) انظر تفسير الآية في الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي جـ ٩ ص ٤٩ وروح المعاني جـ ١٢ ص ٧٥ .

هود أو لا يعلم! فإن كان يعلم ؛ فأين الموضوعية والحياد النزيه ! ؟ بل أين البحث العلمي ! ؟ والمثقف المسلم سرعان مايتذكر أن الله تعالى قد وبخ بعض اليهود بقوله : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[1] .

فإذا علم القارىء أن الأستاذ المستشرق يمنح درجات الدكتوراه في الدراسات الإسلامية ثم قيل له : إنه لا يعلم آية هود إطلاقاً ! ؟ لم تأمن أن يجيبك القارىء : أليس عاراً على العاقل أن يدعي علم ما لا يعلم . . !!؟

لقد أوقع هذا المستشرق القارىء في شك وحيرة ! فلا يستطيع أن يتقبل أي حكم يصدره ، فإنه لا يدري ما أظهر وما أبطن ؛ وما أخفى وما أعلن . . كما لا يستطيع أن يحكم ما إذا كان المؤلف ـ وهو يصدر أحكاماً بهذه الغزارة ـ عالماً بجوانب المسائل التي يتحدث عنه ويكتم علمه فيها؛ أم صدرت أحكامه عن حقدٍ وظلم وجهل ! ! ؟ مما يثير في ذهن القارىء قول الشاعر العربي :

إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة   وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

إن نقد هذا الكتاب « محمد في مكة »ـ وأمثاله ـ من شأن العلماء المختصين ، وإن المثقف الواعي ليعرض عنه ، وقد أدرك يقيناً بأنه كتاب ساقط من الاعتبار العلمي والأخلاقي !

خامساً : تورط المستشرق في كذب مفضوح :

إن « واط » قد أهمل النظر في المشار إليه باسم الإشارة في قول الحق

---

(١) سورة البقرة : ٨٥/ ٨٦ .

تبارك وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾[1] . ربما لم يتعمد إهماله ، لكنه لشدة ضعفه في اللغة العربية وقواعدها لم يعلم أنه لا بد لاسم الإشارة في العربية من مشار إليه . كما هو في كل اللغات ! !

ربما لا يؤثر هذا كثيراً في مكانة المستشرق! لكن التساؤل الذي لا يمحى من الذهن : كيف زعم أن المسلمين يرون ـ وبالأحرى يعتقدون . لأن المسألة هنا اعتقادية ـ أن الرسول وصحبه اكتشفوا أخبار الأنبياء تدريجياً ! ؟

لماذا لم يعلن أن هذا استنتاجه شخصياً!! وهو ـ كما ترى ـ توهم محض! كيف تقوّل ـ المستشرق ـ على لسان المسلمين مالم يقولوه ؛ ونسب إليهم مالم يعتقدوه ! ! بل إن عقيدتهم على خلافه تماماً ! كيف وقد تقدم تعهده أن لا يعارض عقائد المسلمين الأساسية ! ؟ فأين البحث الموضوعي ؟ بل أين الصدق إذن ! ؟

سادساً : سذاجة عنصرية لخدمة غرض استعماري عام :

إن تقوّل المستشرق « بأن العرب في الشرق لا يميزون بين الواقعة المجردة ومغزاها في قصص القرآن ؛ وبأن الغربيين يميزون ذلك . . » ماهو إلا ادعاء محض ، يحتاج إلى دليل وتحديد مصدر ، فأين الدليل ! ؟ إن النظر في كتب التفسير القديمة والحديثة يظهر بطلان هذا الادعاء ! فهي تريك إنعام نظر المفسِّرين في مغزى كل قصة في القرآن الكريم ، وكذا المربون العلماء عنوا بعظات القصص القرآني وعبره في تربية ضمائر الناس وتهذيب نفوسهم . وأقرب مثال في مقامنا هذا مااستنبطه المفسرون من عظات بليغة من قصص سورة البروج . وتأمل النص الذي نقلناه عن الإمام القرطبي منذ حين ! !

---

(١) سورة آل عمران : ٤٤ وتقدمت المسألة تامة من قبل.

انطلق المستشرق في زعمه ذاك من خطة الاستشراق والاستعمار ؛ في تحطيم معنويات المسلمين ؛ بالاستخفاف بعقولهم ، لإشعارهم باحتقار الذات وإلزامهم عقد النقص حتى أطلق الغربيون شعارهم : « الغرب غرب والشرق شرق » تجبراً وعجباً بتفوق العنصر الآري الغربي على العنصر السامي الشرقي . وهو زعم كاذب مغرور واحتيال مفضوح ، كشفت الدراسات الإنسانية بطلانه وسخفه . وقد سبق القرآن العظيم إلى تقرير المساواة في الإمكانات بين جميع الشعوب ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١) .

لعل لهذا المستشرق المسكين بعض العذر في تقولاته لجهله باللغة العربية ، ولكن القارىء النابه يرفض ذلك معترضاً : لماذا أقدم المستشرق على إبداء آراء خطيرة فيما يجهله وهو يعلم أنه يجهله ! . وهو دين إلهي مقدس عظيم ! ! وقد ارتقت به الإنسانية رقياً عالياً ! !

بل لماذا اتبع المستشرق في آرائه سبلاً ملتوية غريبة عن العلم ومناهجه وأساليبه ؛ تحت ستار البحث العلمي الموضوعي الحيادي النزيه . ! ؟

وهكذا . . فإن المخدوعين أصحاب النية الطيبة من القراء والباحثين ، مهما حاولوا جاهدين أن يبرؤوا ساحة هذا المستشرق وأضرابه ؛ فإنهم يعجزون عن التماس عذر يقبله أحد من النابهين ! ! وهذه هي المشكلة القديمة الجديدة المستعصية في دراسة ذلك الاستشراق المغرض المتحامل ! !

من الممكن أن يكون المستشرق قد أصدر زعمه احتيالاً محبوكاً ؛ بعناية زائدة في وقت مديد ؛ وبتجارب عملية على الطلاب المسلمين

---

(١) سورة الحجرات ١٣ وراجع ص٤٣ وانظر تفسير القرطبي : ١٦ : ٣٤٠/٣٤٨ .

عنده لملاحظة ردود أفعالهم ومدى اختفاء أغراض البحث عن سرعة ملاحظاتهم . . ! وإذا افترضنا أن الأسلم أن لايتهم بذلك ! فهل من سبيل يمنع القارىء المثقف ثقافة إسلامية قوية من إدانة « واط » ، متزعم المستشرقين ، بالتهور والجهل ! ؟

أساس هذه المناقشة :

إن مناقشة المستشرقين وأتباعهم ـ في تقولهم على رسول الله ﷺ بأنَّه تعلم من بشر ـ تقوم على أساسين وطيدين :

أولهم : أن الرسول ﷺ لم يتلق عن أحد من العلماء قبل النبوة ولا بعدها ، وأن الذين لقيهم لم يتصل بهم صلة تمكنه من التلقي الوفير المجدي ، بل إنه لم يسمع ممن لقيهم قبل النبوة شيئاً من هذه الأحاديث البتة . وأما الذين التقى بهم بعد النبوة ؛ وسمع وسمعوا منه ؛ كوفد نصارى نجران وبعض اليهود كعبد الله بن سلام ؛ فقد التقوا به في المدينة ـ بعد ثلاث عشرة سنة من حمله أعباء الدعوة ـ ولم يكن منهم إلا أن سألوه وأخذوا عنه وآمنوا به ، فكان عليه الصلاة والسلام معلّماً لهم وواعظاً ومنذراً ومبشراً . أضف إلى ذلك أن كل لقاء لم يكن سراً مكتوماً بل كان علناً مشهوداً .

ثانيهما : أن تقرر هل الذي جاء به محمد ﷺ نظير ماكان عندهم أم لا ؟ لا شك أن البون بين ما في الكتاب المقدس وبين القرآن شاسع ، وأن الفرق بيِّن ظاهر . وسنبيِّن ذلك فيما بعد بإذن الله(١) .

لقد رأيت مما سبق أن المستشرقين الذين يخادعون الناس بدعوى الموضوعية والحياد في البحث لم يجاوزوا كلام المشركين قديماً قيد أنملة .

---

(١) انظر كتابنا « بينات المعجزة الخالدة » ص٤٠٢/ ٤١٤ .

فإن محاولتهم طعن القرآن بتلك الخرافات الركيكة دليل على إحساسهم بقصورهم وعجزهم عن النيل منه ، لذلك زعموا أن مصدر العلم هو الجهل ، وأن ينبوع النور هو الظلام . وأن شرك الجاهلية كان توحيداً ذائعاً بين العرب . . وأن التوحيد في الإسلام مصدره شرك الجاهلية وتثليث النصارى ، فقد راموا اجتماع اليوم والأمس ؛ واستواء السّها والشمس .

فـدعهـم يـزعمـون الصبـح ليـلاً أيعمى الناظرون عن الضياء ؟

حقـائق تكشف تخـرص المستشرقين حـول قصـص القـرآن

لجّ المستشرق اليهودي « جولد سيهر » في الجحود والنكران ، فزعم أن ما جاء في القرآن من قصص حقيقي عن الأنبياء وأقوامهم مأخوذ من العهد القديم ـ كتاب اليهود ـ على الرغم من تميز قصص القرآن ؛ في وقائعها وآثارها؛ بمستوى رفيع فاضل نبيل يثير غاية الاعتبار والاتعاظ ، ويبعث على التأسي والاقتداء في التمسك بالدين ؛ والاعتصام بالفضائل والقيم . قال « جولد سيهر » :

(لقد أفاد « محمد » من تاريخ العهد القديم ـ وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء ـ ليذكّر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة ؛ الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم ووقفوا في طريقهم)[1] .

ليس عجيباً أن يرسم أعداء الاسلام في خطتهم للقضاء على الإسلام نهج التشكيك في القرآن، فيزعموا أن أخباره اقتباس من الكتاب المقدس، ولكن العجيب حقاً أن تجد بيننا ببغاوات تردد هذا الزعم وتحاول نشره في

---

(١) العقيدة والشريعة ـ جولد سيهر ـ ص١٥ ، وانظر فيه: ص١٢ و٢٠ .

بعض كتب التاريخ ، وهاهي ذي الحقائق الناصعة تدمغ هذا الباطل وتزهقه :

أولاً ـ إن (جولد سيهر) لم يأت على ذكر مثال واحد يثبت زعمه في اقتباس القرآن من العهد القديم ، فقد قذف زيفه وتهرب كعادته من تقديم الدليل . وإن مرد التشابه ـ كما نعتقد ـ في بعض جوانب قصص القرآن الكريم مع بعض ما في أسفار الكتاب المقدس إلى أنه تتضمن وحي الله إلى أنبيائه في الأصل ، وأنها وإن حرفت لكنها لم تمسخ كلياً ، بل بقي فيها بعض المعالم مما أنزل الله في القرآن الكريم بعضه نقياً خالصاً من تحريف المغرضين وتضليل المضللين .

ثانياً ـ إن النبي ﷺ أميّ لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلق من رجال النصرانية واليهودية شيئاً، وهذه حقيقة تاريخية قد استوفينا بيانها ودلائلها[١] فلن يجد أي امرىءٍ منحه الله قدراً من الفهم والعلم مسوغاً للجدل فيها . وإن قصص الأنبياء وأممهم موجودة فيما نزل بمكة من القرآن ، قبل أن يلتقي الرسول ﷺ بأحد من أحبار اليهود . فلما قدم الرسول ﷺ المدينة عاداه أحبار اليهود وكتموا عنه كما كتموا عن غيره من قبل أخبار التوراة وتعاليمها ، حتى قرعهم الله على كتمانهم دينه على الناس . قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴾[٢] .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة القطعية الصارخة لم يتورع (جولد سيهر) عن التعامي عنها واللجوء إلى سفيه المغالطات ، إذ قال : (كما

---

(١) راجع : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ٢٥٧ ـ ٢٦٥ .
(٢) سورة المائدة : ١٥ .

صار رهبان المسيحيين وأحبار اليهود موضع مهاجمة منه وقد كانوا في الواقع أساتذة له)[1] .

فأنى له حين كان في منأى عنهم بمكة أو حين أقاموا بينهم وبينه حجاباً من حقدهم الأسود وعدائهم الصريح منذ دخل المدينة ، أن يتلقى عنهم أو يذللوا له كتابهم ! ؟

فلو منحوه شيئاً من علومهم ـ فرضاً ـ ثم ناصبهم العداء أكانوا يستخزون لهجومه عليهم وتنديده بهم وفضحهم ! ! أم كانوا يطعنون في شخصه وفي رسالته بأنها قبس مما عندهم وأنه تلقى منهم ثم تنكر لهم ؟ ؟ فهل وجدتهم تجاه كشف القرآن مخازيهم وفضحهم إلا صاغرين !!؟؟

ثالثاً ـ إن أخبار القرآن عن غيب الماضي قد جاءت تصحح أخبار الكتب السابقة ، التي جعلها التشويه تنسب إلى الله من رديء الصفات ما يتنافى مع جلاله وكماله ، وتنسب للأنبياء مالا يليق ، وتحط من مكانتهم . فجاء القرآن نقياً من تلك الشوائب ، وذكر ما اتصف به الرسل حقيقة من الكمالات التي نشأهم الله عليها ، ليكونوا خير قدوة للناس. وهاأنت تقرأ أمثلة تشويههم وضلالهم :

أ ـ ضلال أصحاب العهد القديم في صفات الرسل :

١ ـ قص الله علينا قصة نوح عليه السلام في القرآن مثالاً في الصبر واحتمال أذى القوم وسخريتهم منذ فجر الحياة الإنسانية ، وأنه أبو البشرية الثاني ، إذ نجاه الله ومن آمن معه من الطوفان .

بينما تجد لنوح في العهد القديم في سفر التكوين ـ الإصحاح التاسع ـ قصة فظيعة مدهشة ، فقد ورد فيه أنه : (شرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام ـ أبو كنعان ـ عورة أبيه وأخبر

---

(١) العقيدة والشريعة ص ٢٠ .

أخويه : سام ويافث . فأخذا الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ، فلم يبصرا عورة أبيهما ، فلما استيقظ نوح من خمره علم مافعل به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته) ثم فصّل دعوته بأن يكون نسل كنعان عبيداً لنسل سام وعبيداً لنسل يافث . انتهى[١] .

فهل هذه صورة نبي معصوم قدوة، سكر فعربد فتعرى ، ثم كافأ من أحسن إليه بجزاء سنمار ، فجعل اللعنة والذلة والعبودية في عقبه إلى القيامة. . !؟ فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ! ؟ إنه جزاء يستنكره الإنسان بطبعه السليم ولو لم يكن يعرف ديناً . قال الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنـت أكـرمـت اللئيـم تمـردا

فحاشا نوحاً نبي الله ومصطفاه لهداية البشرية من فعل جهالة قبيحة نكراء .

٢ ـ وهذا سيدنا لوط عليه السلام، فقد قص القرآن على العالمين صموده ضد الفجور والعصيان، فقد ذاق مر الأذى في سبيل قمع الفجور والشذوذ الجنسي ، بينما تجد في العهد القديم في سفر التكوين أيضاً أن ابنتي لوط ـ والمفروض أنهما ربيتا على العفة والطهر ـ قد سقتا والدهما خمراً ، فاضطجعت البنت البكر مع أبيها لوط في الليلة الأولى ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، واضطجعت الصغيرة معه في الليلة الثانية . . فولدت البكر ابناً دعته : بن عمي . وهو أبو بني عمون اليوم[٢] .

---

(١) الكتاب المقدس ـ سفر التكوين ـ الإصحاح التاسع ـ الفقرة : ٢٠ـ ٢٧ ، بإيجاز ـ نشر جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الأدنى ـ ساحة النجمة ـ بيروت .

(٢) الكتاب المقدس ـ سفر التكوين ـ الإصحاح التاسع عشر ـ الفقرة : ٣٠ ـ ٣٨ بإيجاز .

٣ ـ وتجد العهد القديم يحكي عن بعض الأنبياء ، كيعقوب عليه السلام ، اتباع أسلوب من المخادعة والتلاعب ، لا تجد له في مستوى ذوي المروءة من العامة نظيراً ، فكيف بمن يعدهم الله ليكونوا أهلاً لتلقي وحيه والقيام بأعباء دعوته !؟ (١)

انظر في الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين تجد فيه : (أن إسحاق لما شاخ وكلّت عيناه عن النظر دعا ابنه الأكبر عيسو ، وأمره أن يتصيد له صيداً ويصنع منه طعاماً ليباركه قبل وفاته . فسمعت ذلك أمه رفقة ، فأمرت يعقوب ابنها الثاني أن يذبح جديين جيدين من الماعز ليأخذ بركة أخيه عيسو من أبيه قبل وفاته . وخشية من اكتشاف إسحاق الخدعة واستبداله اللعنة على يعقوب بالبركة، فقد ألبسته أمه ثياب أخيه عيسو . ولكن عيسو رجل أشعر ويعقوب أملس ، لذا فقد ألبست أمه ـ أيضاً ـ ملاسة يديه وعنقه جلود الجديين . فقدّم يعقوب الطعام لوالده إسحاق ، فقال له : من أنت؟ فقال أنا عيسو بكرك ، فقال : تقدم لأجسك ياابني، أأنت هو ابني عيسو أم لا ! ؟ فلما جسّه قال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . فباركه ، ودعا أن تستعبد له شعوب ، وتسجد له قبائل ويكون سيداً لإخوته ويسجد له بنو أمه .

ودخل عيسو على أبيه بعد خروج أخيه فقدم له الطعام مما اصطاد ، فلما اكتشفا الحيلة صرخ عيسو صرخة عظيمة ؛ مرة جداً . وقال لأبي : باركني أنا أيضاً يا أبي . فقال إسحاق : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك. فقال : أما بقيت لي بركة ! ! ؟ ؟ فقال إسحاق : قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً . . فقال عيسو : ألك بركة واحدة فقط يا أبي ! ! باركني أنا أيضاً ، ورفع صوته وبكى . فأجابه

(١) سبق لنا البحث في عصمة الأنبياء بعد النبوة وقبلها في (نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ٢٤٩ ـ٢٥٦)

إسحاق : يكون مسكنك بدون دسم الأرض ولا ندى السماء ، وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد)[1] .

أرأيت كيف صار نيل البركة قنصاً وبالخديعة أيضاً لا بالأعمال الصالحة ! ؟

أم رأيت كيف حاز إسحاق الوصاية على بركات الله يمنحها للمخادع اللئيم ! ؟ أم رأيت كيف يكون الأنبياء ـ الذين اختارهم الله لرسالته ـ من البلهاء الذين لا يفرقون بين جلد الماعز وجلد الإنسان ، ويكونون سذجاً معاندين فيصرون على معاقبة المحسن ومكافأة المحتال المسيء ، ويفرقون بين الأخ وأخيه ، ويرتضون لأولادهم البررة الذلّ والهوان !؟ وإذا كان الأنبياء كذلك ، فمن هم الظلمة والسخفاء . . !؟ ولماذا اختارهم الله وبعثهم إذن . . ! ؟

٤ ـ وحبذا لو طالعت بنفسك كيف عاش يعقوب قصة غرامه مع راحيل ابنة خاله ، فقد قبّلها مذ رآها أول مرة ، ثم خدم خاله سبع سنين مهراً لها ، فقدم له ليلة زفافه أختها الكبرى ، فلم يشعر بها مع أنها كانت غير جميلة ومريضة العينين !! ثم تزوج من راحيل بسبع سنين أخر . . [2]

٥ـ وياليتك قرأت بنفسك أيضاً كيف خدع نبي الله يعقوب خاله « لابان » فاستولى بذلك على أكبر قسط من ماشيته ؛ إذ جعل ماشية خاله تقف أمام قضبان مخططة في أجران المياه وهي وحمى ، كي تنتج ماشية مخططة !! فيفصلها عن ماشية خاله ليلحقها بماشيته ، فصار بذلك ذا ثراء واسع !! [3]

---

(١) سفر التكوين ـ الإصحاح السابع والعشرون ـ بإيجاز .
(٢) التكوين ـ الإصحاح التاسع والعشرون .
(٣) سفر التكوين الإصحاح ٣٠ ـ ٣١ .

النزعـــة العدوانيـــة فـي الشخصيـة اليهوديـــة :

هذه النصوص الملفقة في العهد العتيق لها نظائر كثيرة تستعصي على الحصر في هذا المقام ، وهي تفسر لك مظهراً خطيراً في الشخصية اليهودية .

تأمل فيه موقف نوح الذي يقابل الإحسان بالإيذاء ! ثم تأمل مواقف اليهود من الشعوب الأخرى على مر العصور !؟ كذلك اليهود على الدوام ! ! واذكر فيه موقف ابنتي لوط ثم لاحظ مواقف بنات إسرائيل في كل مكان وزمان . هل تجدها في أوج العفة والطهر !!؟ ولا تخفى عليك المخاتلة والخديعة في المواقف المنسوبة إلى يعقوب« إسرائيل » ـ حاشاه وحاشا الأنبياء جميعاً ـ ثم لاحظ كيف تثير التصرفات اليهودية عبر الزمان اشمئزاز الإنسانية ، لما استقر فيها من نزعة عدوانية .

وإن الدراسة الموضوعية لتكشف عن جذور هذه النزعة وبواعثها في التلفيقات الخبيثة في التوراة والتلمود ، وإن هذه التلفيقات في حد ذاتها خطيرة جداً ، إذ هي عدوان على الدين نفسه !

فتأمل أيها العاقل! كيف عبث هؤلاء بدينهم وحرَّفوه واعتدوا على مكانة أنبيائهم بالذات ، فهل ترتقب منهم أمانة وموضوعية في دراسة أي دين آخر!؟ فضلاً عن الدين الإسلامي الذي ينسخ دينهم ويفضح حبائلهم !؟ وهل تنتظر منهم الأمم بعد هذا أمانة وتعاطفاً في رعاية مصالحها !؟ وهل يتوقع أحد من المسلمين أن يلقى منهم أمناً وفياً وسلاماً صادقاً مع وجود أمثال هذه النصوص في ديانتهم ؟ اللهم إلا أن يكون من الحمقى المغفلين !!

ب ـ ضـلالهم فـي معرفـة الله تعالـى :

وهذا أمر يطول تقصّيه ، وحسبك منه ماقد قرأت ، لكنّا نطلعك على تصور محرفي الكتاب المقدس للصفات الإلهية ، فقد نسبوا قوم أخوال

يعقوب إلى الشرك ، فان راحيل زوج يعقوب هي ابنة خاله لابان . وقد سرقت أصنام أبيها حين هربت مع زوجها بعد أن عاش يعقوب لديهم عشرين سنة . كما يعطيك صورة أخرى عن (الله) بأنه الإله الخاص بإبراهيم وعقبه ، فليس هو إله العالمين !؟ كذا قال يعقوب : (لولا أن إله أبي إله إبراهيم وهيبة إسحاق كان معي)[1] .

لا ريب أن الأدهى من ذلك والأفدح مرارةً ، تلك النزعة الوثنية التي تصور الله تعالى ذا جسم بشري أضعف من مخلوقاته : (فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب « الإنسان » حقّ فخذ يعقوب ، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه . وقال : أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال «يعقوب» : لا أطلقك إن لم تباركني . فقال له ما اسمك ؟ فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال : أخبرني باسمك! فقال لماذا تسأل عن اسمي! وباركه هنا ، فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً : لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي . . لذلك لايأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي على حق الفخذ إلى هذا اليوم ، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على النسا)[2] .

وبعد ، فهل يقول امرؤ يتمتع بملكاته العقلية وسلامة مشاعره وأحاسيسه بأن القرآن يتحتمل أن يكون فيه اقتباس من هذه المفتريات ! ؟ فهل هذه الصفات تليق بالإله !؟ سبحانه وتعالى عما يصفون ! وهل بينها وبين صفاته في القرآن الكريم أدنى تقارب ؟ وهل ترى التشابه والاقتباس

---

(١) التكوين (٢٠٣١ و٢٩ و٣٠ و٤٢) .

(٢) سفر التكوين ـ الإصحاح : ٣٢ ـ فقرة ٢٣ ـ ٣٣ .

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] وماأكثر ورود ذلك في القرآن .

فالله قوي قادر لا تغلبه قوة من قوى الكون ، فهو خالقها المهيمن عليها . وهو الغالب على أمره لا مردّ لحكمه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2] وكل مافي الوجود مقهور له مغلوب لإرادته ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[3] وهل ترى أي أثر في القرآن لتصوير الإله أنه ذو جسم إنساني يصارعه يعقوب أو يصارعه داود فيمسك به من خصيتيه فيقهره ويخضعه لأمره ، كما نص الكتاب المقدس !؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ! يقولون على الله الكذب ويخرفون بمالا يعرفون ، فيزعمون اقتباس الحق من الباطل والنور من الظلام . . ! فهل وجدوا ذلك الاقتباس في القرآن في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[4]!؟ إن المباينة بين صفات الخالق وصفات المخلوق جلية ماثلة في القرآن ؛ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وما يقارن عاقل بين أخبار القرآن وأخبار الكتاب المقدس فيتمالك نفسه من الهتاف : أين الثريا من الثرى !؟ لكن تلك الزمرة المتعصبة الحاقدة قد طمست على قلوبها نعرات لؤم وغيظ فأعمت عيونها وأصمّت آذانها ؛ لم تفهم ولن تفهم شيئاً من هذا الحق الصراح ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[5] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٠ ومواطن كثيرة .

(٢) سورة البقرة : ٢٢٠ ومواطن كثيرة .

(٣) سورة الأنعام : ١٨ وانظر فيها الآية : ٦١ .

(٤) سورة الشورى : ١١ .

(٥) سورة يونس : ٤٢ـ٤٣ .

رابعــاً ـ القصــص الإسرائيليــة تبعـث فـي الصـدر كآبـة وضجـراً :

وليس كذلك كلام الإله قطعاً . وإذا أردت حقيقة قصص رب العالمين عن الغابرين ؛ فاقرأها في القرآن الكريم تجد صور الكفاح والتضحية والفداء والصبر على المكاره في سبيل الله من غير طمع في غنم مادي، بل احتساباً لما عند الله وتجد فيه قصصاً ترقق القلب وترهف الحس ، وتبث في الفؤاد عظات فاعلة مؤثرة ، تحمل على الاعتصام بالفضائل والقيم إيماناً بالله ؛ وتأسياً واقتداءً بالهداة إلى الله . وليس من داع لسوق أمثلة على ذلك ، فكلّ القصص القرآني شاهد عليه ، وقد اعترف به « جولد سيهر » وأشار إليه في نصه الماضي .

فهل ـ بعد هذا ـ يستوي الحجر والجوهر ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[1] .

خامساً ـ لقد فصّل القرآن الكريم ماورد في تلك الأسفار مختصراً وأوضح ما كان غامضاً ، وذكر أخباراً لم ترد فيها وصحح ماعبثت به أهواء المحرّفين .

قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[2] .

وقد ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن المهيمن : الأمين ، فالقرآن أمين على كل كتاب قبله . وروي عنهما أن معنى(مهيمناً) : شهيداً وقيل : حاكماً على ماقبله من الكتب . وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله . وقد جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب ؛ خاتمها

---

(١) سورة فاطر : ١٩ ـ ٢٢ .

(٢) سورة المائدة: ٤٨ .

وأشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاد من الكمالات ماليس في غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها . تكفل الله تعالى أن يحفظه فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[1] ولم يتكفل الله بحفظ الكتب السماوية السابقة ، فإنه تسامت حكمته ، قد جعلها مراحل انتقالية قبل نزول القرآن .

إن بين نسق القرآن وأسلوبه ومضمونه وبين نسق غيره من الكتب السماوية وأسلوبها ومضمونها أبعدَ مما بين السماء والأرض . ولهذا التباين الشاسع الجليّ الواضح ؛ انسابت قريحة الشاعر فقال :

الله أكبرُ إنّ دينَ محمد وكتابَه أقوى وأقومُ قيلا
طلعتْ به شمسُ الهداية للورى وأبى له نجمُ الكمال أُفولا
لا تذكروا الكتبَ السوالف عنده طلعَ الصَّباحُ فأطفىء القنديلا

سادساً ـ اتساق القرآن وتناقض نصوص الكتاب المقدس

مهما قلَّبت النظر في كتاب الله المجيد فلن تجد حياة الرسول اليومية مدونة فيه ، يحيكها أحد من أصحابه أو أتباعه من بعده ، كما أنك لا تجد فيه أخبار أصحابه وتنقلاتهم من بعد وفاته عليه الصلاة والسلام . فالقرآن كله كلام الله تعالى محفوظ من الدخيل والتغيير والتبديل . بينما تجد معظم الكتاب المقدس تاريخاً لبني إسرائيل من وضع وتعديل الذين دوَّنوا الكتاب المقدس وتناقلوه ، ففيه حياة رسلهم تكتب من بعدهم محكية على لسان بشري غير منسوبة إلى الله ، وفيه أخبار الأحبار والرهبان والملوك وحتى أخبار حواريي عيسى عليه السلام وأعمالهم من بعده . فكيف يكون هذا كله من وحي الله إلى أنبيائه في بني إسرائيل !؟ والواقع أنك لا تجد فيه من الكلام المنسوب إلى الله إلا جزءاً يسيراً لا يساوي نصف معشاره في تقديرنا .

---

(١) سورة الحجر : ٩ وانظر تفسير ابن كثير جـ٢ ص٦٥ .

لو أنك رتعت في رياض الذكر الحكيم لألفيت القصص القرآني متسقاً مؤتلفاً . فإن الله جل جلاله قد أورد القصص في سور متعددة ، وإنك لتجد جوانب القصة الواحدة في عدة سور ؛ للعظات الكثيرة فيها ، لكنك تلفيها متكاملة مؤتلفة على الرغم من تعدد مواطن ورودها وتباعد أزمان نزولها ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [1] .

وإذا قارنت بين قصص الكتاب المقدس تصاعدت منك الزفرات وتعالت الآهات واعتراك الضيق من التناقض الواقع فيها ، ولسنا نحب الإطالة عليك ، فهذا أمثلة يسيرة بسيطة واضحة ، لا تحتاج إلى كبير تأمل أو تحليل لاستبانة التضارب فيما بينها :

أ ـ التناقض بين العهد العتيق والعهد الجديد :

يفيد العهد الجديد أن سليمان بنى البيت للرَّب بعد خروج بني إسرائيل من مصر بنحو ٥٩٥ سنة . بينما نصّ العهد القديم على ما يلي : (وكان في سنة الأربع مائة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني أنه بنى البيت للرب)[2] .

ب ـ التناقض بين نصوص العهد الجديد :

بل نسوق إليك نموذجاً للتناقض بين نصوص إنجيل واحد من أناجيله .

فهذا إنجيل يوحنا ينسب إلى السيد المسيح أنه قال : (إنْ كنت أشهدُ لنفسي فشهادتي ليست حقاً)[3] .

---

(١) سورة النساء : ٨٢ .

(٢) انظر العهد الجديد : أعمال الرسل : ١٣ : ١٧ ـ ٢٣ والعهد العتيق : الملوك الأول : ٦ : ١ .

(٣) إنجيل يوحنا : ٥ : ٣١ و : ٨ : ١٢ ـ ١٤ .

ثم يسرد إنجيل يوحنا : (ثم كلمهم يسوع أيضاً قائلاً : أنا هو نور العالم ، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة ، فقال له الفريسيون : أنت تشهد لنفسك ، شهادتك ليست حقاً ، أجاب يسوع وقال لهم : وإنْ كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي حق)[١] .

ج ـ التناقض بين نصوص العهد العتيق :

وإليك أيضاً نموذجاً للتناقض بين نصوص سفر واحد من أسفاره ؛ فهذا صموئيل الثاني يقول : (ولم يكن لميكال ابنة شاول ولدٌ إلى يوم موتها) ويقول : (فأخذ الملك ابنيْ رصفة . وبني ميكال ابنة شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدرئيل بن برزلّاي المحولي)[٢] .

فهل يعقل أن تصدر هذه الأقاويل المختلفة المتناقضة عن مقام الله العليم الحكيم ؟ وهل يمكن للقصص القرآني الفائق المتناسق بعظاته العميقة البليغة أن ينبثق عن ذاك الخضم العكر بالتناقض المتطاحن !؟ حاشا لله ! لا جرم أنهم يفترون على الله الكذب ساء ما يعملون .

فهل يصغي هذا الصنف من المستشرقين وأذنابهم لصوت الحقيقة؟ وهل تنفتح أجفانهم لنور الحق الرباني المبين : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٣] .

وبعد فقد استبان لك زيف تقول الخصوم . فهل مع هذه الحقائق جميعاً يتشكك المتشككون !؟ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

ولماذا الرد على المستشرقين المتحاملين ؟؟ إن تعريب بعض كتبهم

---

(١) المصدر نفسه. الفريسيون: طائفة وخيمة من اليهود.

(٢) صموئيل الثاني : ٦ : ٢٣و : ٢١ : ٨ .

(٣) سورة الزخرف: ٤٠.

في البلاد العربيَّة ونشرها وانتشار مؤلفاتهم باللغات الأجنبية أيضاً بين الشباب المسلمين الذي يمموا وجوههم شطر تلك البلاد قد عرَّض الكثيرين منهم للفتنة ولاسيما الذين لم ينشؤوا في بيئة علمية إسلامية ، فانخدعوا بترهات المستشرقين المتحاملين وتخاريفهم، فصار الرد عليهم فرضاً شرعياً ، لا مناص من أدائه وواجباً تمليه الأمانة العلمية ؛ وهذا ما قصدنا أداءه . ونسأل الله أن يُلهم متقني اللغات الأجنبية المؤمنين القيام بواجبهم في هذا المضمار فيترجموا ما تدعو الحاجة إليه من بحوث ومناقشات .

إن الموقف من آراء المستشرقين ـ الذين لم يعلنوا إسلامهم ـ موقف حساس دقيق . ومسلكنا أن نستشهد بالأقوال السليمة للمنصفين منهم ، وننتقد ما تورطوا فيه من أخطاء ، وبهذا نكشف فاعلية الدين الحق على الآخرين ، ولو لم يكونوا مسلمين « والفضل ما شهدت به الأعداء » . أما المخادعون من المستشرقين فلا هوادة في تقريعهم وفضح مكائدهم . لكن من عجيب المفاجآت المخزية أن تصطدم في بعض الكتب الإسلامية بنصوص لهذا المستشرق « جولد سيهر » يستشهد بها مؤلفوها استحساناً وهم يكيلون له الثناء الحسن الجميل !! وايم الحق إنها لسذاجة بلهاء وجهالة نكراء ! ! ألم يطّلعْ أولئكم المؤلفون البسطاء على ما احتفره في كتبه من مجاري الشَّعبذة والدجل والمراوغة !!؟ أما رأوه يكيل التهم جزافاً بأسلوب من الطعن والشتم لا يرتقي إلى مستوى أحقاد أولاد الشوارع !!؟ ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) .

* * *

(١) سورة الجاثية : ٧ـ٨ .

أفتؤمنون ببعض الكتاب !

جبريل هو ملك الوحي بالقرآن إلى رسول الله

تكرم المؤلف ـ البرفسور ـ على قارئه في مقدمة كتابه بإعلانه وضعِ كتابه لفئة المؤرخين بأنه ملتزم بحياد المؤرخ . إذنْ علينا أن نستطلع بعضَ النماذج من بحثه التاريخي !

إن المؤلف قد تعمد الاقتصار في الوحي على روايات الزهري ، فجعل من مقاطع متفرقة بياناً واحداً عن الوحي . وترك الروايات الأخرى التي أعطتْ بياناً واحداً كاملاً عن ظاهرة الوحي الأول إلى محمد رسول الله ﷺ(١) .

أولاً : لا ريب أن مثل هذا التلفيق ليس عملاً تاريخياً مقبولاً ، ولاسيما إذ كان مصحوباً بالإعراض عما سواه مما يبين نواحي مجملة فيه ، أو بذكر زيادة عليه تتم بيان الحدث بأكمله .

ثانياً : إن جميع النتائج التي بنيت على هذا التلفيق ساقطة من الاعتبار العلمي ، لأنها قامت على أساس فاسد غير صحيح .

ثالثاً : تعمد المؤلف إهمال السند ، وأبعدَ النجعة ؛ فزعم عدم جدوى دراسة السند ، إذْ قال : «مهما يكن فلن يستفاد كثيراً من مناقشة

---

(١) Mohmmad At Mecca 39 - 41 .

الإسناد ، واقتراح اعتبار دلالاتِ الفِقْرات الداخلية ، وخصوصاً دراسة ما يمكن أن يسمى : (المعالم) المتنوعة للأخبار »[1] .

أضف إلى ذلك أن الروايات التي لفقها مختلفة الأسانيد . بل هي مختلفة الرواة أيضاً . فبعضها عن السيدة عائشة رضي الله عنها وبعضها عن غيرها .

ومعلوم لدى المثقفين المسلمين أن علماء الحديث قد عُنوا في منهج النقد في علوم الحديثِ بنقدِ كلٍّ من السند والمتن بآن واحد ، استبانةً للصحيح الثابت من الوقائع التاريخية ؛ وكشفاً عن الضعيف والمغلوط والمكذوب من الروايات الواصلة إلينا[2] .

رابعاً : أدرج المؤلف في أشتات كلامه المضطرب عن سورة المدثر ، أدرج قولاً غريباً ، ثم لم يعقب عليه إطلاقاً بالقبول ولا بالرفض . قال «واط» :

« ونسمع في مكان آخر أنه قبل السنوات العشر في مكة حين نزل الوحي على محمد بوساطة جبرائيل ، مضتْ ثلاث سنين كان الوحي ينزل فيها على يد إسرافيل »[3] ثم عزا ذلك في الهامش إلى تاريخ الطبري .

خامساً : ماذا يجب على المؤرخ أن يفعل إذا ذكر في كتابه روايتين متعارضتين ؟ فإن متزعم المستشرقين « واط » ، ذكر روايات الزهري وفيها اسم جبريل أكثر من مرة !! فأين ما وعد به المؤلف القارىء أن يكتب بصفته مؤرخاً بشكل موضوع حيادي ؟ فأين الترجيح بين الروايتين !؟ وأين دلائل هذا الترجيح إذا كان المؤلف قادراً ـ كما يزعم ـ

---

(١) Mohammad At Mecca 41 - 42 .

(٢) انظر منهج النقد في علوم الحديث ـ الدكتور نور الدين عتر ـ فقد أفاض في هذا بما لا داعي لسرده هنا .

(٣) Mohammad At Mecca,48.

على البحث التاريخي العلمي الموضوعي !؟

هل يحكم القارىء بأنَّ الكاتب قد أرادَ بحثاً تاريخياً محققاً مجرداً عن الأغراض الاستعمارية الكَنيسيَّة !؟ أوْ أرادَ التشكيك لغاية في نفسه ؟!

سادساً : إليك « تاريخ الرسل والملوك ـ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري » فإنه ذكر أولاً في مطلع رواياته عن ظاهرة الوحي رواية الزهري عن عائشة ، وهي التي أفاد منها المستشرق « واط » . ثم راح الطبري يورد الروايات الأخرى ، فذكر رواية عن عبد الله بن شداد، ثم ذكر أخرى عن عبد الله بن الزبير ، وهكذا إلى روايات كثيرة ، وليس في واحدة منها ذكر إسرافيل إطلاقاً[1] .

ثم بعد نحو مئتي صفحة وفي ختام أخبار المرحلة المكية ، تحدث المؤرخ الجليل الطبري عن مدة إقامة رسول الله ﷺ في مكة بعد النبوة ، فذكر روايات تنص على أنه أقام بها عشر سنين وروايات أنه أقام ثلاث عشرة سنة ، ثم وفق الطبري بين القولين ، وذلك باحتمال أن يكون أصحاب القول الأول عدُّوا مُقامه بمكة من حين أتاه جبريل وأظهر الدعوة إلى الله ، ولم يعدوا السنين الثلاث الأول ، لما بلغهم أن الدعوة كانت فيه سرية وأن إسرافيل كان صاحب الوحي فيها . أما الآخرون فعدُّوا مقامه ثلاث عشرة سنة من أول الوقت الذي أُوحي إليه فيه .

سابعاً : أقول : لم يذكر المستشرق هذا البيان حين ذكر رواية الوحي بإسرافيل ، وكان واجباً عليه أن يذكر هذا البيان ؛ أوْ أنْ يُهمل الرواية بالكلية عند حديثه عن الوحي ، كما أهملها الطبري نفسه لدى حديثه عن الوحي .

والأستاذ المستشرق « واط » يزعم في مقدمة كتابه أنه مؤرخ حيادي ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ٢٩٨/ ٣٠٩ .

فلما ذكر هذا الرواية وجب عليه أن يلتزم منهج المؤرخين العلمي فينقل الأمر بأكمله ، كما يفعل كل باحث منصف ، فقد قرن الطبري رواية الوحي بوساطة إسرافيل بقول الواقدي : « قال الواقدي : فذكرت ذلك لمحمد بن صالح بن دينار ، فقال : والله يا بن أخي لقد سمعتُ عبد الله بن أبي بكر بن حزم وعاصم بن عمر بن قتادة يُحدثان في المسجد ورجل عراقي يقول لهما هذا . فأنكراه جميعاً ، وقالا : ما سمعنا ولا علمنا إلا أن جبريل هو الذي قُرن به .

وكان يأتيه بالوحي من يوم أن نُبِّيء إلى أن توفي ﷺ » (١) .

وهذا أيضاً ما فعله محمد بن سعد في الطبقات الكبرى ، إذْ قال : «فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر فقال : ليس يَعرف أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قُرن بالنبي ﷺ . وإن علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون : لم يقرن به غير جبريل من حين أنزل عليه إلى أن قبض ﷺ» (٢) .

وهذا صنيع المحققين من مؤرخي الإسلام الأَعلام ! وهذا منهجهم ! ذكروا الصواب ثم ذكروا قولاً غير سليم وأبانوا خطأه ، وهذا

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ـ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري جـ٢ ص ٣٨٦/ ٣٨٧ .

(٢) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٩١ . ومراد أهل العلم في رواية ابن سعد أن جبريل تفرد بالوحي بالقرآن بدلالة قولهم « لم يقرن به غير جبريل . . » أما الوحي بغير القرآن بوساطة غير جبريل فقد ورد في مسائل يسيرة في كتب السنة؛ معروفة عند أهل العلم . وقد خلط بعض الباحثين بين هذا وذاك لقلة خبرته بمذاهب المستشرقين . ولو علم الباحث أنهم يفرقون في المصدر بين القرآن والسنة لما تورط في قوله . واعلم أن القرآن نصّ صراحة على أنه وحي الله بوساطة جبريل ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ . وغيرها كثير . وإن العلماء جميعاً قد نصوا في تعريف القرآن على أنه « وحي الله تعالى إلى محمد ﷺ بوساطة جبريل عليه السلام » فكيف يلتبس الأمر بعد هذا على الباحث!؟

ترجيحهم : فالعلماء يعرفون رواية جبريل ، ويعرفون أن جبريل كان الملك الوحيد للوحي بالقرآن إلى محمد بن عبد الله ، وأن غيره لم يكلف بالوحي بالقرآن إطلاقاً ، فأسقطوا بذلك اعتبار الرواية العليلة التي شذتْ وخالفتْ الروايات الكثيرة الصحيحة سنداً ومتناً .

ويسأل القارىء « واط » متزعم الاستشراق : إذا رفضتَ دراسة الإسناد، فأين منهجك في اعتبار المقاطع الداخلية للروايات ! ؟ وأين دراستك لما أَسميته « معالم » الروايات المختلفة ! ؟

أَتضعُ المنهجَ لتعملَ به دائماً ؟ أمْ لموقع دون موقع ولمسألة دون غيرها !؟ وهل يدخل كتمان الوثائق التاريخية في البحث الحيادي أم في التحقيق العلمي الموضوعي !؟ أم في ماذا !؟ ما الوصف الحقيقي لهذا التصرف !؟ وهل أخذت معلوماتك عن كتب التاريخ العربية أم عمن اشتهروا بهذه النماذج من الصدق والأمانة والتحقيق ! ؟

كيف يقبل من « واط » أن يُورد طرفاً واحداً من قضية واحدة ويُهمل طرفاً آخر ! وكيف ساغ له فعل ذلك وقد رواها كاملة الكتابان اللذان نقل المسألة عنهما من مصادر التاريخ التي يؤثرها - هو وأضرابه - على كتب الحديث الصحيحة . فأين يذهب ! ؟

ألم يأخذ على نفسه العهد في مقدمة كتابه ببحث موضوعي حيادي ؟ ألمْ يَرَ في تصرف أسلافٍ له من أهل الكتاب ما يكفي للاتعاظ والاعتبار ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] .

هل العجيب أن يفعل المستشرقون هذا! أم العجيب أن يتوهم بعض

---

(١) سورة المائدة : ١٣ وانظر سورة البقرة : ٧٥ والنساء : ٤٦ والمائدة : ٤١ .

أبناء المسلمين ، أن لدى هؤلاء منهجاً علمياً حيادياً للبحث في العلوم الإسلامية ، فيذهبوا للإفادة منه !!؟؟ كيف وقد انكشفت أخيراً الأستار عن الأسرار ، ولم يبق متسع للتسويغ والاعتذار ! ؟

هل يرى الباحث العاقل العادل أدنى تقاربٍ بين منهج المؤرخين المسلمين ومنهج المستشرقين ؟! أين الثُريا من الثرى !؟ .

* * *

هيمنة الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم

إنَّ استطلاعك آنفاً تفصيلات ظاهرة الوحي وخصائصه ألقى الثقةَ التامةَ في أعماقك بأن النبوة هبة ربانية ، لا أثر لكسب العبد فيها ، وإنما يهبها الله لمن يشاء من عباده دون سعي منه إليها ، إذ لا تجدي في استجلابها جهود ولا في دفعها مقاومة أو انصراف ، وشواهد ذلك كثيرة متعاضدة الدلالة ، ذكرنا ـ من قبل ـ أهمها ولم نستقص سائرها .

إن إدراك هذه الحقيقة لا تحتاج إلى كبير فلسفة ولا إلى غوص في فنون علم المنطق وبراهينه ، بل تهدي العاقل إليها وقائع الوحي وحقائقه الثابتة في أهم الوثائق التاريخية الدينية ؛ في القرآن والحديث والسيرة النبوية . . وأنت لا تعجب إذا جحد ذلك امرؤ غارق في غياهب الجهل أو ملحد غافل عن المعارف اليقينية الإسلامية ، ولكنك سرعان ما تتملكك الدهشة إذا علمت أن امرأً يزعم أنه مؤرخ مؤمن موحد يبحث بحياد موضوعي قد أنكر هذا الحقيقة العظيمة البروز، الشامخة الذرى ، في سيرة سيد الورى محمد عليه الصلاة والسلام .

قال « واط » : «ومن المهم أن نعرف ما إذا كان لدى محمد أي طريقة لاستجلاب الوحي ، ولا نستطيع التأكد بأنه كان يضع فوقه الدثار لهذا الغرض . وفي أغلب الاعتقاد أنَّ الوحيَ تنزل عليه في البداية بصورة غير متوقعة . .

وعلى كل حال فمن المحتمل أنه قد طور أخيراً بعض الوسائل التقنية للإصغاء ، ربما كان ذلك أثناء تلاوته القرآن متمهلاً في الليل.

مرة أخرى، هذه الحقيقة ـ إذا كانت هي حقيقة ـ إن محمداً كان أحياناً يستحضر تجاربه في الوحي بوساطة الإصغاء أو التنويم الذاتي أوأي اسم نحب أن نُسميه به ـ خارجة عن حكم رجل الدين بالصحة »[١] .

وسنكشف زيف مزاعم المستشرق في الردود التالية :

أولاً : خصائص الوحي تلزم بالإيمان بربانيته :

يبدو أن تلك الفكرة التي أنتجها « واط » جاءت تبعاً لزعمه أن الوحي نتاج خيالي أو فكري لمحمدٍ ﷺ[٢] ـ لذا وجد مساغاً ليزعم أنه يستثيره في نفسه بطريقة مفتعلة ـ . فالوحي بالتالي ـ في زعمه ـ نتاج بشري . لكنه أقر بجلاء أنه لم يكن في البداية متكلفاً مصنوعاً . فقد وفاه بصورة غير متوقعة . وهذا يثير استغراباً كبيراً لدى الباحث!!؟ فما الذي ميَّز الوحي الأول من غيره في هذا ! ولماذا لا يكون بعده تنزلات تتسم بالوصف نفسه ترد إلى محمد ﷺ على غير ترقُّب منه !!؟؟ ثم هل جاءت حوادث السيرة وحقائق تاريخ الوحي بشبهة برهان على أنه كان بتعمل وكلفة!؟ أم جاءت تثبت بدلائل اليقين أن جميع تنزلات الوحي كانت مستقلة تماماً عن شخصية الرسول خارجة عن نطاق إرادته وتطلبه ومدافعته !؟ بل كانت مهيمنة على شخصيته وإرادته ونزوعه ! ! ؟

لقد ذكرت مصادر السيرة أن الوحي كان يتنزل على الرسول الأمين ﷺ في أي ساعة من ليل أو نهار قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً ، واقفاً أو راكباً ، منفرداً أو بين أهله أو بين أصحابه في سفر أو حضر . ومن تأمل

---

(١) Mohmmad At Mecca 57 - 58 .

(٢) Mohmmad At Mecca 52 - 57 .

حنايا السيرة النبوية العطرة وجد تفصيلات ذلك كله [1]! ! .

إن الوحي الإلهي خارج عن تطلب الرسول واستجلابه ، ويكفي ملاحظة دلالة فترة الوحي ، إذ انقطع عن الرسول مدة غير قليلة ، وهو في غاية التلهف للقائه . كما مكث النبي ﷺ شهراً لا يأتيه الوحي وهو أحرص ما يكون حينئذ على جواب يدفع به إحراج تساؤلات اليهود . ولما اشتدت أشواق الرسول إلى كثرة الوحي قال لجبريل « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » . فنزلت الآية ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[2] .

ثانياً : تجاهل المستشرق أن مزاعمه الزائفة تطعن في اعتقاده بالوحي إلى موسى وعيسى أيضاً .

قدم « واط » زعمه طعناً عاماً دون تحديد ، فما « الاستماع الفني » الذي نسبه إلى الرسول الكريم ؟ ما أوصافه ؟ وما أوصاف ما أسماه « التنويم الذاتي » ليرى الباحث إمكانه ومدى التوافق ـ حسب زعم واط ـ بينه وبين وقائع السيرة النبوية ! !

ولو زاوله أي إنسان ؛ هل يثير فيه شيئاً يمكن أن يداني الوحي إلى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ! ! ؟ ؟ وأن القسيس « واط » لم يتعرض لذكر ما تؤدي إليه مزاعمه في الوحي ، وهو كثرة ظهور الوحي وأنباء الغيب . . وسائر المعجزات العقلية والحسية[3] على كثير من الناس في كل زمان ومكان ، ما دام شيئاً يمكن ـ في زعمه ـ أن يتكلفه أي إنسان إذ لا يتجاوز طاقاته البشرية ! ! .

---

(١) راجع خصائص الوحي ص١١١ ـ ١٢٨ .

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما . والآية في سورة مريم : ٦٤ .

(٣) انظر أقسام معجزاته ﷺ في كتابي : بينات المعجزة الخالدة ص ٥١ ـ ٧٧ .

ولماذا لم يعلن الدكتور القسيس أنه يقدر شخصياً أن يأتي بمثل ذلك ! ! ؟ ؟ وما الذي منعه أن يفعل على الرغم من تقادم الزمن على زعمه حتى بلغ من العمر أرذله ! ! ؟

ولماذا تجاهل القسيس « واط » أن ذلك الزعم الزائف يطعن في الوحي إلى الرسولين الكريمين عيسى وموسى عليهما صلوات الله وسلامه!!؟؟ وماذا يفعل « واط » بعد هذا بمسؤولياته الخاصة في الكنيسة ! ! ؟ ؟

ثالثاً : إعراض المستشرق عن وثائق الوحي الثابتة :

لو نظرت في تفصيلات ظاهرة الوحي وخصائصه لوجدت حديث عمر بن الخطاب عن قدوم جبريل بصورة رجل إلى رسول الله ﷺ ومساءلته وإفادة الصحابة عن أركان الإسلام والإيمان وعلامات قيام الساعة ما كان إلا صحواً بغير نوم وجلوساً بغير دثار ، ودون سابق تلاوة أو تسمع فني مبتكر في عصر الأمية وجزيرتها ! ؟

وحديث عمر هذا صحيح تماماً ، مروي في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما ، وأنت يا« واط » استشهدت بأحاديث من البخاري ، وجعلته من مصادرك في مقدمة الكتاب ، فلا يمنع من قبول هذا الحديث أمر علمي من داخل النص أو خارجه! اللهم إلا أن تؤدي البواعث الاستشراقية دوراً سلبياً ههنا خاصة ! !

ومما يثير انتباه القارىء عدم ذكر المؤلف هذا الحديث المهم في الوحي ، بل عدم ذكره جميع تفصيلات ظاهرة الوحي التي أسلفنا بيانها - فيما عدا ما أشرنا إليه من روايات الزهري - ثم خوض المستشرق في تفسيرات للوحي كثيرة غير مبنية على أساس إطلاقاً . . ولا يساعده على إيرادها شيء لو كان ذكر تفصيلات الوحي كما وردت في أوثق مصادر التاريخ ! ! فسبب إعراض المستشرق عن ذكرها إنما هو دلالاتها البليغة

وبراهينها المفحمة التي تنسف تقولاته في اليم نسفاً . ولم يكن هذا الإعراض أكثر من التزام للمنهج الاستشراقي في الأمانة العلمية وفي البحث الحيادي الموضوعي المعهود ! !

استطلع الآن وثيقة ثانية من وثائق الوحي إلى رسول الله ﷺ : روى البخاري أن يعلى قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أرني النبي ﷺ حين يوحى إليه . قال : فبينما النبي ﷺ بالجعرانة ومعه نفر من أصحابه جاءه رجل فقال : يارسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب؟ فسكت النبي ﷺ ساعة فجاءه الوحي ، فأشار عمر رضي الله عنه إلى يعلى فجاء يعلى وعلى رسول الله ثوب قد أظل به ، فأدخل رأسه ، فإذا رسول ﷺ محمر الوجه ، وهو يغطّ ثم سري عنه . فقال : أين الذي سأل عن العمرة ، فأتي برجل . فقال : اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات ، وانزع عنك الجبة ، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجتك[1] .

أفادتنا هذه الوثيقة الصريحة أن رسول الله ﷺ قد نزل عليه الوحي في سفر . فأين التحضير الذي تقوله المستشرق « واط » ! ؟ أين إثارته بتلاوة متمهلة للقرآن ليلاً ! ؟ وأين طريقة التسمع التقنية ! ؟ وأين اتخاذه الدثار !؟ بل كان الرسول في حالة عادية طبيعية تماماً في نفر من أصحابه في سفر . وسكت النبي ﷺ ساعة ولم يجب السائل على مسألته اليسيرة ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾[2] .

ثم استطلع عناء زيد بن ثابت واحتماله . قال زيد بن ثابت : أنزل الله

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي. واللفظ من صحيح البخاري ـ كتاب الحج ـ باب غسل الخلوق من الثياب . وعند مسلم في باب مايباح للمحرم . والنسائي في باب الخلوق للمحرم من كتاب الحج أيضاً .

(٢) سورة النجم : ٣/ ٤ .

على رسوله وفخذه على فخذي فثقلت حتى خفت أن ترض فخذي »[1] .
وقالت عائشة رضي الله عنها « وإن كان ليوحى إليه على ناقته فتضرب جرانها ، من ثقل ما يوحى إليه »[2] .

هذه الوثائق من جملة الوثائق الكثيرة التي تكشف زيف تقول المستشرق وفساد غرضه في الإعراض عن إيرادها واستبانة دلالاتها ـ لو افترضت أنه بلغ في العلم رتبة الاطلاع عليها وفهمها ـ فقد تجلى لك بوضوح أن الوحي أمر إلزامي غير مرتقب ، وإنك تجد ههنا دلائل إضافية تبين أن الوحي خارج عن إرادة محمد ﷺ ، مهيمن على ذاته ، فإن هذه الأعراض الجسدية وآثارها على «الغير» لا يمكن أن تستجلب ولا أن تدفع . ويزيد هذه الحقيقة جلاء سماع الرسول ﷺ صوتاً يبلغ آذان الجمهور حوله كدويّ النحل[3] . وهذا يكشف عن تغاير ظاهرة الوحي تغايراً تاماً عن أي تكلف شخصي كالتنويم الذاتي ونحوه . والحق أن المستشرق « واط » لو التزم جانب الإنصاف لأعلن لدى إقراره بحصول

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ـ تفسير سورة النساء .

(٢) رواه الإمام أحمد والبيهقي في الدلائل : و(الجران) : باطن العنق . انظر شرح المواهب ج ١ ص ٢٢٩ وتفسير ابن كثير ج٤ ص ٤٣٥ وفتح الباري ج ١ ص١٧ .

(٣) نص على ذلك حديث عمر بن الخطاب رضي اللهعنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل. فأُنزل عليه يوماً. فمكثنا ساعة ثم سري عنه. فقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ـ إلى عشر آيات منها من أولها» وقال: «من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة، ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم زدنا، ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، اللهم أرضنا وارض عنا» أخرجه الترمذي بلفظه: كتاب التفسير ـ باب ومن سورة المؤمنين. وأخرجه النسائي والإمام أحمد والحاكم وصححه.
وانظر فتح الباري ج١ ص١٥ وشرح المواهب ج١ ص٢٢٩ وجامع الأصول ج١١ حديث ٨٨٤٧ طبعة دمشق.

الوحي الأول عن غير ترقب ـ أن الوحي إلى محمد خارج عن ذاته وإرادته وتطلعاته ، ولشهد أن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً .

رابعـاً : التنفير من علماء الإسلام من خطـة المستشرقين فـي تضـليـل الناس :

دأب ذلك المستشرق على إيراد كلمة : رجل الدينTheologian في كل أمر يريد أن يرده زاعماً عدم صحته . إنما عنى بها ـ حسب سياق كلامه ـ العالم الإسلامي المتمكن من علومه . ومن جملة ذلك زعمه : أن النبي ﷺ يستحضر الوحي بوساطة التنويم الذاتي ـ كما أسماه ـ وأن الحكم على زعمه هذا بالصواب أو الخطأ خارج عن اختصاص العالم الإسلامي المختص . لماذا جاز لمن زعم أنه مؤرخ أن يتطاول ويعطي لنفسه ـ بوقاحة ـ حق الوصاية على حقائق دين الله تعالى وعلى عقول علمائه، وتحت ستار البحث التاريخي، ينكر ما ينكر ، ويضيف ما يريد ، ويطعن كما يهوى ، ويورد مزاعمه الباطلة جزافاً بغير دليل ؛ على أنها حقائق وأن ما عداها باطل . ! ؟ ثم يزعم أن ذاك اختصاصه فيجب قبول أحكامه فيه ! ومن أجل حماية مزاعمه من الفضح والزيف أوجب المستشرق على القارىء أن يرفض أقوال علماء الإسلام وتفسيراتهم ومناقشتهم العلمية المدعمة بالبراهين الساطعة والدلائل الدامغة على ماتحصل في التاريخ حقيقة .

لماذا يجب رفض أقوال علماء الإسلام في هذه المواطن ! ! ؟ ؟ ألأنهم ساقوها مجردة عن الدلائل المعقولة ـ على طريقة المستشرق ـ أم لأن المستشرق عاجز عن الصمود أمام صولة الحق الذي يبينون ! ؟ أم لأن بحوثهم ودلائلهم تنسف مزاعمه ومزاعم أضرابه فتجعلها هباء منثوراً ! ! ؟

هل أنت في القرون الوسطى حيث حجر رجال الكنيسة على العقول

وكمموا الأفواه عن قول الحق والدفاع عن الحقيقة ! ؟ لقد زعموا أن لتلك البحوث أسراراً خاصة بهم « أسرار الكنيسة » فهل تريد أن تعود ـ من خلوات كنيستك ـ بالمجتمع الإنساني إلى تلك القرون المظلمة القاتمة !؟

إن الإنسان المعاصر المثقف الواعي يزن المسائل بميزان الحق والمنطق السليم ، فما كان صواباً أخذ به وما كان غير ذلك ضرب به عرض الحائط . إذا كانت أساليب المخادعة تنطلي زمناً فإنها سرعان ماتنفضح . . وإذا خدعت بها أناساً بسطاء لا علم لديهم فإن العلماء والعقلاء ينتبهون لها وينبذونها . .

إن القارىء النبيه يطل على المستشرق يطالبه : ما دمت قد عجزت عن نقض حقائق الوحي التي تمسك بها علماء الإسلام ، كما دلت عليها النصوص صراحة ، فأنت مطالب أن تورد ـ على الأقل ـ أدلة على صحة كلامك!! فأين هي الأدلة المقنعة بصحة مزاعمك ونفي البطلان الفاضح عنها !؟

إن مزاعمك الزائفة المغرضة تتزاحم في صفحات الكتاب الصغير ، والذي يسمع بها يعجب كيف وجدها عارية عن الأدلة، شاذة عن أي أسلوب علمي مقبول . . انقضى عجبه وثار تساؤله :

لماذا أرسل ـ « واط » ـ مزاعمه هكذا سبهللاً!؟

أقول : بناء على طريقة الاحتمالات ؛ وبالأحرى حيلة الاحتمالات ؛ التي اعتمدها المؤلف في كتابه ؛ يتمكن كل قارىء لبيب أن يردّ على المؤلف بقوله :

يحتمل أن يكون المستشرق جاهلاً بهذه الموضوعات جهلاً مطبقاً ، ويحتمل أن يكون اطلع عليها وعجز عن فهمها !!

ويحتمل أنه استحال عليه أن يحيك شيئاً من البراهين ليدافع به الخلط والخبط عن تفكيره ونهجه!!

أجل يستحيل عليه وعلى غيره إلى الأبد أن يورد أدلة معقولة مقبولة على مايخالف الحقائق الإسلامية . ذاكم هو التحدي الكبير!! ذاكم من براهين الحق المبين!! ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الأنبياء : ١٨ .

زعمهم أن القرآن من إلهام الرسول الذاتي

ذهب المستشرقون وملاحدة العصر إلى رأي جديد ـ في نظرهم ـ فهم يُسلِّمون بأن محمداً صادق عاش حياة مستقيمة شريفة عفيفة ، زهد في الدنيا واستعلى على مطامعها وشهواتها . ويزعمون أنه لما رأى الناس في فساد ، ورأى نفسه قد علم ما لم يعلموا ، وأدرك ما قصرت نفوسهم عن إدراكه ، فخُيل إليه أنه مرسل إليهم من الله تعالى لإصلاحهم قال المستشرق اليهودي المجري (جولد سيهر) :

« ففي مكة كان [أي محمد] يشعر أنه نبي يتمم برسالته سلسلة رسل التوراة ، وأن لهذا عليه ؛ مثل أولئك الرسل ؛ أن يقوم بإنذار أمثاله في الإنسانية وإنقاذهم من الضلال » .

ثم قال : « ففي العصر المكي جاءت المواعظ ، التي قدم فيها محمد الصور التي أوحتها إليه حميته الملتهبة ، في شكل وهمي خيالي حاد تلقائي ذاتي . . . بل يُظهر لجموع معارضيه ومناقضيه العقيدة السائدة في نفسه ؛ عن قوة الله خالق العالم وربه وسلطانه غير المحدود ، وعن اقتراب يوم الحساب، الذي يتمثله ويراه في الرؤى الوحيية، فينتزعه من راحته انتزاعاً » .

ثم يعمم حكمه على الرسل جميعاً فيزعم أن « الرسالة التي يأتون بها

بدافع **إدراكهم المباشر** ، وكذلك المعارف الدينية التي يوقظونها »[(١)].

وإلى مثل هذه المزاعم ذهب درمنغام ، فرأى أنَّ محمداً كان مستاءً من أوضاع قومه وأصنامهم وخرافاتهم ، وأنه اطلع على النصرانية واليهودية ، وعرف أن الله يبعث للأقوام كلما ضلوا رسولاً ينقذهم ، ثم قال : « ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقاً ، وجعل يقضي الأسابيع ومعه قليل من الزاد ، وروحه تزداد بالصوم والسهر والإدمان على تقليب فكرته صِقالاً وحدة ، ونسي الليل والنهار والحلم واليقظة . . وجعل يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار أو مستلقياً في الشمس أو سائراً بخطوات واسعة في طرق الصحراء الحجرية . وكأنه يسمع الأصوات تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالته ، وقضى ستة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه عاقبة أمره . . وفيما هو يوماً نائم في الغار جاءه ملك فقال اقرأ . . »[(٢)].

نبدأ المناقشة بتمحيص الأقوال الواردة ، لنعرف هل هي صحيحة نقلاً وعقلاً ؟ أم هي باطلة نقلاً مرفوضة عقلاً ؟ .

تعال معي نُنَقِّب بطونَ كتب الحديث ، بل السيرة والتاريخ أيضاً ، لترى هل ورد فيها شيء من تلك الحوادث التي زعمها هذا المخلوق وأمثاله !

صحة نفسية وعصبية وافرة مدى العمر :

ستجد أن الرسول قد خلا بنفسه في غار حراء ، يتعبَّد كما ورد في الأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما ، لكنك بعد أن تجوب بنظرك

---

(١) انظر العقيدة والشريعة لجولد سيهر - معرَّب ص١٩ و٢١ و٧٧ طبعة ثانية دار الكتب الحديثة - مصر .

(٢) الوحي المحمدي رشيد رضا ص٨١ طبعة خامسة - مطبعة صبيح وأولاده .

آفاق المراجع لترى هل نسي محمد الليل والنهار والحلم واليقظة وقضى الساعات الطوال جاثياً في الغار أو مستلقياً في الشمس ، وأنه بقي ستة أشهر كذلك . لو فتشتَ عن مثل هذا لارتد إليك طَرْفك خائباً يائساً ولقذفتْ أمواجُ فؤادكَ الغثاءَ الذي قاءته عقلية الرجل الفرنسي (درمنغام) أو غيره ، دون أن يأبه ما إذا كان لادعائه بعض الصلة بالحقيقة أم لا . . لقد استفرغ جهده ليجلب للناس أسطورة ، توهم أن محمداً قد خارت في الغار قواه العقلية والعصبية والنفسية ، وسيطرت عليه الهواجس والخيالات والأوهام نحواً من ستة أشهر ـ حسب زعمه ـ فأدخل ذلك في روعه أنه غدا رسولاً من الله . ولكنك تعلم أن الذي يقع فريسة تلك الحال المرضية المزعمة لا يعقل أن يصدر عنه الحديث عن الإلهيات والنبوات في أسمى صورها ولا التشريعات الناجعة لحل أعتى مشكلات الحياة . ولا ذلك الذكر الحكيم بأسلوبه الأخاذ البليغ المعجز . . فأين يذهبون . . ! ؟ .

هذا تاريخ الأدب العالمي برمته ، فَتِّشه بدقة وحصافة، هل تجد فيه أديباً أُصيب ببعض ما نسبه هذا الحاقد (درمنغام) وأمثاله إلى رسول الله ﷺ زوراً وبهتاناً ، ثم أنتج ذاك الأديب في خياله وهوسه نصاً أدبياً معقولاً !!؟؟ فكيف يتوهم العاقل ذلك في صدور كتاب الإعجاز الخالد الذي قعدت همُّ أذكى الأذكياء من البلغاء والفصحاء والعلماء عن معارضته !؟؟ بل كيف يستسيغ عاقل سليم القلب أن يتهرب من الإقرار بأن القرآن العظيم تنزيل من الله العزيز الحكيم !!؟؟ .

لذلك فما عليك إلا أنْ تضرب عن ذكر مزاعمه إعراضاً ، فهي زائفة عقلاً باطلة نقلاً . وازْنُ بفؤادك وعقلك إلى أصح ما ورد بهذا الصدد ، وهو ما رواه البخاري ومسلم . وقد ذكرنا لفظ البخاري في مطلع هذا

الباب [1]. وعليك أن تنتبه دائماً إلى أن المستشرقين يشوهون الأقوال والحوادث أو يختلقونها ، ثم يقدمون مزاعمهم تلك على أنها وثائق علمية لا جدال فيها ، مع أنها مفتراة لا صحة لها ، فلا يتقبلها أحد إلا الجهلة والسفهاء والمخدوعون [2].

الجنـون والعبقريـة لا يجتمعـان :

ومضى المستشرقون يقلبون الرأي ، فزعموا أن محمداً رجل عبقري ازدادت أفكاره حِدة وصقالاً بعزلته .

فإذا كان الحديث عن العقيدة والتشريع صادراً عن نبوغه ، فلماذا لم يحدث الناس عن شيء من ذلك طوال الأربعين سنة السالفة من عمره !؟ ولماذا لم ينقل لنا التاريخ عنه أنه قد أبدى بعض أفكاره الإصلاحية لقومه قبل . . !؟

والحقيقة أن محمداً لم يستشرف النبوة ، ولم يتطلع إليها ، ولم يطمح ذات يوم فيها . فهل حديثه بهذا الأمر الجلل الخطير مرة واحدة دون تمهيد دليل على صدوره عن فكره اللامع ، أم هو دليل على أن شيئاً لم يكن لديه عهد به ، قد جاءه وأُمر بتبليغه . وأنه ليس إلا وحياً أوحاه الله إليه ! ؟ .

لقد حار المستشرقون في نبوة محمد ﷺ حَيْرة الجاهلين ، أينسبون القرآن والوحي إلى غيره ، فيزعمون بأنه يلقفه من هنا وهناك ـ كما رأيت مزعمهم من قبل ـ أم يردونه إلى ذات محمد وشخصه، فيزعمون أن ما جاء به نتاج الفكر العميق **والمشاعر المرهفة فهو شاعر أو كاهن** ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ

(١) راجع نص الحديث: ص١٠٠ ـ ١٠٢.
(٢) وقد كشف ذلك في فصول من « الأحرف السبعة في القرآن ».

﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [1].

وكما زعم (درمنغام) أن محمداً قلّب أفكاره حتى زادها حدة وصقالاً ، زعم (جولد سيهر) أن رسالات الرسل إنما هي حصيلة إدراكهم المباشر ومعارفهم الدينية التي حفظوها حين أهملها الناس وغفلوا عنها .

ما الرسول ـ في نظر المستشرقين ـ إلا متعلم مفكر ، فأي فرق بينهم وبين الجاهليين في هذه المسألة ؟ ويصورون الرسول إلى جانب كونه متعلماً مفكراً ؛ أنه رجل الرُّؤى والأوهام والخيالات التي ملكت عليه نفسه ، فصورت له يوم الحساب وانتزعته من راحته انتزاعاً ، وصورت له قدرة الله وحكمته ، حتى توهم بأنه يتلقى خطاب ملك الوحي فيبلغه بأنه رسول الله . . فهذا هو الوحي النفسي . .

لو أَعْمَلتَ فكرك بتجرد أَتحكمُ على رجل تتراءى له الأخيلة وتدخل نفسه الأوهام أنه إنسان عاقل ؟ أم تحكم بأن في عقله لُوثةً إنْ لمْ تقلْ إنه مجنون ؟ .

كذلك قال المستشرقون كقول المشركين قبلهم . . تشابهت قلوبهم المريضة ونفوسهم المتجبرة . فزعموا ، تخلصاً من الحقيقة ، اجتماع عمق الفكر وقوة الذهن مع الجنون والخبال في امرىء واحد ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [2].

ولو نظرت في الشريعة الإسلامية وما فيها من حكم ومواعظ وأحكام تشريعية سامية وأخلاق رفيعة لأثار فيك تساؤلاً : هل يصدر كل ذلك التعقل والحكمة عن الجنون واختلال المشاعر . . ؟ ومتى كان الجنونُ

---

(١) سورة الحاقة : ٣٨ ـ ٤٢ .

(٢) سورة الدخان : ١٣/ ١٤ .

منبعَ الحكمة ، والفسادُ مصدرَ الخير ؟ .

ثم انظر في سيرة سيد الخلق محمد ﷺ ، هل تراه كان مبتلى بالغفلة والبلاهة فيتراءى له ما يتراءى ؟ أم تراه بنى مجتمعاً قوياً على دعائم وطيدة ، وقاد معارك النصر والظفر ، وأسس دولة عظيمة على أُسس منيعة منحتها قوة للاتساع بعده من جبال الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً ؟ إن محمداً والرسل قبله كافةً، قد اشتهروا بالتعقل والنباهة والفطنة قبل النبوة وبعدها ، يعترف لهم بهذا أتباعهم وأعداؤهم على السواء .

وهنا تتيقن أن مثله في نباهته ويقظته وذكائه لا تختلط عليه الأمور ولا تغلبه الأوهام والهواجس .

مشاكلة دعوى المستشرقين في الوحي النفسي دعوى المشركين :

ولعلك يلج بك العقل فيأبى التسليم بأن دعوى المستشرقين في الوحي النفسي مشاكلة اتهام المشركين الرسول بالجنون .

فإليك ما زعمته قريش على لسان عتبة بن ربيعة مرةً وعلى لسان جماعة منهم مرة أخرى . هاهو ذا سيد قريش : عتبة بن ربيعة ، يتوسط بين رسول الله وبينهم لإصلاح ذات البين ، فيعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فيقول : يا بن أخي إن كنتَ إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإنْ كنتَ تريد به شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإنْ كنتَ تريد به مُلكاً ملّكناك علينا ، وإنْ كان هذا الذي يأتيك رَئياً تراه ولا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يُداوى منه . فقال رسول الله : « أو قد فرغتَ يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم ، قال : « فاستمع مني » قال : أفعل . فقرأ

عليه رسول الله ﷺ آيات من أول سورة فصلت[1] . . :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [2] .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها ، وهو يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبة أنصتَ لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه ، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ فأنت وذاك » فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلِفُ بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءَكَ يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قطُّ ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه . فو الله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ ، فإنْ تُصبه العربُ فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ؛ فملكه ملككم وعِزّه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

وقد روى الحافظان البزَّار وأبو يعلى الحادثة نفسها على غير هذا النمط ، غير أن سياق ابن إسحاق أشبه ما عندنا ـ كما قال ابن كثير ـ والله أعلم [3] .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج١ ص٣١٣ ـ ٣١٥ تحقيق محيي الدين عبد الحميد طبع المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر. وانظر في ذلك ما رواه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير ابن كثير ج٣ ص٦٢/ ٦٣ .

(٢) سورة فصلت: ١ ـ ٤ .

(٣) تفسير ابن كثير: جـ ٤ ص٩٠/ ٩١ .

وهكذا ترى أن المشركين يزعمون أن بعض الجن يتراءى له فيوهمه أنه رسول. وأن المستشرقين لم يبعدوا النجعة عن قولهم ، والظاهر أنهم قد ولدوا رأيهم من رأيهم ولم يختلفوا عنهم بشيء ، فهؤلاء عَبَّروا حسب مفاهيمهم « الوحي النفسي والرؤى والخيالات » وأولئك عَبَّروا وفقَ مفاهيمهم أيضاً « الجن والشياطين » وكانوا يسمون التابع من الجن (رَئِيّاً) . وقد ألزمهم الله الحجة بقوله :

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [1].

إنه ليمتنع ويستحيل على الشياطين أن تأتي بمثله. فإنه لا ينبغي لهم ، وإنهم لا يبتغونه ولا يطلبونه ، لأن سجاياهم الفساد وإضلال العباد . وفي هذا القرآن أمر بالمعروف والخير ؛ ونهي عن المنكر والشر، وهو هدىً وإيمان ونور وشفاء لما في الصدور . وإنهم ممنوعون محجوبون عن الاستماع لما يُوحيه الله إلى عباده المرسلين [2]. ومحمد معروف خُلقاً وفضيلة ، وأدباً وصدقاً وإحساناً . والشياطين تغاير صفاتهم صفاته ، فكيف يألفونه، والجنس إنما يألفه الجنس . ! ؟ .

ولو كان هذا الذي يقوله محمد صادراً عنهم لاحتوى مديحهم والثناءَ عليهم وإعلاء شأنهم ، بينما لو أجلتَ الطَّرْفَ في آيات القرآن لوجدتَ

---

(١) انظر تمام الآيات في الشعراء: ٢١٠ ـ ٢٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٣٤٩ وما بعدها.

فيها غضباً عليهم ولعناً كبيراً ، وتجهيلاً وتكذيباً لهم وكشفاً عن ضعفهم ، وأنهم ليس لهم على الذين آمنوا سلطان [١] .

تبين لك مما ذكرنا أن المستشرقين أطلقوا ـ أحياناً ـ مزاعمهم تكراراً مملولاً سخيفاً لترهات الجاهلية ، واغترفوا بعضها من غير تثبت ولا رواية ، وغَـيَّروه حسب أهوائهم في أحيان أخرى ، فجاءت مزاعمهم سمجة ممجوجة يأباها العقل . وقد رأيت ما نقضها من أساسها .

لقد دأب المستشرقون على تنميق الكلام وتزويقه ودعوى التزام قواعد البحث العلمي . . ثم تراهم أمام المسائل الإسلامية ـ والأساسية منها خاصة ـ يزعمون ويزعمون . . يفترون ويختلقون . . لعل ذاك الركام الوفير الهائل من الأضاليل والمفتريات يشوش الأذهان . ويعرقل زحف الدعوة الظافر في الشعوب فيطمس معالم الحقيقة ويُطفىء شعلة الهداية ، أو يُخمد جذوةَ حماس المؤمنين بالله المكافحين لإحقاق الحق وإزهاق الباطل . ولا تلبث بشيء من التفكر والأناة في مطالعة الحقائق من مصادرها ، أن تستبين وجه الحقيقة الناصع فتُطوح بتلك الآراء المغرضة الهدامة ، فتصبح أثراً بعد عين .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [٢] .

* * *

---

(١) قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ سورة النحل : ٩٨ ـ ١٠٠ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٨ .

الخاتمة

توصيات ومقترحات

أولاً : العناية بالرد على المستشرقين المغرضين : وأن يكون ذلك مشتملاً على ما يلي :

(أ) كشف فساد مزاعمهم وإبطال تقولاتهم على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وعلى الشريعة الإسلامية كافة ، وإظهار تحاملهم .

(ب) كشف أغراضهم ودوافعهم على سرد مزاعمهم ثم تسليط الردود عليها ، بل ينبغي أن تُعطى الصورة الصحيحة عن البحث بكتابة مستقلة ، تلحق بها الردود على تخرصاتهم في ذلك البحث . وهذا ما عمدنا إليه في كتابنا هذا .

ثانياً : إن خطة الغرب في إشغال الشرق بنفسه والتسبب في تضعضع أحواله الثقافية وغيرها يجب ألا تجعل الباحثين في موقف الدفاع فحسب ، بل عليهم أن يشنوا الغارة على الغرب في عقائده الزائفة ومدنيته الجائرة وسياساته الاستعمارية المتسلطة ومفاهيمه الأخلاقية المنحرفة . ويدخل في هذا مناقشة المستشرقين وغيرهم وكشف زيف عقائدهم اليهودية والنصرانية والإلحادية!! فالهجوم عليهم وجعلهم في موقف الدفاع أمر مهم .

ثالثاً : دعم المستشرقين المسلمين الصالحين مادياً ومعنوياً . وتنشيط نشر كتبهم ، ومداولتهم فيما يتخذونه من آراء وعقد مؤتمرات تخصهم وتخص حركتهم الفكرية وحالة الإسلام عامة في الغرب . وهذا في رأينا من أهم عوامل نشر الإسلام في الغرب ، فإن هؤلاء أدرى بمنطقه ومؤثراته ! .

رابعاً : افتتاح دورات دراسية إسلامية خاصة بالمستشرقين في إحدى الجامعات العربية الإسلامية ، وتشجيعهم على التزامها بالأساليب المناسبة. فلعل ذلك يقوِّم من اعوجاج آراء الخاطئين منهم ويزيد الله به الذين اهتدوا هدى. ولا ننسى أن أبناء الشعوب الإسلامية يحصلون على درجة الدكتوراه من هؤلاء ، فالعناية بثقافتهم وتصويب آرائهم عناية بسلامة الفكر الإسلامي فيمن ينال الدرجات العلمية منهم .

خامساً : ولا يجوز شرعاً تلقي العلم الإسلامي عن غير المؤمنين ، وواجب البلاد الإسلامية أن تمتنع عن إرسال أولادها لنيل الشهادات الإسلامية من المستشرقين غير المسلمين ، **بل على الهيئات العلمية الإسلامية أن ترسل بعض العلماء للمدارسة والمناقشة وتقديم التآليف في ذلك إلى الهيئات العلمية الإسلامية لتتولى ـ دون غيرها ـ توجيهها وتقويمها** . ولتكون الصلة بالمستشرقين صلة باحث بباحث لا صلة تلميذ مفتقر إلى الشهادة من أستاذ يمنح هذه الشهادة العلمية ! .

سادساً : إن مشكلة الجهل باللغة العربية تحمل أبناء المسلمين غير العرب على التوجه إلى الغرب للدراسة الإسلامية ويمكن حل هذه المشكلة بإحدى طريقتين :

أولاهما : تدريس العلوم الإسلامية باللغة الأجنبية .

ثانيهما : تعليم هؤلاء الشباب اللغة العربية في دورات تؤهلهم لمتابعة الدراسة العليا في الجامعات الإسلامية .

ولا بد من افتتاح معاهد عليا لهذا الغرض بعد دراسة وافية عن الطريقة المناسبة .

سابعاً : ترجمة أوثق كتب السيرة القديمة والمعاصرة إلى أشهر اللغات العالمية ، لتقف سداً منيعاً أمام التخرصات ، إذ يكون بمقدور جماهير المثقفين الاطلاع على الصورة الواقعية لسيد المرسلين فتنجذب قلوبهم إلى حبه وحب رسالته ، ولا يغيب عن بال عالم أن كتاب السيرة الوثيق من أفضل أساليب الدعوة الإسلامية في كل زمان ومكان .

ثامناً : إن المجتمع الإسلامي المعاصر بعربه وعجمه بحاجة إلى كتاب سيرة جديد يبين أموراً أساسية بالإضافة إلى ما درجت على تبيان كتب السيرة . وتلك في نظرنا كما يلي :

١ ـ تبيان حالة العالم قبل الإسلام ، وما كانت عليه الأمم من فساد في الأديان والأخلاق والأنظمة الاجتماعية . . فقد انقطع الأمل من كل مصدر بشري لإنقاذ الإنسانية . ليبين هذا للقارىء أن بعثة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام إنقاذ من الله للإنسانية من الظلمات إلى النور .

٢ ـ المقارنة والموازنة بين صفات العرب يومئذ وصفات شعوب العالم . وتبيان ظروف كل شعب. . لتتضح حكمة الله البالغة في اختيار العرب لحمل خاتمة رسالاته .

٣ ـ أن يظهر الكاتب من خلال جميع بحوث السيرة صفات صاحب السيرة المحمدية ولاسيما الرئيسية منها وهي أنه نبي الله ورسوله ، وأنه صلوات الله عليه قدوة للإنسانية في جميع تصرفاته وآدابه، فالسمة الأساسية للبحث أنه سيرة رسول من رب العالمين فليست سيرة صاحب « عبقرية » ولا سيرة « قائد عربي » إنه رسول الله حقاً وصدقاً وليس « رسول الحرية » فعلى الباحث أن يبذل قصارى جهده وغاية براعته في تجلية معالم هذه الخصيصة الأساسية في جوانب بحثه كافة .

٤ ـ إبراز وجوه حاجة الإنسانية قديماً وحديثاً إلى رسالته وإلى الاقتداء به والاهتداء بهديه .

٥ ـ خلود رسالته ﷺ وعمومها للبشرية جمعاء وتساوي شعوبها في توجيه الخطاب الإلهي إليها ، وفي ترتب المسؤولية عن هذه الرسالة .

٦ ـ تبيان مناحي ظاهرة الوحي؛ وفقاً للكتاب والثابت من سنة النبي الكريم وسيرته ؛ وسلامتها من توهم الواهمين وتخرص الطاغين الحاقدين المغرضين .

٧ ـ إن أفعال الرسول الموفقة ونصره المؤزر إنما تم بتأييد إلهي يمنحه الله لعباده المرسلين ، فهي من معالم نبوته ﷺ ، وهي تغاير تماماً العبقرية البشرية والبراعة الشخصية .

٨ ـ إن الله تعالى أيد بدلائل الحق وبراهين الصدق من معجزات حسية ومعجزات عقلية وبشارات كتابية في الكتب السماوية السابقة [١] . ويحسن ههنا أن يشتمل كتاب السيرة على أهم الردود على منكري المعجزات المادية لسيدنا محمد ﷺ من مستشرقين ومتابعين .

تاسعاً : أن لا يقتصر الباحث في السيرة على الموضوعات والحوادث التي أوردتها كتب السيرة ، بل عليه أن يستقي من القرآن والسنة وكتب التفسير والحديث والسيرة والعقيدة جميع الوثائق والبيانات والمعلومات التي تتصل بشخص محمد ﷺ وسيرته الاجتماعية والأسرية وتلقي ضوءاً على نبوته وحقيقة رسالته .

وقد حظي بكثير من هذه المزايا كتاب الأستاذ العلامة الشيخ الدكتور محمد محمد أبو شهبة رحمه الله وكتاب الأستاذ العلامة الداعية الشيخ

---

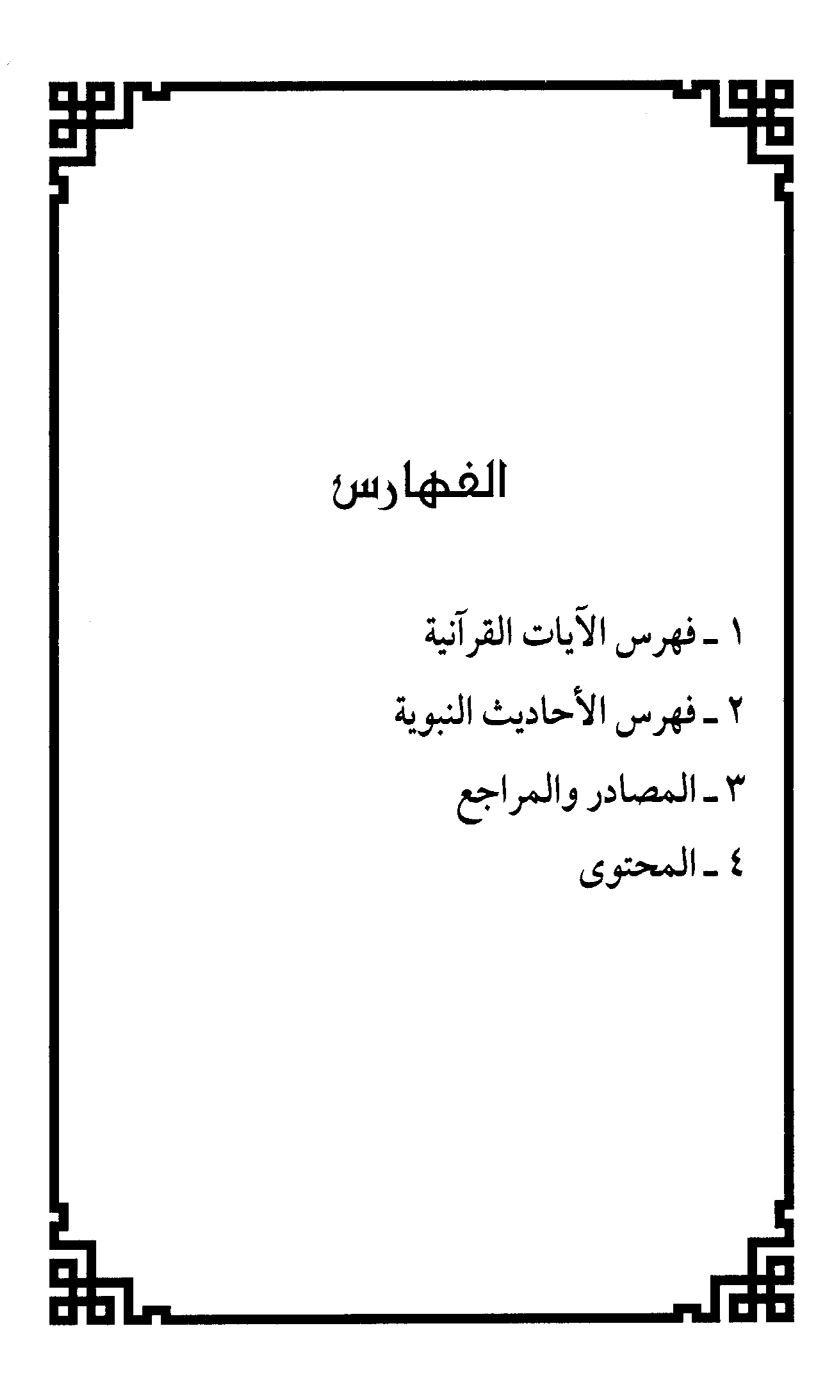
(١) انظر كتابينا : «نبوة صلى الله عليه وسلم في القرآن» ص ٢٣٥ ـ ٢٤٧ وص٢٩٩ ـ ٣٣٨ و«بينات المعجزة الخالدة» ص٥٢ ـ ٩٠ .

أبو الحسن الندوي حفظه الله وكلاهما بعنوان : « السيرة النبوية » .

عاشراً : أن يقوم الكُتَّاب الإسلاميون الناقدون للاستشراق والمسؤولون عن المؤسسات العلمية الإسلامية بمطالبة كل مستشرق يبحث في السيرة النبوية بحثاً مغرضاً أن يقدم منهجه في نقد الأخبار في مختلف أحوالها من اتفاق وتعارض واتصال وانقطاع . .إلخ . ليكون ذلك محور ارتكاز في نقاش المستشرقين ، كما يكون صمام انضباط لهم لدى رغبتهم إرسال الآراء المسمومة في مقالاتهم سبهللاً ! .

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. واغفر لنا إنك أنتَ الغفورُ الرحيم. وصلى الله على سيدنا محمدٍ خاتمِ المرسلينَ وعلى آله وصحبه والهادين بهديه إلى يوم الدين .

* * *



الفهارس



فهرس الآيات القرآنيـة

(٤) سورة النساء

(٥) سورة المائدة

(٦) سورة الأنعام

(٧) سورة الأعراف

(٨) سورة الأنفال

(١٠) سورة يونس

(١١) سورة هود

(١٢) سورة يوسف

(١٣) سورة الرعد

(١٤) سورة إبراهيم

(١٥) سورة الحجر

(١٦) سورة النحل

(١٧) سورة الإسراء

(١٩) سورة مريم

(٢٠) سورة طه

(٢١) سورة الأنبياء

(٢٢) سورة الحج

(٢٣) سورة المؤمنون

(٢٥) سورة الفرقان

(٢٦) سورة الشعراء

(٢٧) سورة النمل

(٢٨) سورة القصص

(٢٩) سورة العنكبوت

(٤٣) سورة الزخرف

(٤٤) سورة الدخان

(٤٥) سورة الجاثية

(٤٧) سورة محمد

(٤٨) سورة الفتح

(٤٩) سورة الحجرات

(٥٣) سورة النجم

(٥٤) سورة القمر

(٦١) سورة الصف

(٦٦) سورة التحريم

(٦٧) سورة الملك

(٦٩) سورة الحاقة

(٧٣) سورة المزمل

(٧٤) سورة المدثر

(٧٥) سورة القيامة

(٨١) سورة التكوير

(٨٥) سورة البروج

(٩٦) سورة العلق

* * *

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة

* * *

المصادر والمراجع

(أ) القرآن الكريم وعلومه :

القرآن الكريم ـ كتاب الله تبارك وتعالى.

الإتقان في علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطي ـ الطبعة الثالثة ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر.

الأحرف السبعة في القرآن ومنزلة القراءات منها ـ للمؤلف ـ يسر الله طبعه.

الإحسان في تعقب الإتقان ـ عبد الله بن الصديق الغماري ـ ط ـ مصر.

إعجاز القرآن ـ لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ـ دار المعارف ـ مصر.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ عبد الله بن عمر البيضاوي ـ مكتبة الجمهورية ـ مصر.

البحر المحيط ـ محمد بن حيان الأندلسي ـ مطبعة السعادة ـ مصر.

البرهان في علوم القرآن ـ محمد بن عبد الله الزركشي ـ عيسى البابي الحلبي ـ مصر.

بينات المعجزة الخالدة ـ للمؤلف.

تفسير القرآن العظيم ـ عماد الدين بن كثير ـ عيسى البابي الحلبي ـ مصر.
التفسير الموضوعي ـ أمالي الشيخ محمد السماحي ـ للدراسات العليا بكلية أصول الدين بالأزهر.
جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ محمد بن جرير الطبري ـ طبعة مصطفى البابي الحلبي الثانية وطبعة دار المعارف ـ مصر.
الجامع لأحكام القرآن ـ محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ـ ط. دار الكتب المصرية.
روح المعاني ـ محمود الآلوسي ـ الطبعة المنيرية الأولى ـ مصر.
صفوة البيان لمعاني القرآن ـ حسنين مخلوف ـ ط. مصر.
مفاتيح الغيب ـ المشهور بالتفسير الكبير ـ الفخر الرازي ـ ط. عبد الرحمن محمد ـ مصر
المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني ـ طبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر
مناهل العرفان ـ محمد عبد العظيم الزرقاني ـ الطبعة الثالثة ـ عيسى البابي الحلبي ـ مصر

(ب) الحديث النبوي وعلومه :

جامع الترمذي ـ مطبعة الصاوي ـ مصر.
جامع الأصول من أحاديث الرسول ـ أبو السعادات مبارك بن محمد ابن الأثير الجزري ـ مطبعة السنة المحمدية ـ مصر.
السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ـ دكتور مصطفى السباعي ـ ط. دمشق.
الشفاء ـ القاضي عياض ـ ط. مصر.
صحيح الإمام البخاري ـ ط. عيسى البابي الحلبي ـ مصر.
صحيح الإمام مسلم ـ ط. عيسى البابي الحلبي ـ مصر سنة ١٩٥٥.

عمدة القارىء شرح صحيح البخاري ـ بدر الدين محمود العيني ـ ط المنيرية.
فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ أحمد بن حجر العسقلاني ـ المطبعة الخيرية للخشاب ـ مصر.
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ علي بن أبي بكر الهيثمي ـ ط. مصر.
المستدرك ـ للحاكم النيسابوري ـ ط. الهند.
مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ المطبعة الميمنية ـ مصر.
المنهاج شرح صحيح مسلم ـ للنووي المطبعة الزهرية.
منهج النقد في علوم الحديث ـ دكتور نور الدين عتر ـ ط. دمشق.
النهاية في غريب الأثر ـ مبارك بن محمد، ابن الأثير الجزري ـ ط. عيسى البابي الحلبي ـ مصر.

(ج) **العقيدة وعلم الكلام:**

كتاب الأربعين في أصول الدين ـ للفخر الرازي ـ ط. الهند.
إيثار الحق على الخلق ـ ابن الوزير ـ مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة.
تثبيت دلائل النبوة ـ القاضي عبد الجبار ـ دار العربية ـ بيروت.
شرح المواقف ـ علي بن محمد الجرجاني ـ مطبعة السعادة ـ مصر.
العقد المنظم في أقسام الوحي المعظم ـ علوي عباس المالكي ـ ط. مصر.
لوائح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية ـ محمد السفاريني ـ مطبعة المنار ـ مصر.
موقف العقل والعلم والعالم ـ مصطفى صبري ـ ط. مصر.
النبوات ـ تقي الدين أحمد بن تيمية ـ المطبعة المنيرية ـ مصر.
نبوة محمد ﷺ في القرآن ـ للمؤلف ـ ط. حلب.

الوحي المحمدي ـ محمد رشيد رضا ـ طبعة خامسة ـ محمد علي صبيح وأولاده بمصر .

(د) السيرة والتراجم :

تاريخ الرسل والملوك ـ أبو جعفر بن جرير الطبري ـ ط. دار المعارف بمصر.

الروض الأُنُف ـ عبد الرحمن السهيلي ـ المطبعة الجمالية ـ مصر.

سيرة ابن هشام ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ ط. مصر.

شرح المواهب اللدنية ـ للزرقاني ـ المطبعة الزهرية ـ مصر.

الطبقات الكبرى ـ محمد بن سعد ـ ط. بيروت سنة ١٩٦٠ .

عيون الأثر في فنون المغازي والسير ـ لابن سيد الناس ـ ط. دار المعرفة ببيروت.

(هـ) علوم اللغة العربية وآدابها :

تاج العروس من جواهر القاموس ـ محمد بن مرتضى الزبيدي ـ ط. مصر.

القاموس المحيط ـ محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ـ الطبعة الأميرية الثالثة.

لسان العرب ـ محمد بن منظور الإفريقي المصري ـ الطبعة الأميرية.

(و) موضوعات متنوعة :

أجنحة المكر الثلاثة ـ عبد الرحمن حبنكة الميداني ـ ط. دمشق.

الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ـ دكتور مصطفى السباعي.

تاريخ الحضارة الإسلامية ـ جاد محمد رمضان ـ ط. مصر.

التبشير والاستعمار ـ دكتور عمر فروخ ومحمد الخالدي ـ ط. لبنان.

حياة محمد ـ محمد حسين هيكل ـ ط سادسة ـ مصر .
دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ـ موريس بوكاي ـ «معرب» ـ ط مصر .
شمس العرب تسطع على الغرب ـ زيغريد هونكه «معرب» ـ ط لبنان .
الظاهرة القرآنية ـ مالك بن نبي ـ ط . مصر .
العقيدة والشريعة ـ أجناس جولد سيهر ـ «معرب» ط . مصر .
محمد رسول الله ـ ايتين دينيه «تعريب وتقديم دكتور عبد الحليم محمود» ط . مصر .
محمد رسول الحرية ـ سلسلة كتاب الهلال ـ ط . مصر .
محمد رسول الهدى والرحمة ـ مقال من كتاب الأبطال ـ توماس كارليل «معرب» .
مذاهب التفسير الإسلامي ـ أجناس جولد سهير «معرب» ط . مصر .
Muhammad at Mecca, Watt, Oxford 1953.
ملاحظة : ذكرت في الهامش الطبعة المغايرة لما ورد في هذا الثبت لدى الرجوع إليها .

* * *

المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

من الإنتاج العلمي للمؤلف

(أ) في تحقيق التراث الإسلامي :

- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن ، للإمام أبي الفرج بن الجوزي الحنبلي ، ط . ثانية ، مصححة ؛ ومعتمدة على ثمان نسخ في التحقيق ، مع زيادة تحقيقات وتعليقات علمية مهمة . (تحت الطبع) .
- تفسير سورة النصر ، للإمام عبد الرحمن بن رجب الحنبلي ، ط . ثانية (نفدت) .
- تفسير سورة الملك ، لأحمد بن سليمان بن كمال باشا ، ط . أولى (نفدت) .
- التيسير لحفظ مذاهب القراء السبعة ، لأبي عمرو الداني (معد للطبع) .

(ب) في التأليف العلمي :

- نبوة محمد ﷺ في القرآن ، ط . ثالثة . (نفدت) .
- المعجزة الخالدة ، ط . ثالثة ، دار الإيمان ـ المدينة المنورة .
- وحي الله . حقائقه وخصائصه ، نقض مزاعم المستشرقين ، ط . ثالثة . دار المكتبي ، دمشق .
- الأحرف السبعة في القرآن ، ط . ثانية ، مصححة موسعة (تحت الطبع) .

- الشورى في الإسلام (تحت الطبع) .
- شغف الرسول وأصحابه بحفظ القرآن أساس تواتره (بحث واسع في مجلة كلية الشريعة ، العدد الخامس ١٤٠٣ هـ . جامعة أم القرى بمكة المكرمة) .
- مزايا القرآن الكريم (معد للطباعة) .
- التربية الإسلامية ، بالاشتراك ط . وزارة التربية السورية سنة ١٩٦٧ م .
- العناية بتفسير القرآن العظيم ، سلسلة دعوة الحق ، عدد ١٤٤ ـ سنة ١٤١٤ هـ ، رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

وحي الله

إن الإيمان بالوحي هو من أهم أسس العقيدة الأسلامية ، وإن إثبات الوحي هو إثبات لنبوة خاتم الرسل عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ، ودليل ناصع على صحة دين الإسلام وإلهيّة مصدره . ولأهميته الفائقة وخطورته البالغة فقد حاول بعض المستشرقين المغرضين التشكيك بالوحي ـ جملةً وتفصيلاً ـ لتهديم إحدى ركائز الدين الإسلامي .

لذلك فقد هرع العلامة الفاضل إلى كشف شبهات المستشرقين في الوحي إلى سيد المرسلين بمنهج علمي دقيق وفكر إسلامي ثاقب ، فأظهر حقائق « وحي الله » الثابتة بالبراهين العقلية والعلمية وأثبت أهم دعائم اليقين بنبوة خاتم المرسلين وربانية رسالته .

كلّ ذلك بأسلوب أدبي مشرق جذاب ، ونقاش حيوي ، وفكر وقّاد يسعى إلى تزويد المسلمين في أرجاء العالم بما يرسخ يقينهم بعقيدتهم ، ويدعم صمودهم في معارك الفكر المضطرمة.



سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢